

دراسات فى تاريخ الحركة الصليبية
(٣)

مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية

دكتور
حسن عبد الوهاب حسين
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش بوتييه - الأزاريطة - ٤١٣٠١٦٣
٣٨٧ ش خيال السويس - السطحي - ٥٩٧٣١٤٦٤



١١٤٢



دراسات في تاريخ الحركة الصليبية

(٢)

38756
38751

Library of the State of Palestine
National Library and Archives

مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية

دكتور

حسن عبد الوهاب حسين
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٥٥٩,٥٢
ع ٢
م

الهيئة العامة :	الاسكندرية
رقم التصنيف :	٥٥٩,٥٢
رقم التسجيل :	٣٨٧,٥٠

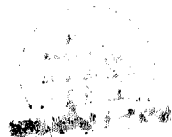
١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الكوارطة - ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنطرة السويس - السويس - ٥٩٧٣١٤٦

D4

Handwritten text at the top left, possibly a date or reference number.



Handwritten text in the middle section, possibly a title or subject line.

Handwritten text in the middle section, possibly a title or subject line.

Handwritten text in the middle section, possibly a title or subject line.

Handwritten text in the middle section, possibly a title or subject line.

VPP

Handwritten text in a rectangular box, possibly a signature or official stamp.
Handwritten text in a rectangular box, possibly a signature or official stamp.
Handwritten text in a rectangular box, possibly a signature or official stamp.
Handwritten text in a rectangular box, possibly a signature or official stamp.

Handwritten text at the bottom, possibly a signature or official stamp.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ
وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى
شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

«التوبة، آية : ١٠٩»



بسم الله الرحمن الرحيم

تتناول هذه المجموعة من المقالات جوانب شتى من تاريخ الحروب الصليبية وخاصة الجوانب الاجتماعية منها. ولاشك أن هذا المجتمع الذى نشأ فوق أرض الشام كان مجتمعاً غريباً على هذه الأرض ووسط هذا الكيان الإسلامى الذى عمل جاهداً على لفظه. وإذا أمعنا النظر فى العوامل التى أدت إلى فشل هذا الكيان الصليبي، فمما لاشك فيه أن الجوانب الاجتماعية كان لها دوراً أساسياً فى ذلك. فقد قام هذا المجتمع على أسس واهية سرعان ما انهارت بعد أن عاد المسلمون إلى وحدتهم وبدأوا فى مقاومة هؤلاء الغزاة. وبالإضافة إلى تناول سقوط بيت المقدس فى عام ١٠٩٩م من خلال مصدر معاصر هو بطرس تيدبوده وعقد مقارنة مع مختلف المصادر لذلك، فقد أوردت مقالة ليوشع براور عن استيطان اللاتين فى هذه المدينة وقيام هذا المجتمع الصليبي. وعقب ذلك انتشرت الأمراض الاجتماعية بين فئاته المختلفة وذلك منذ قدوم الصليبيين فى الحملة الأولى، ومن بينها الزنا والدعارة وهى مقالة لجيمس برونديج الذى أوضح لنا ذلك كاشفاً حقيقة هذه الادعاءات الكاذبة لأدعياء الإيمان فى تلك الحروب. ومن جانب آخر فقد كشفت عن مرض آخر انتشر فى هذا المجتمع فى مقالتى عن الرشوة والتى أوضحت كيف كان لرنين الذهب والفضة أثره على آذان هؤلاء الغربيين فأصمها، وترك أثره على أخطر الحملات ونتائجها. أما جان ريتشارد فقد تناول وضع المرأة فى الشرق اللاتينى من خلال نصوص نادرة فى مجموعة قوانين البرجوازية ومؤلفات جان دى أبلين وفيليب دى نوفار. ومن زاوية أخرى قدم لنا سيفيان إيمانويل دراسة قيمة عن: اللاجئون السوريون - الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية. وهى دراسة ذات أبعاد اجتماعية هامة لتناول أثر هذه الحروب على هذا الجانب الاجتماعى والهجرات التى

حدثت. ومن خلال مخطوط الفضل المأثور لشافع بن على قدمت دراسة لوصايا المنصور قلاوون وهى دراسة شاملة لنواحي سياسية واجتماعية واقتصادية هامة. واختتمت ذلك بدراسة عن دور مصر فى حماية أمن البحر الأحمر فى القرن الثانى عشر الميلادى، وأثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية حتى معركة حطين.

وأقدم بخالص شكرى وتقديرى لكل من قدم لى يد العون والمساعدة خاصة أساتذتى الأجلاء الذين تتلمذت على أيديهم وإلى والدى - رحمه الله - ووالدتى وزوجتى وأبنائى جميعاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. حسن عبد الوهاب حسين

استيلاء الصليبيين على بيت المقدس

(١٠٩٩م)

في ضوء رواية بطرس تيدبوده

«دراسة تاريخية مقارنة»

Handwritten text in a cursive script, possibly a signature or a name.

1910

Handwritten text in a cursive script, possibly a signature or a name.

Handwritten text in a cursive script, possibly a signature or a name.

بسم الله الرحمن الرحيم

دعا البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت الكنسى (١٨-٢٨ نوفمبر ١٩٠٥م) إلى الحرب الصليبية بادئاً بذلك ما عرف في تاريخ الحروب الصليبية بالحملة الأولى. واندفعت الجموع الصليبية للمشاركة فيها، خاصة هذه المجموعة من مؤرخيها وشهود عيان أحداثها مثل فوشيه أوف شارتر^(١) وريمونداجيل^(٢) والمؤرخ المجهول لأعمال الحجاج^(٣) ويطرس تيدبوده^(٤) وقد بدأ الأخير مؤلفه عن تاريخ رحلة بيت المقدس بمقدمة عامة وسريعة عن استعدادات ورحيل الحملة مما لا يجعلنا نعرف مع من رحل المؤرخ. وهناك احتمال أن يكون قد رحل مع قوات بواتييه الذين خرجوا تحت قيادة هيودى لوزجنان ثم آلت القيادة إلى جاستون دى بيارن. ثم انضم تيدبوده إلى قوات بوهمند النورماندى حيث عبر معه الإمبراطورية البيزنطية وكان متواجداً في حصار نيقية وظل معه حتى سقوط أنطاكية (١٠٩٨م).

ثم نجد المؤرخ تيدبوده ينضم إلى ريموند كونت تولوز عندما رفض بوهمند التقدم جنوباً مع بقية القوات الصليبية ويبدأ يسجل لنا صفحات تاريخه حيث شارك في حصار معركة معرة النعمان وأخيراً تواجد مع القوات الصليبية التي حاصرت بيت المقدس واستولت عليه^(٥).

وفي الواقع فإننى كنت قد انتهيت من إعداد ترجمة كاملة لتاريخ تيدبوده، غير أننى علمت بطريق الصدفة أن الزميل الدكتور حسين عطية بصدد ترجمته أيضاً، وحتى كتابة هذا البحث فإن هذه الترجمة لم تنشر بعد ولذا فقد احتفظت أيضاً بحقى فى إعداد هذا البحث وتقديمه للقارئ الكريم حيث أن الهدف فى النهاية هو إثراء العلم بهذه الدراسات التى تتناول مصادر تاريخ الحروب الصليبية من وجهات نظر مختلفة وسوف أترك الحكم فى

النهاية للقارئ الكريم عند مقارنة العاملين معاً لإصدار حكمه على بحثي المتواضع.

وقد وقع اختياري على الفصل الخاص باستيلاء الصليبيين على القدس لكي يكون مجال دراسة مقارنة بين ما كتبه تيدبوده وما كتبتة المصادر الأخرى من شهود العيان المعاصرين ومن المتأخرين عن هذا الزمن قليلاً وكتبوا عن سقوط القدس. فالدراسة المقارنة تظهر أهمية تاريخ تيدبوده وتضعه في مكانته بين هذه المصادر من ناحية، وتبرز لنا أفضل هذه المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها عند تسجيلنا لأحداث هذه الفترة الزمنية الهامة من ناحية أخرى.

وبالإضافة إلى مقارنة المترجمين لتيدبوده مع ريمونداجيل والمؤرخ المجهول لأعمال الحجاج. فإنني أيضاً استكملت تلك المقارنة مع عدد آخر من المؤرخين الصليبيين المعاصرين. ففوشيه أوف شارتر - الذي على الرغم من أنه لم يكن شاهداً عياناً - قدم لنا معلومات هامة استكملت بعض النقاط لدى تيدبوده. فقد عاصر الحملة الأولى ولكنه كان آنذاك في الرها ثم كتب تاريخه عن الحروب الصليبية والذي يعد أحد أهم مصادرنا عن حصار بيت المقدس. كذلك اعتمدنا في المقارنة على مصدر آخر هو «أعمال تانكرده لرادلف أوف كين»^(٦) والذي سجل لنا حياة تانكرده. وأهميته أيضاً بصفة عامة تتمثل في أنه سجل مؤلفه بعد موت تانكرده حتى لا يكون ذلك نوعاً من التملق له أو ربما لكي ينأى بنفسه عن الصراعات بين تانكرده ومعارضيه. وعلى الرغم من أنه قدم إلى الأراضي المقدسة في عام ١١٠٨م فإن ألفته مع تانكرده قدمت له روايات عن أحداث الحملة الأولى لم تكن معروفة لدى المؤرخين الصليبيين الآخرين^(٧). وبالنسبة لحصار القدس قدم لنا أيضاً رادلف مادة في غاية الأهمية عن الحصار وإعداد الآلات وغيرها من الأحداث التي تظهر في التعليقات المذيلة بهذه الترجمة. وعلى الرغم من أن مصدره كتب بأسلوب أدبي صعب إلا أنه يمكن استقاء مادة تاريخية هامة

منه لمقارنتها مع غيرها من مصادر هذه الفترة^(٨). ونستكمل هذه الدراسة المقارنة بالمؤرخ وليم الصوري^(٩) والذي يقدم لنا مادة هامة أيضاً. فعلى الرغم من اعتماده على ريمونداجيل وأعمال الحجاج، إلا أنه أيضاً اعتمد على تيدبوده في أحداث الحملة الأولى وخاصة عند حصار القدس، وقد أثبت ذلك في الهوامش والتعليقات الواردة في نهاية البحث. وأخيراً فقد أشرت إلى بعض النقاط من خلال مصادر أخرى هامة مثل تاريخ بيت المقدس لألبرت إكس^(١٠)، وكذلك مقارنة مع مصادرنا العربية والتي لم تعط لنا إلا مادة قليلة للغاية عن استيلاء الصليبيين على القدس ولكنها على أية حال استكملت الصورة في كثير من جوانبها.

ومن خلال ما قدمه المترجمان^(١١) وما أثبتته أيضاً عن تيدبوده كمصدر للحملة الصليبية الأولى - وبصفة خاصة موضوع هذه الدراسة وهو الاستيلاء على القدس - فإنه إما انفرد بأحداث لم يشر إليها ريمونداجيل والمؤرخ الجهول أو أنه قدم لنا مادة أفضل منهما وكذلك دقته في تسجيل أحداث الحملة. وعلى سبيل المثال تحديده للتاريخ الصحيح لوصول الصليبيين أمام القدس، ثم اتفاه مع أعمال الحجاج في الإشارة إلى الاشتباكات الأولية في ٩ يونيو ١٠٩٩ م، ثم تحديده بدقة لهجوم ١٣ يونيو ١٠٩٩ م وتحليله الصائب عن أسباب فشله. كذلك تقديمه لأفضل وصف عن الموكب الذي قام به الصليبيون حول القدس وتحديده لتاريخه بدقة في ٨ يوليو ١٠٩٩ م. وانفراده بالإشارة إلى مقتل أحد الصليبيين. كذلك وصفه للشارة أو العلم الفاطمي على القدس ولكنه لم يعط لنا لونه. كذلك قصته عن تحطيم الصليب على سور القدس وهي التي نقلها عنه المؤرخون الآخرون مع المبالغة في القصة وإضافة مزيد من الإثارة إليها، وكذلك مناقشتي للعبارة التي سمعها من أهالي القدس وهم يحطمون الصليب والتي اعتقد أنها «أيها الفرنيجة أيجيب الصليب؟» وليس «أيها الفرنيجة صليب عجيب» كما أوردها تيدبوده.

كذلك دقته فى تحديد عدد الأسرى المسلمين متفقاً فى ذلك مع ريمونداجيل وطريقة معاملتهم، كما انفرد بإيراد قصة ذلك الجاسوس المسلم والتي رجحنا صدقه فيها مع إشارته إلى دور النصارى الشرقيين الذين كانوا مع الصليبيين فى ذلك. كذلك أوردت قصة مشابهة وردت لدى ألبرت إكس ربما كان مصدرها شفهيًا ولكن مع إدخال ألبرت تعديلا عليها بما يتفق مع اهتماماته عن المحاولات المبكرة للتبشير بالمسيحية.

ومن النقاط الهامة أيضاً إيراداً للتواريخ الدقيقة وخاصة الاستعدادات المبكرة للهجوم النهائى على القدس. ثم تقديمه لنا مادة هامة عن نشاط ريموند أوف سان جيل خاصة وأن ريمونداجيل انتقل للحديث عن جودفرى، فقدم لنا تيدبوده محاولات اقتحام القدس من ناحية برج داود وناقشت كيف وصل الخبر إلى ريموند حيث حل ابن الأثير هذه المشكلة التى لم تتفق عليها المصادر الصليبية، فأشار إلى أن المستغيث من أهل المدينة أوصل إلى الأهالى فى هذه المنطقة خبر اقتحام القدس من ناحية الشمال.

وهناك رواية هامة أوردتها تيدبوده عن تانكرد أثناء اقتحام المدينة فقد ذكر أنه أعطى رايته للأهالى الذين اعتلوا المسجد الأقصى، ثم أصدر أوامره فى اليوم التالى بقتلهم. وقد اختلفت المصادر فى مساءلة إصدار تانكرد لهذا الأمر. فأعمال الحجاج تذكر أنه كاد يتفجر غيظاً عندما رأى الصليبيين يقتلون هؤلاء الأهالى، أما رادلف فلم يقدم لنا رواية عن ذلك وكذلك فعلت بقية المصادر الأخرى - وربما أن تانكرد لم يستطع أن يمنع هذه الجموع الصليبية من اقتحام المسجد الأقصى بحثاً عن الثروة وهو ما فعله تانكرد بنفسه، ومرجع غيظه إلى أنه كان يرغب فى أن يحصل على فدية منهم، ولكن الأمراء أقنعوه بضرورة القيام بهذه المذبحة مع وصول أنباء عن تحركات فاطمية من مصر لإنقاذ القدس - وهو ما أكده ابن القلانسى - فمن الصعب الإبقاء على هؤلاء الأسرى أحياء. وهذا رأى أخذ به المؤرخ نكاسون.

أما عن بقية روايته عن الاستيلاء على القدس، فقد انفرد بالإشارة إلى مقاومة الأهالي بعد اقتحام المدينة، وكذلك دقته في الإشارة إلى سيل الدماء في المسجد الأقصى - دون أن يبالغ مثل بقية المصادر في أنه وصل إلى ألجمة وسروج الخيل. كما أنه كان دقيقاً في وصفه عن اختيار جودفري حاكماً للقدس - وكذلك أرنولف بطريركاً للمدينة.

وعلى الرغم من هذه الإشارات السابقة إلا أن هناك بعض المآخذ في رواية بطرس تيدبوده. مثال ذلك عدم استكمال له لأحداث الغارة الصليبية عند يافا ومبالغته في ذكر نتائجها. كذلك عدم إعطائنا تفاصيل الهجوم الرئيسي على القدس يومى ١٤ و ١٥ يوليو ١٠٩٩م بينما أفاضت المصادر الأخرى في ذلك. كذلك ما أشار إليه من إصدار تانكرد لأوامره بقتل أهالي القدس وهى ما سبقت الإشارة إليها ورجحنا عدم صحة ذلك.

وفى الحقيقة فإن تاريخ تيدبوده على الرغم من أهميته التى اتضحت لنا من خلال أحد فصول كتابه لم يلق هذا القدر من الأهمية منذ قرنين من الزمان. فقد اعتبره كثير من المؤرخين الحديثين مثل «هنريش فون سايل»^(١٢)، و«أوف دى سالى»^(١٣) أنه عمل منتحل من أعمال الحجاج وريمونداجيل واعتبره هنرى والن وأدولف رينيه أنه «سلسلة من التقارير الرسمية»^(١٤)، واستمرت هذه النظرة التاريخية لتاريخ تيدبوده بعد نشر هاجمنير^(١٥) وبرين^(١٦) لأعمال الحجاج حيث أشارا إلى كثير من الأدلة ضده.

ولكن مع بداية القرن العشرين أشار نيقولاس يورجا إلى أهمية تيدبوده ومع الدراسة التى قدمها جون هيو هيل ولوريتا هيل لريمونداجيل^(١٧) ثم الدراسة الدقيقة التى قدامها أيضاً لتاريخ تيدبوده من خلال مقارنة مخطوطاته المختلفة كلمة كلمة ومع أعمال الحجاج وريمونداجيل توصلنا إلى أهميته ومكانته بين مصادر الحملة الأولى. وأشارنا إلى وجود مادة جيدة به

ومعلومات انفرد بها من خلال مؤلفه بصفة عامة واختلافات لم تدخل في حسابات النظريات القديمة بمن نقله عن من (١٨).

وبالفعل ومن خلال مراجعتي للمراجع المتخصصة في تاريخ الحروب الصليبية مثل ستيفن رانسيمان^(١٩) ورينيه جروسيه^(٢٠) وستيفنسون^(٢١) وغيرها لم تشر إلى تاريخ تيدبوده ضمن حواشيتها بينما اعتمدت على أعمال الحجاج وريمونداجيل. ومرجع ذلك إلى أن هذه المراجع صدرت قبل عام ١٩٧٤. وهو تاريخ نشر تاريخ تيدبوده. كما أن ج. فرانس لم يشر إليه ضمن مصادره على الرغم من أنه تناول نقطة هامة تتعلق بالفترة من هزيمة كربوغا حتى الرحيل من عرقه، وربما أيضاً تأثر بالآراء القديمة عن تيدبوده لأن تاريخ مقاله يرجع إلى عام ١٩٧٠م^(٢٢).

غير أن هذه النظرة بدأت تتغير نحو تيدبوده كمصدر، فقد استخدمه المؤرخ الشهير رالي سميث^(٢٣) مقتبساً منه وصفه للموكب الصليبي حول القدس، وكذلك يوشع براور^(٢٤) في مقاله عن القدس الذي استخدمه ضمن مصادره وخاصة عن دور ريموند كونت تولوز في اقتحام القدس.

ولم يقتصر ذلك على المؤرخين الحديثين بل أيضاً أفاد منه القدامى مثل ألبرت أوف إكس ووليم الصورى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وأخيراً لا بد أن أشير إلى أنني أوردت نص تيدبوده مترجماً بكلماته والتي ورد فيها ما يتفق مع معتقده، مع تصحيح ذلك بآيات من القرآن الكريم لتصحيح ذلك. كذلك وصفه للمسلمين بكلمات تعبر عن روح التعصب لدى هؤلاء المؤرخين مثل «الكفار» و«الوثنيين» وغيرها.

أرجو من الله تعالى أن تكون هذه الدراسة إضافة إلى تلك الدراسات التي تتناول دراسة مصادر تاريخ الحروب الصليبية والتي لاشك أنها تفيد الدارسين في هذا المجال من ناحية، وتبرز الحقيقة التاريخية دون تحيز من

ناحية أخرى. وانتهاز هذه الفرصة لأعبر عن خالص شكرى للأستاذ الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ لمراجعته لهذا البحث وتوجيهاته القيمة لى، وكذلك للزميل الفاضل الأستاذ الدكتور محمد السيد عبد الغنى على ملاحظاته على النص اللاتينى، فله خالص شكرى وتقديرى.

والله أسأله التوفيق والسداد.

هوامش المقدمة

(١) Fulcher of Chartres, *Gesta Francorum Iherosolem* (ed. by Frances Rita Rayan, as *A History of the Expedition to Jerusalem*, Tennessee, 1969.

(٢) Raimond d'Agiles, *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: د. حسين محمد عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠.

(٣) *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*, as: *The Deeds of the Franks and the other Pilgrims to Jerusalem*, ed. by Rosalind Hill, Medieval Texts, London, 1962.

وكذلك راجع: ترجمة: د. حسن حبشي لنفس المصدر، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، القاهرة، ١٩٥٨.

(١) وردت كثير من الصيغ لكنية المؤلف في المخطوطات المختلفة مثل:

Tudebouis, Tudabouis, Tutebouis, Tudebodus

وربما يرجع هذا الاختلاف في الصيغ إلى أثناء الترجمة لاسيما من الفرنسية إلى اللاتينية. وقد أوردت المخطوطات أنه ولد في سيفركوم أو من مواطنيها وسيفراى Sivray هي مدينة صغيرة في بواتيه وأوردت مخطوطتان أنه «أسقف سيفراى» وكان لتيدبوده أخ وربما اثنان في الحملة. وقد مات أحدهما من إصابة لحقت به عند أسوار أنطاكية، والآخر قتل أمام المعرة، ووصفه لهما يدل على أنهما فارسان من عائلة نبيلة. ويبدو أن تيدبوده استكمل كتابه بعد موت جودفري دى يويوان ولكنه توقف عند معركة عسقلان في ١٤ أغسطس ١٠٩٩م، ومن المؤكد أنه وضعه قبل عودته إلى فرنسا مع جموع الصليبيين بعد انتهاء الحملة الأولى، للمزيد، انظر:

RHC.Occ. Vol. III, pp. I-X.

Ibid.

(٥)

(٦) Radulph of Caen, *Gesta Tancredi Siciltiae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in RHC, H.Occ. Vol. III.

ولد رادلف في كين «ويذكر د. مارتين D. Martene أنه ولد في عام ١٠٨٠م،

وكان تلميذاً لأرنول أو أرنولف الذى سيصبح بطريركاً لبيت المقدس، ورحل إلى الأراضى المقدسة فى حوالى عام ١١٠٧م أثناء إعداد بوهمند لحملته ضد الإمبراطورية البيزنطية ووصل إلى أنطاكية حيث كان راغباً فى خدمة تانكرد وكان لذلك أثره على حصوله على روايات عن أحداث لم يشاهدها بعينه بل رواها له صانعوها وهناك إشارة عن وفاته فى عام ١١١٥م، ولكنها غير صحيحة لأنه أورد أحداثاً جرت فى عام ١١٣١م، مما يعنى وفاته بعد ذلك العام. انظر:

RHC. H. Occ. III, pp. XXXVIII, XXXIX.

Ibid.

(٧)

J. Prawer, «The Jerusalem the Crusaders Captured: Contribution to the medieval Topography of the City» in Crusade and Settlement ed. P.W. Edbury, Cardiff 1985, p. 9. (٨)

William of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, 2 vols., trans. and annotated by E. Babcock A.C. Krey New York, 1943. (٩)

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in RHC, H. Occ., Vol. IV. (١٠)

John Hugh Hill and Laurita L. Hill. (١١)

Heinrich Von Sybel, ef. Introduction to Peter Tudebode, p. 2. (١٢)

F. de Saulcy, Ibid. (١٣)

(١٤) وضع هنرى والن Henri Wallon وأدولف رينيه Adolph Renier مقدمة تيدبوده فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية. انظر:

RHC. H. Occ, Vol. III, pp. I-X.

H. Hagenmayer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. by H. Hagenmayer (Heidelberg, 1890). (١٥)

Historie anonyme de la premiere croisade, ed. and trans. by L. Brehier (Paris 1924) (١٦)

(١٧) ريمونداجيل، المصدر السابق، ٣٥-٥٦.

Introduction to Peter Tudebode, pp. 6-12. (١٨)

S. Runciman, A History of the Crusades, 3 Vols. Cambridge, 1975, Vol. I, pp. 279-288. (١٩)

R. Grousset, *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem* 3 (٢٠)

Vols, Paris, 1948, Vol. I, pp. 155-166.

W. Stevenson, *The Crusaders in the East*, Beirut, 1907, pp. 35 ff. (٢١)

J., France, *The Crisis of the First Crusade, From the Defeat of Kerbogah to* (٢٢)

the Departure from Arqa, Byzantion XL, 1970, pp. 277-78.

J. Riley - Smith, *The Crusades, Idea and Reality (1095-1974)* , London, (٢٣)

1981, pp. 164-65.

Prawer, *op.cit.*, p. 7. (٢٤)

قائمة المختصرات

- B.E.O. Bulletin des Etudes Orientale.
- B.I.H.R. Bulletin of the Institute of Historical Research.
- H.Chr. Hagenmeyer, Chronologie.
- J.A.Journal Asiatique.
- J.J.S. The Journal of Jewish Studies.
- R.H.C. H.Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

الترجمة العربية حادى عشر - الاستيلاء على بيت المقدس

وصل ريموند أوف سان جيل وجودفرى ومعهم المؤمنون السعداء إلى مشارف بيت المقدس مبتهجين فخورين فى يوم الثلاثاء السابع من يونيو وفرضوا حصاراً رهيباً^(١). وقد احتل روبرت النورمانى المنطقة إلى الشمال المجاورة لكنيسة سيد الشهداء العظيم ستيفن حيث رجم القديس بسعادة من أجل اسم المسيح^(٢). وعسكر بجوار قسمه كونت فلاندرز، وعسكر الدوق جودفرى وتانكرد إلى الغرب^(٣)، بينما اتخذ ريموند أوف سان جيل موقعه على جبل صهيون فيما يلى كنيسة القديسة مريم أم الرب^(٤). فى هذا المكان رحلت مريم عن العالم، وقطع الرب الخبز مع حواريه، ودخل الروح القدس قلوبهم^(٥).

خرج فرسان جيشنا، جيش الضريح المقدس، فى اليوم الثالث من الحصار، وهم ريموند بيله وريموند دى تورين وآخرون وقد أزمعوا النهب والتخريب. والتقى فرسان المسيح بمائتين من العرب، وشنوا الحرب على الوثنيين ويعون الرب والضريح المقدس سحقوهم. وذبحوا الكثيرين منهم واستولوا على ثلاثين فرساً^(٦)، وفى اليوم الثانى من الأسبوع التالى (الاثنين) نفذ الصليبيون هجوماً ممثلاً كادت بيت المقدس تسقط على إثره لو كانت سلاهم التسلق متاحة. على أية حال لقد عثروا على سور أضعف من الباقين ودفعوا بالسلم على السور الأعلى (أو الرئيسى) وتسلقه فرساننا والتحموا بالوثنيين فى معركة بالسيوف والرماح^(٧). ولقى ريجنالد مستشار هيو دى ليزينا كينسس وكثير من المسيحيين الآخرين حتفهم، بيد أن قتلى الأعداء كانوا أكثر^(٨).

ظل المسيحيون بدون خبز لمدة عشرة أيام^(٩)، بينما وصلت أنباء أن سفننا قد رست في ميناء يافا القريب^(١٠). وهكذا عند الصباح تخطى مائة فارس من جيش ريموند أوف سان جبل عن الحصار، منهم ريموند بيله وجلديمار كاربنيل وإكهارد أوف مونتمريال ووليم أوف سابران وآخرون لا أعرف أسماءهم^(١١). وعندما انطلقوا إلى الميناء / قام ثلاثون من فرساننا من بينهم جلديمار وإكهارد بعمل حركة التفاف وهاجموا ستمائة من العرب والأتراك والمسلمين. وقد حمل الفرسان المسيحيون بشجاعة بيد أن تفوق الوثنيين على رجالنا كان كبيراً حتى أنهم طوقوا الصليبيين من جميع الجهات وقتلوا إكهارد أوف مونتمريال ومشاة مساكين.

وبينما كان المسيحيون في الشرك حتى أنهم لم يكونوا يتوقعون سوى الموت، اندفع رسول إلى ريموند بيله وسأله: لماذا تبقى هنا مع فرسانك؟ يا للحسرة إن كل رفاقك قد وقعوا بين براثن العرب والأتراك والمسلمين ولعلمهم قد لقوا حتفهم في هذه اللحظة. أسرع هلم إلى نجدتهم. وأحيت كلمات الرسول أمل الحياة في نفوس الصليبيين، واندفعوا مسرعين إلى مسرح المعركة. شكل الكفار صفين للقتال عندما شاهدوا فرسان بيت المقدس. وتصدى لهم المسيحيون وهم يهتفون باسم المسيح والضريح المقدس وألقوا بأنفسهم في شجاعة فائقة على أعدائهم حتى أن كل فارس ألقى بنفسه على خصم له. فلما أدركوا أنهم لن يكونوا نذاً لشجاعة الصليبيين تملكهم الرعب، فتنادوا بالتراجع ثم لاذوا بالفرار. وأخذت قواتنا تطاردهم حوالى أربعة أميال، حيث قتلوا عدداً هائلاً منهم، وأمسكوا بواحد منهم أبقوا على حياته ليكون مصدراً لإخبارهم. أضف إلى ذلك أنهم استولوا على مائة وثلاثين فرساً^(١٢).

كان نقص المياه أثناء الحصار يشكل كارثة على الصليبيين حتى أنهم قاموا بتخييط جلود الثيران والجاموس والماعز في قنينات جلدية وحملوها فيها

المياه لمسافة ستة أميال. هذه المياه الآسنة والعفنة كانت تشرب من هذه القنيتات حتى أننا كنا يومياً في بؤس وعذاب شديدين بسبب عفن المياه ونقص الخبز. وقد نفعتنا نبع سيلوام الواقع عند سفح جبل صهيون فترة من الوقت. ولكن حتى المياه كانت تباع بين مسيحي الرب والضريح المقدس حتى أن الرجل كان يطفئ غلة ظمأه بينس.

قام المسلمون الذين كمنوا حول كل الينابيع والآبار بذبح أولئك الذين أمكنهم العثور عليهم، واقتادوا الأنعام بعيداً إلى مغارات أو كهوف في الجبال. بينما كان الكفار في أماكن أخرى يذبحون أولئك الذين يدخلون مزارع العنب بحثاً عن طعام^(١٣).

وعندما رأى قادتنا هذه الفظائع تملكهم غضب شديد وعقدوا مجلساً للتشاور أوصى فيه الأساقفة والرهبان بأن يتحرك الصليبيون في موكب حول المدينة. وهكذا خرج الأساقفة والرهبان حفاة الأقدام يرتدون الثياب الدينية ويحملون الصلبان في أيديهم من كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون إلى كنيسة القديس ستيفن سيد الشهداء، وهم يترنمون ويبتهلون للرب أن يعتق مدينتهم المقدسة والضريح المقدس من أيدي الوثنيين ويضعهما في أيدي المسيحيين للقيام بواجب العبودية المقدسة له^(١٤). وسار رجال الدين في أردبتهم مع الفرسان المسلحين وأتباعهم جنباً إلى جنب.

وقد جعل هذا المشهد المسلمين يصطفون بالمثل على أسوار بيت المقدس، يحملون شارات محمد ﷺ على راية وعلم طويل مثلث^(*). وصل المسيحيون إلى كنيسة القديس ستيفن وهناك اتخذوا مواقعهم حسب العادة في المواكب. وفي الوقت ذاته وقف المسلمون على السور وهم يصرخون وينفخون الأبواق ويعرضون كل أنواع السخرية. وإضافة إلى هذا الإيلام صنعوا صليباً من الخشب يشبه ذلك الصليب الذي انساب عليه دم المسيح

الرحيم الذى فدى العالم (*) . وبعد ذلك أظهروا حزنًا شديدًا على المسيحيين عندما وعلى مرأى من الجميع أخذوا يضربون الصليب بالعصى ويحطمونه على الأسوار وهم يصيحون صارخين : أيها الفرنجة صليب عجيب والتي تعنى «أيها الفرنجة هل ذلك صليب عجيب؟» (١٥)

تألم المسيحيون بشدة لهذا المشهد، ولكنهم واصلوا صلواتهم وهم يشقون طريقهم فى الموكب إلى كنيسة جبل الزيتون التى صعد منها المسيح إلى السماء. هنالك راح أنرولف رجل الدين العظيم المبجل يتلو مواعظه يمجّد الرحمة التى سوف يتفضل بها الرب على المسيحيين الذين ساروا فى إثره إلى قبره المقدس الذى صعد منه إلى السماء (١٦). فلما رأى المسلمون وقوف المسيحيين هناك فى مشهد بالغ الروعة بدأوا يهددونهم بالجرى مجيئة وذهابًا فيما بين هيكّل الرب وهيكل سليمان. بيد أن المسيحيين واصلوا موكبهم ووصلوا إلى دير القديسة مريم فى وادى جوسفات، الذى صعدت منه روحها إلى السماء. ومن هناك عادوا إلى جبل الزيتون وأراد أحد رجال الدين أن يدخل الكنيسة حيث وصل الموكب إلى مدخل الدير، فتلقى ضربة فى منتصف جبهته ومات على الفور. إننى أعتقد أن روحه سوف تسكن مع المسيح إلى الأبد فى عالم لا آخر له أمين (١٧). هذا ما يعتقد أول من كتب هذا عندما كان فى الموكب وشاهده بعينه الفانيتين، أقصد بطرس تيدبوده (١٨).

على الفور راح قادتنا يدرسون الوسائل التى يمكنهم بها الاستيلاء على بيت المقدس ويدخلون القبر المقدس بغرض عبادة ربهم ومنقذهم. فشيدوا برجين خشبيين وآلات حرب أخرى كثيرة. وقام كل من جودفرى وريموند بتجهيز برجيهما بوسائل حربية خداعية. وكان ينبغي جلب ألواح خشبية من أجل سحب تلك الألواح من مكان بعيدة (*) . وقام خمسون أو ستون أسيرًا / مسلمًا بحمل الأخشاب على أكتافهم، وهكذا أربك

المسيحيون أعدائهم برجالهم^(١٩). وقد تسبب بناء هذه الآلات فى أن يتخذ المسلمون إجراءات غريبة لتقوية المدينة وأبراجها وراحوا يواصلون العمل ليلاً ونهاراً.

وفى أحد الأيام قام الأعداء بإرسال أحد المسلمين للتجسس على بناء آلات الحرب المسيحية بيد أن السريان واليونانيين حين رأوا هذا المسلم أخبروا الصليبيين بأمره قائلين، ومعناه «وحق المسيح إن هذا المسلم جبان». وسرعان ما أمسكوا به وأخذوا يستجوبونه من خلال مترجم وسألوه عن سبب مجيئه. فرد ذلك الأسير بقوله «لقد أرسلنى المسلمون إلى هنا لكى أتعرف على ابتكاراتكم». وقضى المسيحيون بحكمهم عليه، لقد ساقوا ذلك الجاسوس ويدها وقدماه مقيدتان وألقوا به فى قاع آلة تسمى المنجنيق. لقد ظنوا أن بإمكانهم أن يقذفوا به بكل قوتهم داخل بيت المقدس، فوجدوا أن هذا مستحيل لأنه تم إلقاؤه بقوة شديدة حتى أن قيوده تحطمت قبل أن يصل إلى الأسوار وتمزق إرباً^(٢٠).

بعد التجسس على أكثر جزء من دفاعات بيت المقدس الذى يسهل منه مهاجمتها، قام القادة فى ليلة السبت بتحريك آلاتنا الحربية وأبراجنا الخشبية إلى القطاع الشرقى من الحصار^(٢١). وعند الغروب قاموا بنصبها وظلوا طوال الأيام الثلاثة التالية من الأسبوع يضعون الأبراج فى ترتيبها ويهيئونها للمعركة. وفى اليومين الرابع والخامس من الأسبوع شنوا هجوماً خاطفاً على بيت المقدس من كل الجوانب^(٢٢). وفى اليوم السادس واصلوا الهجوم فجراً مرة ثانية على المدينة/ ولكنهم أصيبوا بالذهو والخوف عندما باءت جهودهم هذه بالفشل، وبرغم هذا، فعند اقتراب الساعة التى قرر فيها سيدنا يسوع^(٢٣) المسيح أن يصلب على صليب من أجلنا، قاتل فرساننا والدوق جودفرى وأخوه كونت يوستاش بشجاعة فوق برج الحصار. ثم قام فارس يسمى ليتولد^(٢٤) بتسليق سور المدينة، وتبعه فرساننا فرسان المسيح،

ومعهم الكونت يوستاش والدوق جودفرى. وانطلق المدافعون مهرولين من السور وانتشروا فى أنحاء بيت المقدس، بينما راح رجالنا يطاردونهم ويقتلونهم ويطيحون برؤوسهم.

وفى نفس الوقت كان ريموند سان جبل فى موقف حرج بسبب خندق عميق بالقرب من السور أثناء قيامه بتحريك برجه نحوه. وبعد التشاور مع رجاله بشأن ما يمكن من وسائل لردم هذا الخندق، أعلن ريموند أن أى شخص يقوم بإلقاء ثلاثة أحجار فى الخندق سوف يكافئ بدينار، وبعد إتمام الهجوم بثلاثة أيام وليلتين، قام المسيحيون بتحريك برج الحصار إلى أحد أبراج المدينة.

تصدى المدافعون لقواتنا بشدة باستخدام النيران والصخور حتى أنهم أطاحوا بالجزء الأعلى من برج ريموند. واشتد غضب الكونت وفرسانه واضطرابهم لما فعله المدافعون من كسر الجزء الأعلى من البرج والذى بدا أنه سيحترق، وفجأة لمح ثلاثة فرسان من جيش الدوق جودفرى يقتربون من جبل الزيتون ويصرخون أن الدوق جودفرى ورجاله داخل بيت المقدس. ولدى انتشار أنباء اختراق الفرخ القدس صرخ ريموند فى رجاله: «لماذا تتخلفون، استمعوا أن جميع الفرخ فى المدينة» ولدى هذا الأمر التقطوا سلاهم ودفعوا بها إلى السور وناضلوا لدخول بيت المقدس (٢٥).

بادر الأمير الذى يتولى القيادة فى برج داود بالتخلي عنه/ لريموند سان جبل وفتح البوابة التى طالما اعتاد الحجاج دفع الضريبة عندها. وبهذه المعاهدة وافق ريموند على توصيل الأمير وأتباعه الذين فى برج داود آمنين دون أى أذى بعيداً حتى عسقلان (٢٦). وقد نفذ ما وعد. وعند دخول بيت المقدس راح الحجاج يطاردون المسلمين ويقتلونهم هم والأعداء الآخرين حتى هيكمل سليمان وهيكمل الرب (*) وتجمع الأعداء هناك وشنوا هجوماً شديداً فى معركة حامية حتى غروب الشمس. بيد أن رجالنا قتلوا الكثيرين

حتى أن الدم سال في كل أرجاء الهيكل^(٢٧). وأخيراً بعد سحق الكفار اختطف رجالنا عدداً كبيراً من الذكور والإناث في الهيكل. وقتلوا بعضهم وأبقوا على البعض الآخر لفكرة طرأت في أذهانهم^(*). سلم كل من تانكرد وجاستون ديبيان راياتهما لعدد ضخم من الأعداء من كلا الجنسين المتجمعين على سقف الهيكل.

سرعان ما انطلق الصليبيون عبر أرجاء المدينة كلها يسلبون الذهب والفضة والخيول والبغال والمنازل المليئة بكل أنواع الثروات، وبعد ذلك وفد الجميع فرحين يكون من السعادة عند القبر المقدس لمنقذنا. وفي الصباح التالي أرسل تانكرد أوامره/ أن يذهب المسيحيون إلى الهيكل ويقتلوا المسلمين^(٢٨). وعند وصولهم بدأ البعض يستخدمون أقواسهم ويقتلون الكثيرين. وقامت مجموعة أخرى من الصليبيين بتسلق سقف الهيكل وانقضوا على المسلمين المتجمعين هناك وقطعوا رقاب الذكور والإناث بشفرات سيوفهم المسلوطة. وجعلوا البعض منهم يقفزون من فوق سقف الهيكل ليلقوا حتفهم بينما لاقى الباقون حتفهم في أعلاه^(*).

عقد الصليبيون اجتماعاً^(٢٩) في يوم آخر أمام الهيكل واتفقوا على أنه ينبغي لكل واحد أن يتلوا صلوات ويقدم صدقات ويصوم حتى يختار الرب واحداً منهم يرضاه ليحكم الآخرين ويحكم بيت المقدس ويسلب الوثنيين. بيد أن الأساقفة والكهنة قضوا بأن الصليبيين عليهم أولاً جر جثث المسلمين وسحبها من المدينة حتى لا تتسبب روائحهم الكريهة في إيذائهم. وبالفعل كانت شوارع بيت المقدس تغص بالجثث.

قام الأحياء من المسلمين بجبر أجساد ذويهم إلى خارج البوابات وكوموها في أكوام مثل المنازل ثم أشعلوا فيها النيران^(٣٠). هل رأى أحد قط أو سمع بمثل هذه المجزرة البشرية للأعداء؟ الرب وحده يعرف العدد ولا أحد غيره يعلم.

احتفل الصليبيون في كافة أنحاء المدينة بعيد أوكتاف (الثمانية) للاستيلاء على بيت المقدس. وفي نفس اليوم عقدوا مجلساً اتفقوا فيه على اختيار الدوق -جودفري أميراً على بيت المقدس ليقوم بواجب قتال الكفار وحماية المسيحيين^(٣١). وبنفس الطريقة اختاروا بطريكاً بالغ الحكمة وذائع الصيت يسمى أرنولف في عيد القديس بطرس في القيود^(٣٢). سقطت بيت المقدس في الخامس عشر من يوليو، سادس أيام الأسبوع، بمساعدة سيدنا يسوع المسيح الذي له المجد والشرف أبداً الأبدين آمين^(٣٣).

التعليق والهوامش

(١) وصل الصليبيون إلى بيت المقدس في ٧ يونيو ١٠٩٩ م. ٣٨٥ H.Chr. وأورد تيدبوده التاريخ الصحيح. أما أعمال الحجاج فتاريخها غير صحيح. ولم تذكر وصول ريموند أوف سان جيل والدوق جودفري. انظر:

Brehier, Gesta, p. 194, fn.1; Hagenmeyer, Gesta p. 448, fn. 1.

وكان افتخار الدولة حاكماً للقدس (الترجمة الإنجليزية).

اتفقت غالبية المصادر الصليبية على أن وصول الصليبيين أمام القدس كان في يوم الثلاثاء السابع من يونيو ١٠٩٩ م. وهو ما أشارت إليه أعمال الحجاج ولكنها أخطأت في ذكر التاريخ حيث أشارت إلى أنه في ٦ يونيو، أما فوشيه أوف شارتر فحدد نفس التاريخ بطريقة غير مباشرة وذلك عندما ذكر هجوم ١٣ يونيو أنه تم في اليوم السابع لوصولهم أى يقصد ٧ يونيو، أما وليم الصوري والذي ينقل عن المصادر المبكرة فحدده أيضاً بيوم السابع من يونيو. وأشار رادلف أوف كين إلى خروج تانكرد قبل وصول الصليبيين إلى القدس متجهاً إلى بيت لحم لإنقاذها من المسلمين وأنه نجح في ذلك وحررها من الأعداء وعاد إلى المعسكر الصليبي قبل الفجر. ويشير فوشيه وألبرت أوف إكس إلى مصاحبة بلدوين أوف بورج ومعه مائة من الفرسان الصليبيين لتانكرد في الاستيلاء على بيت لحم وذلك في ٦ يونيو ١٠٩٩ م ثم انضموا معهم إلى بقية القوات الصليبية في اليوم التالي وليس في فجر اليوم نفسه كما بالغ رادولف عن إشارته عن تانكرد. وللمزيد انظر:

Gesta Francorum, p. 87;

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 348-50; Radulfus, op.cit., p. 689; Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, 13-17, p. 118; Albert d'Aix, op.cit., p. 461; cf. also: Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans from French by J. Shivley, 2 vols. Amsterdam, 1979, p. 14.

(٢) يقع باب القديس ستيفن إلى الشمال وسمى باسم أول الشهداء ستيفن الذى مات رجماً.

انظر: Actus Apostolorum 6 & 7. وكانت الكنيسة تقع خارج أسوار بيت المقدس (الترجمة الإنجليزية).

وعن أبواب المدينة ومواقع القوات انظر الرسم التوضيحي.

(٣) أضاف ريمونداجيل أن روبرت النورمانى عسكر هنا أيضاً. ودافع هؤلاء القادة عن المنطقة من كنيسة القديس ستيفن إلى برج الزاوية الملاصق لبرج داود، والذي يقع إلى الغرب ويحرس باب يافا. انظر Raymond d'Aguilers, p. 116 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أشار ريمونداجيل إلى حدوث اشتباكات أولية بين طليعة الجيش الصليبي وأهالى المدينة قتل على أثرها ثلاثة أو أربعة من الصليبيين. أما رادلف فيشير إلى رواية أخرى يمجّد فيها تانكرد حيث اشتبك مع خمسة من الفرسان المسلمين قتل ثلاثة منهم وفر الاثنان الآخران وعاد وهو محمل بالغنائم. ويفند نيكلسون رواية تانكرد مشيراً إلى أنه وردت نفس القصة فى المصادر القديمة وينسبها لبطله تانكرد والذي فى ضوء شخصيته لا يستطيع نسب هذه التقوى الدينية إليه. كما أنه من خلال علاقاته بالقادة الصليبيين لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل دون إخبار جودفرى وروبرت أوف فلاندرز والذي كان على علاقة وثيقة بهما. ولاشك أن رواية ريموند هنا هى الأرجح وهى عادة ما تحدث عند بدء حصار المدن اشتباكات أولية أو مناوشات وأيد البرت إكس هذا ولكنه لم يعترف بحدوث خسائر للصليبيين.

ريمونداجيل : المصدر السابق، ص ٢٣٥،

Radulfus, op.cit., p. 686; Albert d'Aix, op.cit., pp. 402-63; Cf. Also; Nicholson, R., Tancred, Chicago 1940, pp. 85-86.

(٤) يقع جبل صهيون فى الجانب الغربى لبيت المقدس. ويذكر ريمونداجيل أن الكونت سان جيل حرك معسكره. (الترجمة الإنجليزية).

(*) يعطى ريمونداجيل بعض المعلومات عن طبيعة المنطقة جغرافياً، مثل إشارته إلى وجود وادى عميق عند معسكر ريموند سان جيل، ومعلومات عن جبل صهيون لا يشير إليها تيدبوده، أما رادلف فكان أكثر تحديداً فى روايته مشيراً إلى الأماكن التى حاصرها الصليبيون وتلك التى لم يحاصروها. وانفرد وليم الصورى برواية ذكر فيها أن الصليبيين عقدوا اجتماعاً مع الرجال ذوى الخبرة لمناقشة أى الأماكن التى يسهل منها اقتحام القدس. وتم اتخاذ القرار بأن يكون ذلك من باب القديس ستيفن حتى الباب الواقع عند برج داود. كما أن تغيير ريموند لموقعه تم بناء على نصيحة بعض الرجال الدهاة لسبيين: الحصول على موقع

أفضل، والثاني لحماية كنيسة جبل صهيون. وتجدر الإشارة إلى أن جميع القادة الصليبيين كانوا يبحثون عن أسهل مكان يتم اقتحام المدينة منه ليكون لهم قصب السبق في ذلك لتحقيق أطماعهم الشخصية. ويشير ريمونداجيل إلى حدوث معارضة من جانب بعض الأمراء حتى أن كونت تولوز اضطر لدفع مبالغ لفرسانه ولن يقوم بالحراسة الليلية. أما مصادر الرحالة والجغرافيين العرب فقد أعطت لنا أيضاً وصفاً مسهباً لهذه المدينة المقدسة وأسوارها. فقد زارها ناصر خسرو قبل استيلاء الصليبيين عليها بفترة قصيرة، وكذلك المقدسى الذى كتب عنها فى القرن الرابع الجرى/ العاشر الميلادى. وكلاهما يعلنان لنا رواية هامة عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة والنقائس الموجودة بهما وكذلك عن طبيعتها الجغرافية ومصادر المياه بها. وسوف نورد روايتهما فى موضعها للمقارنة مع المصادر الصليبية.

ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمه وعلق عليه: د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٢٠ وما بعدها؛ المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩، ص ١٦٦ وما بعدها؛ ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

Radulfus, op.cit., pp. 687-88; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 349-50; Cf. also; Prawer, J., The Jerusalem the Crusaders Captured, in Crusade and Settlement, ed. by P.W. Edbury, Cardiff, 1985, p.p. 5-6.

(٥) يوجد لدى تيدبوده تفاصيل أكثر قليلاً عن جبل صهيون مما ورد فى أعمال الحجاج. ويقدم ريمونداجيل معلومات أكثر من ذلك. والمصدر المشترك لهؤلاء المؤرخين الثلاثة هو «الأماكن المقدسة» ويبدو أن أعمال الحجاج تشطب إما من تيدبوده أو ريمونداجيل أو المصدر المشترك. انظر:

MS 5135 A., Folio 37b-39 (Bibliothèque Nationale, Paris)

بحثاً عن نص مختصر، يشار إليه عادة باسم الأماكن المقدسة وقد نسخ بعد خاتمة نصوص أعمال الحجاج وتيدبوده إلا فى حالة مخطوط برلين لأعمال الحجاج الذى فقد أجزاءه الخاتمة ولذلك فإنه لا يعطى دليلاً. انظر:

Brehier, Gesta, p. 194 (الترجمة الإنجليزية).

(٦) وقعت هذه المناوشة فى ٩ يونيو ١٠٩٩ م. H. Chr. 386. ويكتب تيدبوده عن جيش الضريح المقدس ويضيف وبمساعدة الضريح المقدس. (الترجمة الإنجليزية).

(*) انفرد تيدبوده والمؤرخ المجهول بذكر هذه المناوشة - ولم يشر إليها أيًا من ريمونداجيل أو فوشيه أو وليم الصوري. ومن الملاحظ أن مكانها لم يشر إليه كلاهما. وربما كانت غارة للسلب والنهب والبحث عن المؤن والتي أشار إليها تيدبوده في موضع تال أن الصليبيين أخذوا يعانون من نقص فيها. انظر:

Gesta Francorum, pp. 87-88.

(٧) تم هذا الهجوم في ١٣ يونيو ٩٩٩ H Chr. 389 ولدى ريمونداجيل رواية مشابهة. انظر: Raymond d'Aguilers, p. 117 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يحدد أيضًا فوشيه تاريخ هذا الهجوم ولكنه يشير بأنه تم في اليوم السابع لوصولهم. أما وليم الصوري فقد أخطأ في تحديده بأنه جرى في اليوم الخامس - أي ١١ يونيو - بدأ الهجوم بإعلان المنادى وعزف الأبواق كما أشار فوشيه وليم الصوري. بينما يورد كل من رادلف وريمونداجيل الرواية الخاصة بذلك الكاهن الذي ظهر عند جبل الزيتون ونصح الصليبيين بشن الهجوم مدعيًا بأن المدينة سوف تسقط دون آلات حصار وقد استهدف هذا الهجوم جزءًا من سور المدينة والذي كان يسكن تانكرد أمامه، ولم يستهدفها بأكملها كما ادعى فوشيه وليم الصوري، وأكد رادلف ذلك بقوله «إن المعركة قد تجمعت في هذا الركن من الداخل، بينما كل مساحة المدينة الباقية قد دخلت من الخارج كما لو كانت في سبات عميق».

وقدم لنا رادلف أفضل مادة عن إعداد السلم للهجوم. فقد ذكر أن تانكرد علم بالأماكن السرية التي جلبت منها مواد هذا السلم. وتقدم تانكرد لتسلق السلم ولكن ريبالد أوف شارتر استأذنه في ذلك حافظًا عليه ولكي يكون له شرف دخول المدينة. ولكنه ما أن اقترب من السور إلا وعاجلته ضربة سيف أصابته في ذراعه الأيسر فقط وحمل إلى عربة تانكرد لتلقى العلاج، واتفقت أغلب المصادر على صعوبة العثور على مواد لصناعة سلالم الاقتحام، فلم يتم العثور إلا على ما يكفي لسلم واحد فقط مما يؤكد الرواية السابقة بأن الهجوم كان ضد جزء من السور وليس المدينة بأكملها التي يستحيل اقتحامها بسلم واحد فقط.

ويشير ألبرت أوف إكس إلى المقاومة الباسلة التي أبداها سكان القدس لصعد هذا الهجوم حيث قابل الصليبيون سيلًا من القذائف والسهام من داخلها. وبنفرد تيدبوده بإشارته إلى مقتل ريجنالد. ولكنه يبالغ في أن قتلى المسلمين كانوا أكثر

فى الوقت الذى لم يستطع فيه الصليبيون الاقتراب من المدينة وفشل ريبالد أوف شارتر فى ذلك.

وقدم لنا المؤرخون الصليبيون تحليلات مختلفة عن فشل الهجوم. فيشير ريمونداجيل إلى أن السبب يرجع إلى التخاذل والخوف، بينما يذكر رادلف أن ذلك يرجع إلى عدم مخالفة الحظ لهم. أما تيدبوده والمؤرخ المجهول فيشيران إلى أن ذلك يرجع إلى قلة السلاالم وهو التحليل الصائب. وفى الحقيقة فإن هذه المحاولة الأولى لافتحام القدس لم يسفر عنها إلا تخطيط الدفاعات الخارجية لهذه المنطقة أو ما يعرف بالبريكان. للمزيد انظر:

ريمونداجيل: المصدر السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧؛

Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, pp. 119-120; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 350-52; Radulfus, op.cit., pp. 688-89; Albert d'Aix, op.cit., p. 407; Gesta Francorum, p. 88-89.

(٨) لم نترجم ليزيناكينسس لأنه توجد كثير من الأماكن فى جنوب فرنسا مكونة من اسم العلم ليكنيوس ومعدلة ببعض الإضافات فى نهاية الكلمة. وفى هذا السياق انظر: A. Giry, 1894, pp. 385-386, 409.

ويلاحظ جرى تطورات فى أسماء الأماكن المنتهية بـ iacus, iacum. ويلاحظ جرانديجت ٣٩ # تطورات الصفات المشتقة من أسماء والتي تستخدم المقطع الأخير ensis. وعلى هذا فإن مثل هذه الصفات يمكن أن تكون مستخدمة كأسماء. وأسماء الأماكن على وجه الخصوص تستخدم المقطع الأخير ensis وتصرف على نفس هذا المقطع ensis. ولا تذكر أعمال الحجاج ريجنالد، والمخطوطات المختلفة ليتدبوده تذكر أنه كان مستشاراً لهيو. انظر:

(الترجمة الإنجليزية) Hagenmeyer, Gesta, p. 454, fn. 12.

(٩) رواية تيدبوده مختصرة جداً عن أحوال الطعام. أما أعمال الحجاج فتورد رواية مفصلة عن عطش المسيحيين والتي تمثل رواية مختصرة عن رواية ريمونداجيل المفصلة. انظر: Brehier, Gesta, p. 196; Raymond d'Aguilers, pp. 118-119.

(الترجمة الإنجليزية)

(١٠) وصل الأسطول الجنوى إلى يافا (Joppa Yafa) فى ١٧ يوليو ١٠٩٩ م. H.Chr. 392 ويذكر ريموند وصول ست سفن انظر: Raymond d'Aguilers, p. 119. وتتبع

مخطوطات أعمال الحجاج وكذلك مخطوطات تيدبوده وسائل مختلفة في هجاء يافا. انظر: Bongars Gesta, p. 27. وتكتب مخطوطات أعمال الحجاج ie, ie وكلاهما تشير إلى حالة المضاف إليه المؤنث ويشير إلى تركيب ينتهي بالمقطع الأخير ia - انظر:

Schwan - Behrens # 29, 5, Grandgent # 37.

وترد (Ioope (dative), e (gen), en (acc.), e تحدث في اللغة اللاتينية الشعبية. انظر: Actus Apostolorum 9 : 36; 10; 5; 11; 5 وهي تشير إلى موائمة عامة لهذا الاشتقاق من اليونانية. وحالة المضاف إليه عند تيدبوده تنتهي بحرف الـ i قد ترجع خلطاً لاتينياً متأخراً لنهاية حرف الـ i وحرف الـ e في المقاطع الأخيرة سواء في النطق أو الهجاء انظر: Grandgent #243, 244 والاختلاف في التراث النصي بين تيدبوده وأعمال الحجاج هنا ترجح أن تاريخهما قد نشر بشكل منفصل عن الآخر. (الترجمة الإنجليزية).

(١١) لم تذكر أعمال الحجاج جلدديمار كارينيل والذي كان على علاقة طيبة بوجودرى ومنحه حيفا لكي يمنع تانكرد من امتلاكها. انظر: Rey, 1869, p. 264 أما اكهارد أوف موتمريال (كانتون دى ترفو آين) فقد رهن أملاكه إلى كلونى لكي يجهز نفسه للصليبية. انظر: Brehier, Gesta, p. 14, fn., 5 أما وليم أوف سابران فقد كان سيداً لسابران (جارد) وفي الجيش البروفانسى. انظر: HGL 3, pp. 490-491; 5; cols, 687, 708, 732

(الترجمة الإنجليزية)

(*) حددت أعمال الحجاج العدد بسبعمائة. وفي ترجمة الدكتور حسن حبشى أشار إلى أسر فريق حى ليدلوهم على الطريق، بينما ورد في ترجمة روسليندرهيل «ابقوا على حياة واحد منهم» وهو ما يتفق مع رواية تيدبوده. وأشار ريمونداجل إلى خروج سبعين فارساً وخمسين من المشاة، وفي الوقت ذاته اتفق مع تيدبوده في العدد بأنه ستمائة ولكنه أشار إلى مقتل أربعة فرسان وعدد كبير من المشاة، غير أن وصول النجدة الصليبية بدل الموقف. ثم يفسر كثرة غنائم الصليبيين بأنه راجع إلى تخلص الفاطميين منها لتخفيف حملهم والحصول على فرص أسرع للهرب. أما وليم الصورى فيضيف أن إرسال هذه القوات من جيش ريموند جاء بموافقة الجميع حيث أنه كان الوحيد الذى لديه قوات زائدة عن الباقين.

وأضاف اسماً آخر إلى قائمة القتلى هو جلبرت دى تريفس، وقد أشار تيدبوده إلى اتخاذ الفاطميين تشكيلاً قتالياً عبارة عن صفين. راجع عن ذلك: ريمونداجيل: المصدر السابق، ص ٢٣٧/٢١٩.

Gesta Grancorum, pp. 88-89; William of Tyre, op.cit., VIII, p. 355; cf. also: Terence Wise, The Wars of the Crusades (1096-1291), Osprey, 1978, p. 50.

(١٢) وصف ريمونداجيل أيضاً هذه الغارة. وأشار إلى مقتل مائتين من الأعداء. وجرّت أحداثها في ١٨ يونيو ١٠٩٩ م، H Chr, p. 120; Raymond d'Aguilers, 393 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يلاحظ على رواية تيدبوده والمؤرخ المجهول توقفها عند هذا ولا تستكمل ذهابهم إلى يافا. بينما يورد ريمونداجيل تفاصيل الذهاب إلى يافا واستقبال البحارة لهم. ثم مباغطة الأسطول الفاطمي لهذه السفن وانسحاب الصليبيين متجهين إلى القدس. أما وليم الصوري فيضيف أنهم حملوا معهم جميع التجهيزات والأشربة وغيرها من الأدوات التي يمكنهم من الاستفادة منها ورحلوا بإشراف الحامية الصليبية ثم يصف فرحة الصليبيين أمام القدس لوصولهم نظراً لخبرتهم في أعمال البناء والتشييد وقطع الأشجار وبناء آلات الحصار.

ويلاحظ على رواية تيدبوده وغيرها من المؤرخين الصليبيين في نتيجة المعركة السابقة. وتبدو لنا رواية ريمونداجيل أدق فيما يتعلق بخروج القوات الصليبية ثم إرسال إمدادات لها وهي التي اشتبكت مع العرب وليس كما وصف تيدبوده من الوصول إلى يافا ثم القيام بحركة التفاف. انظر:

Gesta Francorum, pp. 87-88; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 356-57.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ وكذلك: مصطفى الكنانى، المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(١٣) تورد الروايات الثلاثة في أعمال الحجاج وريموند وتيدبوده عن عطش المسيحيين ومعاناتهم عند عين سلوام. وتنطقها الثلاثة بشكل متقارب. ويكتب ريموند أن الصليبيين حملوا المياه لمسافة فرسخين أو ثلاثة. أما أعمال الحجاج وتيدبوده فيشيران إلى ستة أميال. ويورد ريموند أن إمدادات المياه لشخص واحد كانت تكلف خمسة أو ستة بنسات (نومى).

ويذكر تيد بوده أنها بنس واحد فقط. انظر:

Raymond d'Aguilers, pp. 118-119; Liber, pp. 139, fn. 4, 140; Brehier, Gesta, p. 198.

(الترجمة الإنجليزية).

(*) أشار تيدبوره قبل ذلك إلى متاعب الصليبيين في الحصول على الخبز، أما أعمال الحجاج فقد حددت هذه المتاعب في أنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وليس القمح. وقد أكد رادلف هذه المتاعب أيضاً بالنسبة للحصول على القمح. أما فوشيه فقد بالغ عندما أشار إلى أن الصليبيين لم يعانون من نقص الخبز واللحم، اللهم إلا إذا كان يقصد ذلك مقارنة بمتاعب الحصول على المياه، وقد أجمع المؤرخون الصليبيون بالنسبة لهذه المتاعب ومنهم من رسم لنا صورة حية عن ذلك مثل ريمونداجيل، فأشار إلى الصراع بين الأقوياء والضعفاء وما يحدث من قتال بينهما في سبيل الحصول على رشفة ماء تروى غلتهم في حرارة وقيظ يوليو. بينما في صورة أخرى يقدم لنا هؤلاء الذين يزحفون على الأرض بأفواه فاغرة وقد أخرسهم جفاف ألستهم وامتدت أديهم تطلب المياه ممن هم أسعد منهم حظاً. وأشارت هذه المصادر أيضاً إلى بيع الصليبيين للمياه لبعضهم البعض. كما أشار إلى رواية تيدبوره الخاصة بالكمان التي نصب عند أماكن العيون واليانبيع والمزارع ومقتل الكثير منهم عندها. أما وليم الصوري فيشير إلى كيف أخفى المسلمون بشكل ماهر هذه الأماكن من مصادر المياه، ولكنه يشير إلى أن دور نصارى تقوع وبيت لحم في دلهم للصليبيين على هذه الأماكن، ثم ينقل رواية ريمونداجيل عن الصراع حول المياه، ولكنه يعقد مقارنة بين الحال عند أنطاكية وعند بيت المقدس ويخلص إلى صعوبة الموقف عند القدس. ويشير رادلف أيضاً إلى هذه المتاعب بالنسبة للمياه ثم يعبر عن حالة اليأس التي وصل إليها الصليبيون بقوله «ضاعت حروب رومانيا هباء، ومعاناة الجوع عند أنطاكية راحت أدراج الرياح».

ولاشك أن هذه الحالة السابقة بالنسبة للمياه تصدق فيها هذه المصادر خاصة وإذا علمنا من مصادرنا العربية سواء الرحالة أو الجغرافيين الذين زاروا القدس أو كتبوا عنها أنها تعتمد بشكل أساسي على مياه الأمطار. فقد أشار ناصر خسرو والمقدسى والقزويني والقلقشندي إلى اعتماد المدينة على هذه الأمطار ووصفوا لنا كيف يجمعه الأهالي في خزانات فوق منازلهم وكذلك القنوات التي تحمل المياه

إلى المسجد الأقصى حيث تملأ صهاريجه. ومنهم من أشاد بطعم هذه المياه ومنهم من أشار إلى رداءتها مثل «القزويني». أما عين سلوان فقد تحدثت أيضاً عنها هذه المصادر وأشارت إلى غزارة مائها مثل ناصر خسرو والمقدسي والقزويني. ولم يشر أيًا منهم إلى رواية بعض المصادر الصليبية من أنها تزداد في أيام معينة. انظر عن ذلك ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٢٠-٢٥؛ المقدسي، المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٨؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٦٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ ج، القاهرة، ١٩١٣-١٩٢٠، ج ٤، ص ١٠١؛ ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

Gesta Francorum, pp.88-89, Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, p. 120;

William of Tyre, op.cit., VII, pp. 352-53; Radulfus, op.cit., pp.690-91.

(١٤) لفظ خدمته المقدسة (Servicium Faciendum) كانت مصطلحاً اقطاعياً. وكانت

خدمة أو واجباً يؤديه المزارع الأجير إلى سيده الاقطاعي. انظر: Martin, 1892, p.

243 (الترجمة الإنجليزية).

(*) لم يشر تيدبوده إلى لون العلم الفاطمي وهو في الغالب كان أخضر اللون. وقد اتخذ الفاطميون أيضاً ألواناً لأعلامهم والتي كانت تحمل في المناسبات المختلفة وكذلك مع سفرائهم. أما الشكل المثلث للعلم فيؤيده أيضاً ما ورد في لوحة في مكتبة البودليان تمثل معركة بين الفرسان الصليبيين والمسلمين وقد حمل أحد الفرسان المسلمين راية مثلثة الشكل. انظر:

Ahmed Zaky (Pasha), The National of Moslem Egypt, Proceedings, Vol. II,

1952, pp. 171-184; Terence Wise, op.cit., p. 53.

«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه وما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً (١٥٨) النساء

(١٥) يورد تيدبوده رواية أكثر تفصيلاً عن الموكب عن تلك التي لدى أعمال الحجاج

وريمونداجيل. أما تواريخ أعمال الحجاج لهذا الموكب فهي غير صحيحة. انظر:

Raymond d'Aguilers, pp. 122-123; Brehier, Gesta, p. 202, fn., 1.

وعقد المجلس في ٦ يوليو ١٠٩٩ (H.Chr. 397) وذلك بعد أن ألقى بطرس

دسيدرئوس وصايا السماوية. وأقيم الموكب في ٨ يوليو ١٠٩٩ H.Chr. 393

ورواية تيدبوده هي أفضل الروايات فهو يظهر معرفته بالأماكن المقدسة ويقتضى أثر ذلك الطريق الذى سلكه الموكب بصورة أفضل من أعمال الحجاج وريمونداجيل. ويلاحظ تيدبوده أن المسلمين صاحوا Frango agipo Salip بعد أن حطموا الصليب. أما ناشر الـ RHC, 3, p. 105 فقد ترجمها فى حاشية بأنها est) crust(Franci miranda (أيها الفرنجة ينبغى أن يكون الصليب مثار دهشتكم» على الرغم من أنه فى نصه الأصيل ذكرها Franci est bona crux «أيها الفرنجة إن الصليب شئ طيب». وفى مخطوطة تيدبوده (الواردة بـ) A توجد علامة استفهام وفى سياقها استفهام له معنى. وقد ترجمناه «هل هذا صليب طيب». انظر (عجيب) P. 591؛ (صليب) Wehr, 1966, p. 521, p. 591.

وقد تبع وليم الصورى رواية تيدبوده بشكل دقيق. انظر:

William of Tyre, tr. Babcock and Krey, 1943, pp. 359-360.

(*) أشار تيدبوده إلى مشاركته فى هذا الموكب مما يجعله أكثر المصادر أهمية فى هذه المنطقة والتى تثبت من ناحية أخرى أصالته كمصدر. وقد جعل ذلك المؤرخين يعتمدون عليه فنقل رالى سميث فى كتابه ملحقاً خاصاً عن هذا الموكب نقلاً عن تيدبوده. أما أعمال الحجاج فقد أوردت تواريخاً غير صحيحة مثل القيام بالموكب يومى الأربعاء والخميس - اللذان يوافقان ٦، ٧ يوليو، دون أن تورد تفاصيله، كما أشار إلى أن الاجتماع الذى عقد كان بغرض تدارس الوسائل التى يمكن بها مهاجمة المدينة، ثم عاد وأشار إلى ضرورة القيام بهذا الموكب، أما ريمونداجيل فيشير إلى أن سبب الاجتماع يرجع إلى مناقشة الخلافات بين القادة والثانى لانتخاب أحد الأفراد ليكون حكاماً على القدس بعد سقوطها. ولكن تم إجراء هذه المسألة الثانية. ثم ذكر أن المندوب البابوى ادهيمار هو الذى أشار إلى القيام بهذا الموكب، ويتفق مع تيدبوده فى تحديد لتاريخه، ولكنه لم يشر إلى قيام أرنولف بوعظ الصليبيين. أما رادلف فيحدد سبب الاجتماع فى إعداد آلات الحصار والبحث عن الأخشاب. ولاشك أن هذه الاجتماعات قد تمت خلال الأسابيع الأربعة التى تحددت لالتهاء من بناء آلات الحصار.

(*) ولنا وقفة مع رواية المصادر الصليبية بشأن رد فعل سكان القدس تجاه هذا الموكب والعبارة التى سمعها تيدبوده وترجمتها المراجع الأجنبية المختلفة على أنها «أيها الفرنجة إنه صليب عجيب» أو «أيها الفرنجة إن الصليب شئ طيب». وفى

اعتقادی أن المعنى الأصح للعبارة التي أوردها تيدبوده هي «أيها الفرنجة أيجيب الصليب؟» فسياق المعنى الذي أورده تيدبوده يدل على ذلك. فقد صنع المسلمون هذا الصليب وأحضروه أمام الصليبيين عند أسوار المدينة ثم قاموا بتكسيهه وهنا نأتى إلى المعنى المقصود «هل يجيب الصليب بعد أن تحطم؟» وقد أوردت مخطوطة A لتيدبوده علامة الاستفهام بعد العبارة السابقة مما يدل على صحة ما توصلنا إليه. ومن ناحية أخرى فإن نطق الكلمتين مقارب جداً «عجيب» و «ايجيب»، وكذلك فإن عبارة تيدبوده «عجيب» لن يوضع بعدها علامة استفهام إذا كانت تعنى أنه صليب عجيب.

أما بشأن ما أورده وليم الصورى من أن الأهالى قد انهالوا بالشتائم على يسوع المسيح والبصق على الصليب فهى لم ترد لدى تيدبوده من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يريد إثارة حماسة الغربيين للاشتراك فى الحملات الصليبية - فى الوقت الذى كان يكتب فيه وليم كتابه - وفى نفس الصورة من إثارة حماسهم فى الحملة الثالثة من تصوير الصليبيين لفارس عربى يظاً ما يسمى فى معتقدهم بالضريح المقدس وأخرى للمسيح عليه السلام وقد انهالت الدماء من على وجهه نتيجة ضرب شخص عربى له. وهذه المصادر جميعاً لا تعلم أن المسلم يكن نفس القدر من الاحترام لجميع الرسل والأنبياء ولا يفرق بين أحد منهم كما أمره الله تعالى بذلك.

Gesta Francorum, pp. 89-91; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 359-60; Radulfus, op.cit., pp. 690-91; cf. also; Riley-Smith, The Crusades, pp. 164-65.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ٩ ج، بيروت، ١٩٧٨، ج٩، ص ٢٠١، وكذلك محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٤٧.

(١٦) من المحتمل أن يكون رجل الدين هو أرنولف أوف شاكو، قس روبرت أوف نورماندى، ويسمى أيضاً مالكورن. وأصبح بطريركاً فى ١٠٩٩. وكرهه ريمونداجيل وربما لم يذكره كثيراً إلا عند الضرورة. ومن الغريب أن فارسا نورماندياً يهمل أن يذكره فى رواية أعمال الحجاج. وأغفلت رواية ريموند العنف والهجمات على المشاة. ولا تعطى روايته انطباعاً كما لاحظنا فى كتابه. انظر: Raymond d'Aguilers, p. 123fn. 13 (الترجمة الإنجليزية).

(١٧) هذا اقتباس من Apocalypsis B. Joannis 11:15, 16 (الترجمة الإنجليزية).

(١٨) هذه المعلومات تشير إلى وجود تيدبوده وتنهض دليلا عليه وهناك أشكالا أخرى

لا سيما مثل: Tudebodis Subracensis, Sivracensis (الترجمة الإنجليزية)

(*) يزودنا ريمونداجيل برواية أكثر تفصيلا عن البحث عن الأخشاب، وكيف قام الصليبيون بإعداد فريق لذلك عهدوا إلى جاستون بيارن بالإشراف عليه لإنجاز هذا العمل بسرعة، كما أشار إلى وليم ريكو للقيام بنفس المهمة، أما رادلف فقد أمدنا بتفاصيل أخرى أشار فيها إلى ذلك الاجتماع الذي تم اتخاذ قرار فيه يقضى بالبحث عن أحد عشر لوحًا خشبيًا مما يعنى عدم إعفاء أيًا من الأمراء. ثم يشير إلى الصعوبات التي واجهتهم حيث لم تتوفر هذه الأخشاب في منطقة القدس. ولكنه فجأة يمجّد تانكرد مشيرًا إلى أنه عثر على أربعة ألواح مخبأة منذ الحملة الفاطمية السابقة التي استردت القدس قبيل وصول الصليبيين. ويذكر أن روبرت كونت فلاندرز كان مسؤولًا عن الصنّاع وأن الصليبيين وصلوا إلى غابات نابلس وبسببية لجلب هذه الأخشاب وهو ما يتفق فيه مع تيدبوده الذي أشار إلى الذهاب إلى أماكن بعيدة لجلبها دون أن يحدد هذه الأماكن. أما وليم الصوري فقد أشار إلى أن النصارى دلوا الصليبيين على أماكن وجود هذه الأخشاب التي حددها أنها تبعد حوالى ستة أو سبعة أميال عن القدس ولكنه لا يقصد نابلس أو بسببية اللتان تبعدان عن القدس بمسافة أبعد من ذلك بكثير. ويكرر أيضًا رواية ريمونداجيل بشأن انضمام الجنوية بقيادة وليم امبرياكو إلى ريموند وما أسهموا به من دور في بناء آلات الحصار. انظر:

Radulfus, op.cit., pp. 690-91; William of Tyre, op.cit., p. VIII, pp. 360-61.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(١٩) لاحظ تيدبوده عدد الأسرى المسلمين كما ذكر ريمونداجيل. أما أعمال

الحجاج فهي مختصرة للغاية في هذا الجانب. وأورد ريموند الرواية تفصيليًا. انظر:

Raymond d'Aguilers, p. 124; Brehier, Gesta, p. 200 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أضاف ريمونداجيل أن وليم دى سابران أسقف البارة كلف بالإشراف على هؤلاء

الأسرى. ولقد أجبروا على العمل الشاق حيث ذكر أنهم كانوا يحملون دعامة

خشبية لا يقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران. وربما كان هؤلاء الأسرى

من وقع في أسر الصليبيين أثناء تقدمهم تجاه القدس أو ممن أسروا أثناء المناوشات

السابقة. وتدل هذه الإشارات فى المصادر الصليبية عن أسلوب معاملة الصليبيين للأسرى المسلمين. انظر:

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 361-62.

وريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٢٠) Me te Christo Caco Sarrazin توصف بأنها لغة يونانية ركيكة انظر. RHC. Occ. 3: pp. 107. ومن الممكن أن يكون المصدر الأصيل لهذه العبارة مصدرًا شفهيًا وعليه فإن التفسير المعتمد على الإملاء الصحيح تفسير غير صحيح. وتبدو هو المؤرخ الوحيد الذى يروى قصة الجاسوس الذى قبض عليه. (الترجمة الإنجليزية). (*) إذا أردنا أن نترجمها «وحق المسيح إنه لمسلم جبان» تكون Ma te christo cacos sarrazin وذلك حتى تكون الصفة فى حالة المبتدأ nom لكى تصف المسلم. أما العبارة الأصلية إذا ما أخذناها كما هى فإن الصفة تعبر عن المسيح ولا يمكن أن يقصد قائلها أن يصفه بأنه شرير، وأتوجه بالشكر للزميل العزيز الدكتور محمد السيد عبد الغنى الأستاذ المساعد بقسم الحضارة اليونانية على هذه الملاحظة القيمة.

كذلك لم يحدد تيدبوره متى وقعت هذه الحادثة على وجه التحديد، والتى غالبًا ستكون فى خلال الأسابيع الأربعة التى قام خلالها الصليبيون بإعداد آلات حصارهم. كما أنها تدل من ناحية أخرى على دور النصارى فى هذه المنطقة وما أسهموا به من دور فى الحملة الصليبية. وتجدر الإشارة إلى أن لدى ألبرت إكس رواية مشابهة، فقد أشار إلى أن الصليبيين ألقوا القبض على أحد الأمراء المسلمين أثناء الحصار وقاموا باستجوابه، ولما فشلوا فى إقناعه بالمسيحية قاموا بقطع رأسه أمام برج داود ولم تشر المصادر الأخرى لهذه الرواية والتى ربما تكون نفسها رواية تيدبوره مع إقحام محاولات التبشير بالنصرانية أثناء الحملة الأولى وهى الروايات التى كان ألبرت يهتم بسماعها من العائدين. انظر:

Albert d'Aix, op.cit., p. 469; cf, also: Martin, J.P., Les premiers princes croises et les Syriens Jacopites de Jerusalem, Journal Asiatique, 1888, 8-12, p. 477 ff.

وكذلك : سلام شافعى محمود: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبي، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٨٥ وما بعدها؛ حسن عبد الوهاب،

المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، العدد ٣٨، ١٩٩٠، ص ١٣٠.

(٢١) تحرك الصليبيون وأقاموا آلاتهم الحربية في الوادى الممتد من باب القديس ستيفن إلى وادى جوزافات. وحدث ذلك في ليلة ٩ يوليو ١٠٩٩ H Chr. 399 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى اجراءات غريبة اتخذها أهالى المدينة دون أن يحددها. ولكن ولیم الصورى يعطى لنا رواية تفصيلية فى هذا الشأن حيث أشار إلى أن المسلمين كانوا يصنعون آلات مشابهة لتلك التى يصنعها الصليبيون ويعترف بأنهم كان لديهم عمال مهرة وآلات وأخشاب وغيرها داخل المدينة لصنع هذه الآلات. ولاشك أنه هنا تنقصه الدقة فمن المعروف تفوق المسلمين على الغرب فى هذا الوقت ولن يقلدوا آلاتهم بل كانت لديهم وسائلهم الخاصة التى كتبت عنها مؤلفات كاملة. عن ذلك انظر:

William of Tyre, op.cit., VIII, p. 362; cf. also: Fedden, R. and Thomson, J., Crusader Castles, London, 1957, pp. 60-63.

«تبصرة الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء» نشر كلود كاهن فى مجلة الدراسات الشرقية B.E.O سنة ١٩٤٧-١٩٤٨، ص ١٠٣-١٦٣.

(٢٢) استطردت أعمال الحجاج فى هذه النقطة بذكر العطش وحقيقة أن دينار واحد لم يكن كافياً لاطفاء غلة عطش الرجل وأورد تيدبوده هذه المعلومة فى موضعها المناسب كما ذكرها ريموند. واستخدم تيدبوده النوى بدلا من الدينار. ولاتينى الروايات الثلاثة متقاربة. وحدث الهجوم العام فى يومى ١٣ و ١٤ يوليو ١٠٩٩. «الترجمة الإنجليزية».

(٢٣) دخل الصليبيون القدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩، H Chr. 403 أما ريمونداجيل فذكر أن ذلك كان حوالى منتصف اليوم، واستخدمت أعمال الحجاج وتيدبوده ساعة موت (شبيه) المسيح، والذي من المفترض أنه كان فى الساعة الثالثة هذه المدة ومن الملاحظ أن الطقوس الدينية لصلاة العصر يجب أن تكون سابقة عن الساعة الثالثة بعد الظهر، وهناك احتمال أنها تمت مرادفة للظهر أو منتصف

النهار. ومن المشوق أن نلاحظ أن تيدبوده وأعمال الحجاج يستخدمان الساعة الكنسية بينما يستخدم ريموند منتصف النهار. ومن الغريب أن الفارس النورمانى يؤرخ للحادث بنفس الوسيلة (الترجمة الإنجليزية).

(*) لم يحدد ابن القلانسى وقتاً لدخول الصليبيين إلى القدس، وإنما ذكر أن محاولات الاقتحام استمرت حتى آخر نهار ذلك اليوم - يقصد الخميس - وانصرفوا عنه، وواعدهم الزحف إليه من الغد - الجمعة - ، ونزل الناس عن السور وقت المغرب، فعاود الإفرنج الزحف إليه، وطلعوا البرج، وركبوا سور البلد فانهزم الناس عنه، وهجموا البلد فملكوه، ومن هنا لم يحدد زمن الاستيلاء، أما ابن الأثير فكان أكثر تحديداً عندما ذكر أن ذلك كان وقت الضحى أى قبل الظهر «وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة» انظر : ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق : د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ١٨٩.

ومن الملاحظ أن تيدبوده وأعمال الحجاج تتفقان فى روايتهما عن سبب التحرك للهجوم على المدينة - أما ريمونداجيل فيشير إلى أن تحريك هذه الآلات يرجع إلى استواء السطح عند هذه المنطقة التى هاجموا منها القدس وهى ما بين كنيسة القديس ستيفن ووادى جوزافات. وكان وليم الصورى أكثر تحديداً عندما أشار إلى أنها المنطقة المواجهة للبرج الواقع عند الزاوية فى الشمال المطللة على وادى جوزافات.

ويتفق تيدبوده وأعمال الحجاج أن ذلك كان فى الفترة من الأحد إلى الثلاثاء (١٠-١٢ يوليو) بينما لم تشر بقية المصادر الأخرى إلى ذلك واقتصر ريمونداجيل على أن نقل المعسكر تم ليلاً لمسافة حوالى ميل. أما رادلف فلم يقدم رواية تفصيلية عن ذلك سوى إشارته إلى أن القادة الصليبيين كانوا على علم بهذه النقاط الضعيفة فى التحصينات حتى أنهم أجلوا ذلك حتى اللحظة الأخيرة بعد أن يتمكنوا من إقامة البرج الخشبى للقفز على السور.

ويلاحظ أيضاً على رواية تيدبوده فى هذا المقام أنها تخلو من التفاصيل عن القتال يومى ١٤ و ١٥ يوليو ١٠٩٩، بينما أفاضت المصادر الأخرى فى ذلك وخاصة وليم الصورى وألبرت اكس، وكذلك يسجل رادف جهود تانكرد وبقية قواته ويشير أيضاً إلى المقاومة الباسلة التى أبداها أهالى المدينة حتى أن الصليبيين أوشكوا على اليأس.

أما مصادرنا العربية فلم تمدنا إلا بإشارات بسيطة عن استيلاء الصليبيين على المدينة. فلم يشر ابن القلانسي إلا إلى برج واحد، بينما ذكر ابن الأثير أنهما برجين ولكنه لم يتحدث إلا عن البرج الخاص بريموند، أما سبب تحرك الصليبيين للهجوم على المدينة فيشير ابن القلانسي إلى أن ذلك بسبب وصول أنباء للصليبيين بخروج قوات فاطمية لإنقاذ القدس «فشدوا في قتاله» ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٨٩.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 363-64; Radulfus, op.cit., pp. 690-91; Albert d'Aix, op.cit., pp. 375-76; Gesta Francorum, pp. 90-91.

(٢٤) من المفترض أن ليتولد من تورناى، ويكتب ألبرت عن أخويه ليثولف وإنجليرت. انظر:

Albert, p. 472 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أشارت المصادر الصليبية إلى أسماء مختلفة كان لها الشرف فى اقتحام القدس. فقد أشار رادلف إلى أن ثلاثة كان لهم سبق هم ليتولد وإنجليرت من تورناى من جهة الغرب، أما برنارد دى سانت فالى فقد كان من جهة الشمال. وتنسب إحدى حوليات جنوه ذلك أيضاً إلى وليم امبرياكو. وكان هذا الموضوع مثار جدل كبير بين المؤرخين وانتهى هاجمنير إلى أن الخلاف حول هؤلاء الأشخاص إنما كان يرجع إلى أنهم أوائل جيوشهم فى اقتحام المدينة ولا يوجد خلاف حول ذلك. Radulfus, op.cit., p. 692.

وكذلك : مصطفى الكنانى، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢٥) يوجد لدى تيدبوده أفضل تقرير عن نشاط ريمونداجيل. أما أعمال الحجاج وريمونداجيل فقد أغفلا رواية الفرسان الثلاثة من جيش جودفرى الذين نشروا أخبار دخول جودفرى لبيت المقدس. وتوجد لدى أعمال الحجاج وتيدبوده رواية ريموند بشأن الدفع للملح الخندق. ويحذف ريموند هذا الجزء من المعلومات، ومعلوماته ضئيلة عن دور الكونت فى سقوط القدس. وتروى أعمال الحجاج أن الكونت سمع أن الفرنجة فى المدينة وقال حينئذ «اسمعوا، جميع الفرنجة فى المدينة» ونلاحظ أن الـ Franci والـ Francigene تستخدمان مكان بعضهما فى

أعمال الحجاج، وفي هذه الرواية يستخدم تيدبوده Francigene مختصرة. ونعتقد أن هذا مثال طيب في عدم فائدة تأكيد استخدام أعمال الحجاج لـ Francigene في بعض الأقوال كدليل على النسب النورمانى للمؤلف. انظر:

Brehier, Raymond, d'Aguliers, p. 127; Gesta, p. 204

والـ (Gena) هي مقطع شعبى. ووردت الـ Aliengiena لدى Prophetia Ezechie 9: 44 انظر أيضاً:

Verbigena, omnigena, terragena, Trotaire - Prosier ed. Daux, 1901, pp. 74, 103, 108.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) تزداد أهمية رواية تيدبوده في هذا الجانب نظراً لاتفاقها مع أعمال الحجاج من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن ريمونداجيل يتوقف عن الإشارة إلى دور ريموند أثناء حصار القدس، وقد واجهت ريموند كونت تولوز مقاومة شديدة عند محاولة اقتحام هذا الجانب من المدينة أكده أيضاً ريمونداجيل في إشارته العابرة، وكذلك المصادر العربية، أما وليم الصورى والذى يورد لنا رواية مفصلة أشار فيها إلى أن القتال كان عنيفاً حتى أنه وصل إلى حد التلاحم بالسيوف عند السور. وقد اختلفت المصادر حول كيفية وصول نبأ اقتحام القدس من جهة الشمال إلى ريموند، أشار تيدبوده إلى هؤلاء الفرسان الثلاثة من جيش جودفرى الذين قدموا من جهة جبل الزيتون وأخبروا الكونت بالنبأ. وذكرت أعمال الحجاج وصول الخبر دون أن تحدد لنا كيف تم ذلك. أما فوشيه أوف شارتر فيذكر أن الكونت علم بذلك عندما رأى الشرقيين يقفزون من فوق السور، ويشير وليم الصورى أن الدوق علم بذلك عن طريق صيحات المقاتلين وصيحات الرعب من الأهالى ففر المدافعون عن السور ولجأوا إلى قلعة داود فسارع الكونت واقتحم المدينة. فى الوقت نفسه أشار رادلف إلى انسحاب الأهالى إلى مسجد القلعة. وفى الحقيقة فإن الروايات السابقة بحاجة للوقوف عندها. فرواية تيدبوده حول قدوم الفرسان من جهة جبل الزيتون يساورها الشك خاصة وأن الصليبيين لم يحاصروا المدينة من هذه الجهة، كما أن تضاريسها صعبة المسالك - انظر: ناصر خسرو - ، كما أن فوشيه لم يوضح سبب انسحاب الأهالى، أما رواية وليم الصورى فهى أيضاً صعبة التصديق لأن اقتحام الصليبيين للقدس تم من جهة الشما وانسحب الأهالى إلى

المسجد الأقصى وهي مسافة بعيدة عن المكان الذي يحاصر فيه ريموند المدينة - ويواجه مقاومة شديدة. ويفسر لنا سبب الاقتحام وكيف علم الدوق بذلك المؤرخ ابن الأثير الذي أشار إلى أن أحد المسلمين قدم إلى الجهة التي كانت تقاتل ريموند وأخبرهم بنبا اقتحام الصليبيين للمدينة من جهة الشمال فانسحبوا إلى برج داود ولجأوا إلى القلعة مما أعطى ريموند الفرصة لاقتحامها دون صعوبة.

William of Tyre, op.cit. VIII, pp. 367-78; Radulfus, op.cit., p. 694; Gesta Francorum, pp. 90-91.

ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٨٩.

(٢٦) يقع برج داود أيضاً إلى الغرب. ويتهم ألبرت أوف آخن ريموند أوف سان جيل بقبول رشوة من الأمير افتخار الدولة. انظر:

Albert, pp. 483-489, Hill, Raymond IV, pp. 131-132.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) اتفق تيدبوده وأعمال الحجاج بشأن شروط استسلام افتخار الدولة، وأضاف وليم الصوري أخذه لجميع المؤن والأمتعة الموجودة معه داخل البرج. ولكن هذا أمر مبالغ فيه خاصة وأن القائد الفاطمي لم يكن بإمكانه فرض هذا الشرط بعد سقوط المدينة، وهو ما أكدته فوشيه أوف شارتر الذي أشار إلى السماح للحامية بالخروج إذا ما تركوا أموالهم. وذكر أنه كان هناك خمسمائة من الأجناس السود مع هذه الحامية. أما رادلف فقد أشار أيضاً إلى إعطاء طريق آمن إلى عسقلان. أما ابن الأثير فيشير إلى أن هذا الاتفاق تم التوصل إليه بعد ثلاثة أيام - أي ١٨ يوليو ١٠٩٩ م. ولكنه خلط بين قلعة داود ومحراب داود. فقد أشار إلى لجوء الحامية إلى محراب داود والذي ذكر ناصر خسرو في وصفه له بأنه «يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل ويسمى محراب داود» وهو في المسجد الأقصى. فليس من المعقول أن يلجأ هذا العدد إلى هذا المكان الذي يصفه لنا ناصر خسرو. ويزيل هذا اللبس إشارة وردت لدى رادلف عن أن السكان لجأوا إلى المسجد وهو الأرجح حيث كان يوجد مسجد في قلعة داود.

Radulfus, op.cit., p. 695; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 367-68; Fulcher of Chartres, pp. 121-122;

ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٨٩.

يقصد بهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ويشير رادلف إلى لجوء الأهالي إليهما
يقصد التحصن لبعدهما ووجود بوابات بهما ويؤكد ناصر خسرو وأيضاً المقدسى
فى وصفه لأحد الأبواب «لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوى الذراع». انظر : المقدسى، المصدر السابق، ص ١٦٨.

Radulfus, op.cit., p. 695.

(٢٧) حصر تيدبوده نفسه فى الكتابة عن أن الدم سال فى المعبد، فى المقابل فضلت
أعمال الحجاج وريموند أن يقيساه. وكتب أعمال الحجاج فى موضع أن
الصليبيين ساروا فى الدماء إلى رسغ أقدامهم Cavillas وفى موضع آخر أوردت أن
الدم سال فى المعبد. ويبدو أن ناسخ أعمال الحجاج يتبع تيدبوده فى موضع
وريمونداجيل بتحفظ فى موضع آخر أو المصدر العام، وكتب ريمونداجيل أنهم
ساروا فى الدماء إلى ركبهم وألجمة خيولهم. ومصدر هذه القصص هو
Apocalypiss B. Joannis: 20:14 انظر أيضاً :

New Testament Apocrypha 2ed Hennecke, 1964, p. 697.

«والدم من السيوف سوف يعمل حتى بطون الخيل» والرواية أيضاً ترد فى خطاب
داجوبرت رئيس أساقفة بيزا Epistula Dagoberti Pisani Archiepiscopi
Hagenmeyer, 1901, p. 171, Usque ad genua equorum ولا نستطيع أن نفهم
لماذا كرر كتاب الكتب الحديثة هذه القصة دون أن يشيروا إلى مصدرها، إلا إذا
كانوا يجهلونها، وبالتأكيد فإن هناك دليل قوى على أن الصليبيين لم يقتلوا كل
الأهالى. انظر:

Brehier, Gesta, p. 202; Raymon d'Aguilers, pp. 127-128.

(الترجمة الإنجليزية)

(٢٨) لم تذكر أعمال الحجاج أن تانكرد أصدر أوامره بقتل جميع المسلمين داخل
المسجد. ويذكر المؤلف أنه كان غاضباً عندما تلقى نبأ المذبحة. انظر:

Brehier, Gesta, p. 206; Hagenmeyer, Gesta, p. 474 fn. 43.

وإذا ما أعيد نشر أعمال الحجاج أو أنها نسخة من تيدبوده، فإنه يمكن فهم
التصور الأفضل لتانكرد. ولم يعالج بربه هذه المشكلة.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) لم يوضح تيدبوده الدافع وراء الذين تم اختطافهم، فهل كان ذلك بغرض

الحصول على فدية لإطلاق سراحهم أو استخدامهم فى أعمال تطهير المدينة. وبصفة عامة فإن السياسة الصليبية تجاه سكان المدن التى تسقط ظلت بصفة عامة تميل إلى الانتقام وأعمال المذابح وغيرها. راجع ما حدث فى قيسارية ٤٩٤هـ/ ١١٠١م وطورطوسا ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م وعكا ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م وطرابلس ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م. ولكن مع عام ١١١٠م/ ٥٠٤هـ بدا تحول فى هذه المعاملة وخاصة تجاه النصارى الشرقيين الذين استخدمهم الصليبيون فى الزراعة. عن ذلك انظر:

Sivan, E., *Refugies Syro-Palestiniens au temps des croisades*, *Revue des etudes des Islamiques*, XXXV, Paris, 1967, pp. 135-146.

وينفرد تيدبوده بالإشارة إلى مقاومة الأهالى بعد اقتحام الصليبيين للمدينة. أما رادلف فيشير إليها أثناء الاقتحام «فعلى الرغم من هجوم الصليبيين إلا أن أهل البلاد يأبون الفرار ويلقون بالقذائف على المنتصرين». ويعطى لنا أيضاً ولیم الصورى صورة رائعة عن المقاومة التى أبدتها الأهالى.

وتعترف جميع المصادر الصليبية دون استثناء بالأسلوب الوحشى عند اقتحام القدس - بل إن البعض «عذب لوقت طويل ثم أحرقوا فى اللهب حتى ماتوا» ويشير فوشيه إلى أنهم «لم يرحموا امرأة ولا طفلاً» أما رادلف فيقول عن هذه الأعمال إن «كل شئ تم بسرعة وعنق». وقد استشهد من أئمة المسلمين وعلمائهم عدد ضخم بالغ ابن الأثير فى ذكره بأنه سبعين ألف، ولكنه يدل على عنف ما حدث على أى حال. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ١٨٩.

Radulfus, op.cit., p. 695; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 121; William of Tyre, op.cit. VIII, pp. 371-72.

(*) اختلفت المصادر الصليبية حول موقف تانكرد. فبينما يشير تيدبوده إلى أنه هو الذى أرسل أوامره بقتل المسلمين الذين فى المسجد الأقصى، نجد أن أعمال الحجاج تشير إلى أن تانكرد كان يمتلئ غيظاً عندما رأى منظر القتل ومن يلقى بنفسه من فوق سطحه. أما رادلف فلم يوضح لنا شيئاً عن هذه المسألة واقتصر فى إشارته إلى اندفاع تانكرد إلى المسجد الأقصى وأمامه أهالى القدس ويسقط منهم الكثيرين من ضربات السيوف بينما من وصل سالماً أغلق وراءه الأبواب. وانفرد بعد ذلك بالحديث عن تمثال مزعوم موجود فى منطقة المسجد وادعاء كاذب أنه

لمحمد ﷺ. ثم يصف سلبه للمسجد وأخذه لكنوزه وذخائره ادعى أنه أنفقها على جنوده لتسليحهم والإغداق عليهم، وردد وليم وفوشيه هذه الرواية وأن تانكرد أعاد هذه الأشياء أو ما يعادلها للصليبيين بعد هدوء الأمور أما عن كيفية وصول تانكرد بهذه السرعة إلى المسجد الأقصى سابقاً بقية القادة الآخرين فيفسر لنا براور ذلك بأنه كان يصحبه مجموعة من النصارى دلوه على كنوز المسجد وعلى الطريق، ويدلل براور على ذلك بأن تانكرد باع أسراه من اليهود وهم الذين كانوا في طريقه حيث أقاموا في هذه المنطقة منذ الفتح الإسلامي للمدينة وحتى استيلاء الصليبيين عليها.

أما نيكاسون فيورد لنا رواية أودريك فيتاليس عن أن تانكرد التقى أثناء اندفاعه إلى داخل المدينة بمجموعة من النصارى كانوا في كنيسة الضريح المقدس وعرفهم من صلواتهم فأمر بفك أسرهم ومعاملتهم بمعاملة حسنة. وعلى الرغم من أن نيكاسون يأخذ بهذه الرواية فإننا لا نوافقه عليها لأسباب عديدة منها أن تانكرد علم بكنوز المسجد من هؤلاء النصارى الذين سبق أن وردت إشارات عديدة عنهم وعن دورهم أثناء تقدم الصليبيين نحو القدس وأثناء الحصار نفسه. كما أن كنيسة الضريح المقدس تبعد عن الطريق الذي اقتحم منه تانكرد القدس. انظر الرسم التوضيحي لذلك.

أما عن مصير سكان القدس فهناك بعض المصادر التي أشارت إلى أن الصليبيين أبقوا على حياة البعض وذلك نظير الحصول على فدية لإطلاق سراحهم. ولكن الغالبية لقت حتفها سواء من المسلمين أو النصارى أو اليهود. ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٢ «الذي أشار إلى جمع اليهود في الكنيسة وأحرقها».

Gesta Francorum, p. 92; Radulfus, op.cit., pp. 695-96; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 121; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 371-72; cf. also: Nicholson, of Jerusalem by the Crusaders, in J.J.S. Vol. 4, 1952, pp. 162-177.

(٢٩) كتب تيدبوده «في يوم آخر». أما أعمال الحجاج فلم تحدد وقتاً. وعقد الاجتماع في ١٧ يوليو ١٠٩٩ H Chr408 (الترجمة الإنجليزية)

(٣٠) أهمت أعمال الحجاج الإشارة إلى دفن الجثث. انظر: Brehier, Gesta, p. 206. وأشار إلى أنهم كوموا في أكوام مثل المنازل ولكن تم تركهم هناك. وهذا المثال

يظهر أن الناسخ أسقط عبارة «وأضرام النيران فيهم» والتي بالتأكيد ضرورية.
(الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده والمؤرخ المجهول إلى جمع الجثث، وكذلك فعل ريمونداجيل دون تفصيل. أما فوشيه فيفسر سبب إحراقها بأنه يرجع إلى بحث الصليبيين عن الحلوى أو المجوهرات التي يكون هؤلاء القتلى قد أخفوها في أجسادهم أو ابتلعوها. أما وليم الصوري فيفسر ذلك بصورة أكثر وضوحاً بأن السبب في إحراقها يرجع إلى خشية انتشار الأوبئة وأن عملية الحرق أو الدفن كانت حسب مقتضيات الزمن. ويشير وليم أن الأسرى هم الذين أجبروا على ذلك وشاركهم الفقراء من الجيش الصليبي حيث حصلوا على أجر يومي نظير القيام بهذا العمل. أما رادلف فيشير إلى المذابح التي تعرض لها الأهالي وقطع آذان السيدات لسقة ما بهن من حلوى مؤكداً رواية فوشيه. ويشير جوتين إلى استخدام النصارى واليهود ممن بقوا على قيد الحياة في هذا العمل أيضاً. انظر: ريمونداجيل : المصدر السابق، ص ٢٤٧.

Gesta Francorum, p. 92; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 377-79;
Radulfus, op.cit., p 397, cf. also: Goitien, op.cit., p. 163-164.

(٣١) تم اختيار جودفرى في ٢٢ يوليو ١٠٩٩ H. Chr ٤٠٩. ويذكر ريمونداجيل أن كونت تولوز عرضت عليه الملكية ولكنه رفضها. انظر: Brehier, Gesta, p. 206.
(الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى طريقة اختيار جودفرى، وقد أفاض ريموند في ذكر هذه القصة، حيث تم اختيار جودفرى لنيل طباعه ومهاراته الحربية وجلده ووسامته على حد تعبير فوشيه، وعبارة «طبقاً لعادة الأمراء» ربما يقصد بها ريموند كما كان يتم في الغرب الأوربي.

أما مهامه فقد حددها تيدبوده «حكم الآخرين وبيت المقدس ولسب الوثنيين» وحددت أعمال الفرنجة نفس المهام. أما ريمونداجيل فكان أكثر تحديداً في أنها : إدارة المملكة وجمع ضرائب الريف وحمايته من التدمير والعمل كمستشار للناس. وهو ما لم تشر إليه المصادر الأخرى. ونفس القصة يوردها وليم الصوري بصورة أكثر تفصيلاً.

أما فوشيه فذكر أن مهامه هي «حمايتهم وحكمهم» ويذكر أنه وضعت شرائع أو

قوانين لذلك حددها البرت بعشرين قانون ولا يورد فوشيه أمر الخلاف حول جودفرى وريموند. أما رادلف فلم يشر إلى ذلك فى روايته. وقد أثار لقب جودفرى «حامى الضريح المقدس» أو «ملك بيت المقدس» أو «أمير» الخلاف بين المؤرخين. وقد تناول رالى سميث ذلك بالتفصيل فى مقال له حول هذا الموضوع خلص فى النهاية إلى وجود اللقبين معاً فى المصادر الصليبية وأنه كان حاكماً بالمفهوم الحقيقى وليس موظفاً كنسياً. ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٥٧-٢٥٨.

Gesta Francorum, pp. 92-93; William of Tyre, op.cit., IX, pp. 380-4; The title of Godfrey of Bouillon, Bull. of Ins. of Hist. Research, LII, 1979, pp. 83-86.

(٣٢) مات سيمون بطريك بيت المقدس فى قبرص. وتم اختيار أرنولف فى أول أغسطس ١٠٩٩ H Chr. 413 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى اختيار أرنولف بطريكاً متفقاً مع أعمال الحجاج فى تحديد اليوم. أما ريمونداجيل فيقدم لنا صورة مفصلة عن أسباب ضعف رجال الدين وسلوك أرنولف مما يدل على معارضته لهذا الاختيار وهو ما ظهر سابقاً فى حديثه عنه. وينقل وليم الصورى نفس الرواية. أما فوشيه فيشير إلى أنه لم يتم اختيار أحد إلا بعد الاستفسار من البابوية عن الشخص المراد اختياره.

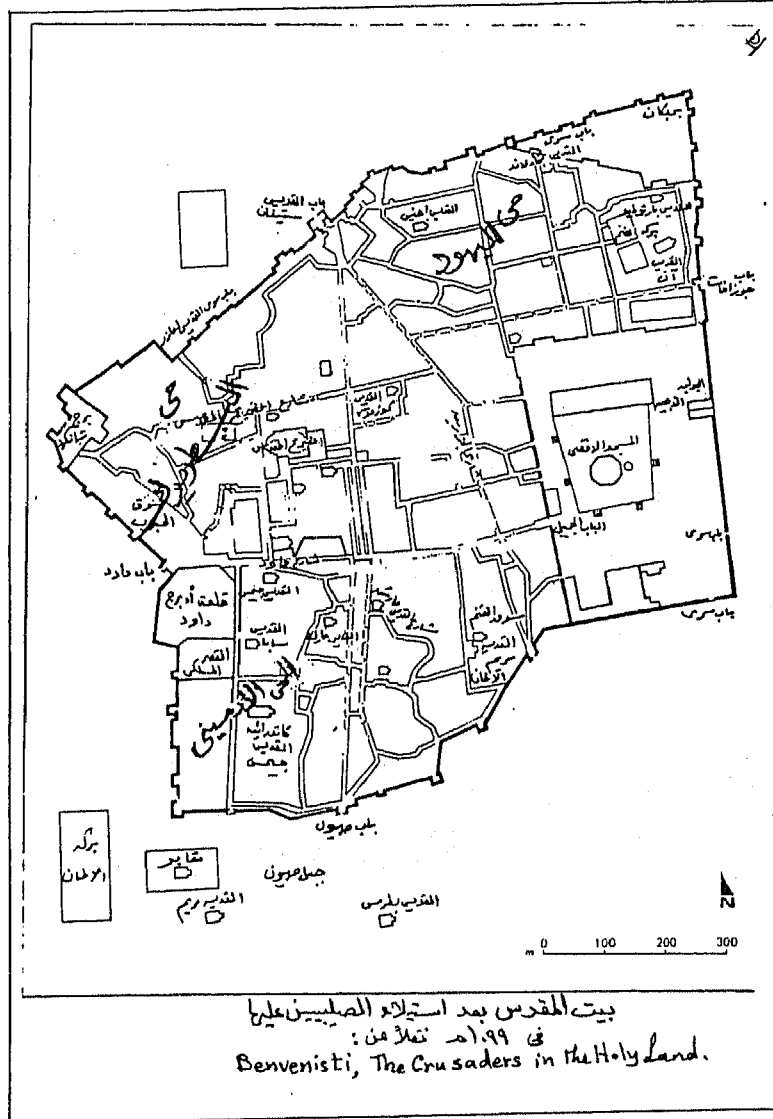
Gesta Francorum, p. 93; William of Tyre, op.cit., IX, p. 380 ff; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 122, f.

(٣٣) حذفت أعمال الحجاج الخاتمة «بمساعدة ربنا يسوع المسيح، والذى له المجد والشرف أبداً الأبدى». أمين.

(*) انظر الآيات رقم ٧٢، ٧٣ من سورة المائدة، ٥٩ آل عمران، مريم ٨٨-٩٥.

لوحة رقم (١)
بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها في ١٠٩٩ م

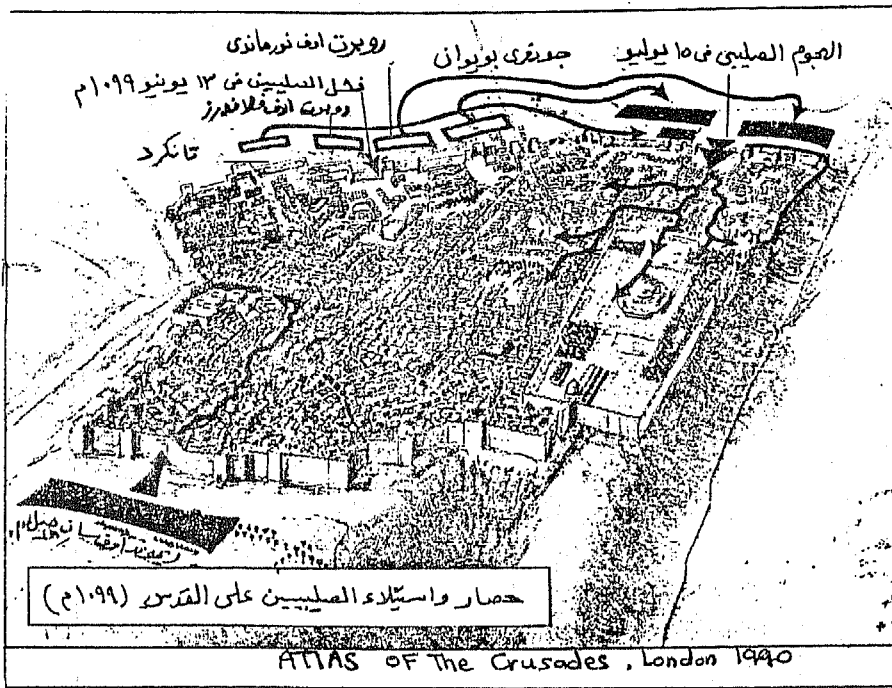
لوحة رقم ١



لوحة رقم (٢)

حصار واستيلاء الصليبيين على القدس ١٠٩٩ م.

لوحة رقم ٢



يوشع براور : استيطان اللاتين فى بيت المقدس

J. Prawer, The Settlement of the Latins in
Jerusalem

In: Sepeculum, 27, 1952.

111

112

113

114

115

116

117

118

119

120

أصبح دراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمدن الأوروبية مجالا للدراسة الخصبة فى العصور الوسطى، وتم تناول تاريخ تأسيسها وتطورها بالشرح والتحليل. غير أنه لم توجد دراسات للمدن الصليبية فى فلسطين^(*). والمشكلة هنا مختلفة وذلك بسبب الوضع الخاص للظروف السياسية وأيضاً لأن المدن الصليبية الكبرى بدأت بعد Tabula rasa وهدم أو تخريب المدن السابقة (البنية السكانية السابقة).

وهناك اختلاف واضح بين المدن التى سقطت قبل صيدا (١١١٠م) والمدن التى سقطت فيما بعد. وحتى عام ١١١٠م فإن سقوط المدن كان يقتصر عادة بإبادة السكان السابقين. ومنذ ذلك الحين فإن سكان المدينة المستولى عليها كان آخذاً فى التناقص. وكان ذلك يعزى إلى عاملين، الأول التغير فى السياسة الصليبية والثانى التغير فى العقلية الصليبية.

ففى الفترة المبكرة كان سقوط المدينة يتم بالقوة. وحتى فى حالات الاستسلام فإن الشروط المعروضة من الصليبيين كان لا يتم قبولها من جانب المسلمين^(١)، وحتى فى حالة قبولها فإنه يتم نقضها من جانب المهاجمين. ولكن منذ عام ١١١٠م، نشهد حالات صيدا، وصور، وبانياس والاحتلال الذى تلى الاستسلام^(٢) وفى كل حالة فقد كان يستمر عدد من السكان الأصليين لكى يشكلوا الطبقة الأولى من مجتمع المدينة^(٤).

وربما ننظر إلى هذا التغير على أنه علامة من علامات نزوج الإدارة لدى هؤلاء الغزاة الفرغ الجدد، وفى نفس الوقت، يجب ألا ننسى أن الاحتلال لا يتم دائماً طبقاً للضرورة الملحة، ففى بعض الحالات فإنه يعكس طموح الجيش. فالاحتلال يعنى الغنائم لكل فرد، والاستسلام يعنى تحول الثروات لصالح الحاكم الجديد للمدينة، وهذا يوضح انتهاك الاستسلام ومعارضة عامة الناس (مثال ذلك أثناء حصار صور) وذلك لاستسلام المدينة^(٥) ومثال هذه المعارضة انتهت حوالى عام ١١١٠م، ودليل على قوة التنظيم وحالة المملكة اللاتينية^(٦).

أما بيت المقدس، أول مدينة سقطت فى قبضة الصليبيين فى الأراضى المقدسة، فقد سقطت عنوة بعد حصارها، وبدأت الحياة تنمو فيها فوق أنقاض الخراب.

ولكى تبدو لنا الصورة واضحة فإننا يجب أن نبدأ بحثنا منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وعلى التحديد فى عام ١٠٦٣ والذى يبدو أنه حاسماً فى كثير من النواحي. فقد سمحت معاهدتى ١٠٢٦م و ١٠٣٧م لحاكم القسطنطينية بإصلاح كنيسة الضريح المقدس والتى كان الحاكم بأمر الله الفاطمى قد خربها. غير أنه حدث زلزال عام ١٠٣٦م هدم جزءاً من أسوار المدينة والتى أصدر خليفة مصر الفاطمى أمراً بإصلاحها^(٧) وكان نصيب النصارى فى إعادة البناء هو إعادة بناء أسوار حيهم. وبسبب عدم استطاعتهم المادية للقيام بذلك فقد لجأوا إلى بيزنطة. ووافق الإمبراطور على تخصيص أموال لإصلاح أسوار حى النصارى فى القدس شريطة أنه من الآن فصاعداً يجب أن يعيش جميع النصارى فى داخل حيهم المحصن، وكانت هذه المنطقة حول الضريح المقدس، والتى كانت حتى قبل منتصف القرن الحادى عشر كانت تعتبر حياً نصرانياً. والجديد فى ذلك هو أنه طبقاً لهذه المعاهدة بين الخليفة والإمبراطور فإن جميع النصارى يجب أن يعيشوا بصفة خاصة فى حيهم. وكان هذا التنظيم الجديد يبدو نوعاً من أنواع الحماية للسكان النصارى. ولكن فى نفس الوقت فإن الحى النصرانى أصبح مغلقاً أمام حارة اليهود التى خضعت تحت عدم التمييز والعبودية والاقطاع. وطبقاً لوليم الصورى^(٨) فإن نقل السكان النصارى وإصلاح الأسوار تم الانتهاء منه فى عام ١٠٦٣م.

وكما حاولت أن أثبت فى مكان آخر، فإن اليهود قد تركزوا فى شرق الحى النصرانى، أى فى شمال شرقى المدينة، والتى كانت تعرف فى القرن الثانى عشر الميلادى باسم Juiverie^(٩) وبالتالي فإن السكان المسلمين شغلوا

الجزء الباقي، أى الأحياء الجنوبية للمدينة، وظلت بعض الأجزاء فى أيدي مالكيها السابقين حتى ولو أن السكان قد هجروها، ومثال ذلك، كنيسة القديسة ماريا المجدلانية لليعاقة والتي تقع على ضواحي حى النصارى^(١٠).

وخلال الخمسين عاماً فيما بين حدوث هذه التغيرات الطبوغرافية والاحتلال الصليبي، فإن المدينة عانت كثيراً من الزلازل وغزو قبائل العرب والسلاجقة على الرغم من أن تعداد سكانها قد بلغ عدداً كبيراً حوالى الثلاثين ألف نسمة. وعلى الرغم من هذه الأحداث، فإنها تركت تأثيرها على جميع السكان، وخاصة من النصارى واليهود^(١١).

وخلال الثلاثة أعوام التى سبقت الاحتلال الفعلى لبيت المقدس، فإن حالة النصارى أصبحت يائسة. فقد اتهمتهم السلطات الإسلامية بأنهم على صلة وثيقة وودية تجاه الصليبيين الغزاة، وتم قتل بعضهم، وفر البعض الآخر من المدينة^(١٢) وطبقاً لذلك فإنه من المفترض عدم وجود سكان نصارى فى المدينة وذلك بعد احتلال المدينة. ومن جانب آخر فإن غالبية السكان من اليهود والنصارى قد تعرضوا للمذابح على أيدي الغزاة من الصليبيين. ووردت الروايات الرهيبة عن حمامات الدماء فى المدينة. ونتج عنها إبادة كاملة للسكان غير النصارى فى المدينة. أما هؤلاء الذين نجوا من السيوف فقد تم بيعهم فى أسواق الرقيق^(١٣) وفيما يبدو فإن الذين نجوا كانوا أولئك المجموعة من المحاربين المسلمين الذين وقعوا فى أسر ريموند أوف تولوز والذين انسحبوا من المدينة. وهكذا فإننا نتخيل مدينة بيت المقدس فى صبيحة الاحتلال، وهى فى حالة كاملة من الخراب والموت الذى خيم عليها.

وفى ضوء ذلك تظهر عدد من الأسئلة: كيف بدأ الصليبيون حياتهم فى المدينة؟ ومن كان سكانها؟ وكيف حول الصليبيون بيت المقدس، هدف رحلتهم الطويلة وقتالهم، إلى مكان ليس يستوجب الاحترام فقط ولكن أيضاً صالحاً للسكنى؟

ويجب ألا ننظر إلى الجيش الصليبي على أنه نواة السكان الجدد، فإننا نعرف أن عدد هذا الجيش وقت احتلال بيت المقدس لم يكن يزيد على ستة آلاف رجل. وجانب من هؤلاء كان قد استقر في بعض المدن التي تم الاستيلاء عليها قبل ذلك، ولذلك فإن جانباً منه فقط هو الذي استقر في بيت المقدس وفي خلال الشهرين فيما بين الاستيلاء على المدينة وبين معركة عسقلان، فإن جانباً كبيراً من الصليبيين قد عاد إلى وطنه، إما إلى الشام أو إلى أوروبا^(١٤). وطبقاً لذلك فإن عدد سكان المدينة كان قليلاً جداً، ولا يزيد عدده عن المئات^(١٥).

هذه المدينة المزدهرة والآهلة بالسكان أصبحت مدينة صغيرة في مملكة بيت المقدس اللاتينية. حقيقة أنها كانت العاصمة، وكانت توصف في كتابات الرحالة والوثائق بأنها Gloriosa و Inclita، ولكن هذه الأوصاف كانت بدون شك من ذكريات أناجيل الماضي، وكانت المدن الساحلية مثل يافا وعكا وصور وبيروت تعج بالنشاط، واجتذبت القادمين الجدد وذلك لإمكانيات العيش فيها وكسب وسائل رزقهم بها، ولكن بيت المقدس كانت مكاناً فقط للزيارة والاحترام وسلك الحاج أو المستوطن الأوروبي رحلته الخطرة وسط جبال الرملة ويهوذا، وذلك لكي يعود سريعاً إلى الساحل.

ويذكر وليم الصوري صراحة أن حياً واحداً من المدينة كان أهلاً بالكسان، وحتى هذا لم يكن يفي بالغرض، وعندما دعت المملكة اللاتينية سكانها في معركة الحياة والموت. فإن السكان الذين بها كانوا عرضة للخطر وذلك لأنه لم يكن هناك العدد الكافي من الأشخاص الذين يستطيعون حماية الأبراج والأسوار وأبواب المدينة^(١٦).

وشغل السكان الجدد والذين استقروا في الحى الشمالى الغربى، حول الضريح المقدس، وذلك بدلا من السكان السريان والذين تركوا المدينة قبل استيلاء الصليبيين عليها. وحتى هؤلاء الذين ظلوا بها فقد هاجروا وذلك

لأن اللاتين شكوا فى أنهم كانوا متواطئين مع المسلمين^(١٧) وبذلك فقد أصبح هذا الحى النصرانى السابق والذى كان يعيش فيه السريان، أصبح حياً أوروبياً. واشتمل هذا على منطقة أوسع مما سبق، واشتمل على المنطقة القرية من القلعة (برج داود) وإلى الجنوب فى هذه المنطقة المسماة جبل صهيون فى داخل الأسوار، حيث امتلك مجموعة من أتباع ريموند أوف تولوز هذه المنطقة، وكما يبدو من اسم الباب السرى فى هذه المنطقة والذى عرف باسم Porta Belear^(١٨) وهناك حى آخر هو منطقة المعبد مع معبد سليمان (المسجد الأقصى) والذى خصص كمقر للملك (فيما بعد عرف بأنه المركز الرئيسى للفرسان الداوية) أما منطقة Temqlum Domini فكانت فى حوزة قساوسة أوغسطين. وفى خلال أقل من عشرين عاماً كان هؤلاء هم سكان بيت المقدس وكان حى النصارى هو فقط الأهل بالسكان.

ومنع الصليبيون المسلمين واليهود من العودة للإقامة فى المدينة. وصدر مرسوم رسمى لإبعادهم نهائياً من المكان وذلك لأن وجودهم سوف يندس قداسة المكان^(١٩) أما إذا وجدنا فيما بعد يهوداً أو مسلمين هناك، فإنهم عادة من الحجاج^(٢٠) أو أنهم أناس حصلوا على تصريح خاص للإقامة وذلك لأغراض تجارية، حيث كانوا يدفعون رسوماً خاصة لهذا الغرض^(٢١).

ولم يظهر السكان النصارى أية نزعة أو ميل للزيادة، بل على النقيض من ذلك فإننا وجدنا دليلاً واضحاً على النزوح من بيت المقدس إلى مدن أخرى، أو إلى أوروبا. ولم يكن فى بيت المقدس الأسس الاقتصادية الكافية، كما أنها لم يكن بها أية مشاريع إنتاجية هامة، مما كان له أثره على الهجرة، وعززت شهادة وليم الصورى هذا رأى، فقد أشار إلى قانون خاص يعطى ملكية المنزل إلى الرجل الذى يعيش فيها لمدة عام ويوم واحد. وكان ذلك موجهاً إلى أولئك الذين يتركون ضياعهم عندما تسوء الأمور، ويعودون عندما تتحسن، كما يقول وليم الصورى، وقد ألغى هذا القانون مطالبهم^(٢٢)

ويبدو لي أن هذا القانون ظل لدى قانوني القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أن الضيعة تصبح حقاً لمستأجرها إذا فشل المالك في أن يحصل منها على الـ Census في خلال عام (٢٣) وهو Remnant كقانون القرن الثاني عشر الميلادي الذي وضعه مؤرخو القرن الثاني عشر الميلادي.

وكانت الأحوال المعيشية في بيت المقدس صعبة في هذه الفترة. ودعنا نستمع مرة أخرى نستمع لهذا المؤرخ. والذي على الرغم من أنه يكتب بعد هذه الفترة بسبعين عاماً، فإنه يمكن الوثوق به، وذلك لأنه بدون شك يستخدم لتاريخه مصادر معاصرة لهذه الفترة، ويقول إنه في خلال الليل كان اللصوص يتسللون إلى المدينة الخاوية المتناثرة السكان. وحتى في المنازل داخلها فإن كانت تفتقر إلى الأمان وذلك بسبب ندرة السكان (٢٤) وحاول الملك. كما رأينا، أن يمنع الفرار من الريف - والذي يعنى فعلياً من المدن، وذلك لأنها كانت مراكز الاستيطان الصليبي - وذلك بقانون الحق المكتسب السنوي، غير أن قوانين مثل هذه لم تكن مؤثرة وذلك لافتقارها إلى قوة الإقناع والإجبار. أما هؤلاء الذين كان لديهم شيء فقدوه في أوروبا فقد غادروا الوطن. وهذه الحالة استمرت في خلال العقد الثاني من القرن في كافة أنحاء المملكة (باستثناء المدن الساحلية) وخاصة في بيت المقدس، ومن خلال قراءة روايات فوشيه أوف شارتر بعناية عن الحملة الصليبية الأولى ومقارنتها مع وصفه للأحوال في العشرين عاماً التالية، فإن الصورة الحقيقية التي رسمها لنا وليم الصوري يمكن أن تكتمل هذه الحقيقة (٢٥).

وكان هذا الموقف بحاجة إلى تقويم، وقام بلدوين الأول، ثاني ملوك بيت المقدس بهذه المهمة، وكان يجب استقرار الرجال في العاصمة، كما يجب توفير وسائل رزقهم. وكما قيل فإن السكان الأوربيين لم تكن تجتذبهم العاصمة، لذا يجب البحث عن أناس آخرين. وكان الحل في أولئك النصارى السوريين من وراء الأردن. وكان الملك قد أحضرهم خلال

حملتيه في عام ١١١٥ و ١١١٦م وقرر أن يحول هؤلاء الفلاحون والقرويون إلى ساكني المدينة. وتم تنظيم مشروع هجرة جماعية على نطاق واسع وبدأ الرحيل الجماعي للنصارى من وراء نهر الأردن حيث أحضروا إلى بيت المقدس ^(٢٦) وكان لديهم أسباباً جيدة للزواج والتعاون مع الصليبيين. فإعادة الاستقرار يعنى أولاً قبل كل شيء، هروباً من الانتقام أو التهديد الإسلامي، وثانياً، جاذبية الأماكن المقدسة، وأخيراً وليس آخراً، فقد حصلوا على امتيازات من ملك بيت المقدس. ولسوء الحظ فإنه لا يوجد لدينا دليل على أصلهم بالتحديد ^(٢٧) ورواية وليم الصوري عنهم غير واضحة تماماً، غير أن الترجمة الفرنسية له توجد بها رواية أخرى، وبدون شك فقد حصلوا على منازل وكذلك حيازات لأراضى فى أنحاء المدينة، والتي تصلح للزراعة لهؤلاء القادمين الجدد، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد معنى Franchement، ويمكن أن توصف بأنها حيازة دون خضوع إقطاعي أو أعباء مالية. ولكننا لا يمكن أن نصر على هذا المعنى للكلمة.

ولم يكن وليم الصوري هو الشاهد الوحيد على إقامة هؤلاء السريان في بيت المقدس. فبعد حوالي خمسين عاماً، ومن خلال طبوغرافية المدينة، نجد شاهداً صامتاً للأحداث وما تلاها. فجميع أوصاف بيت المقدس تحتوى على L'etat de la cité de Jherusalem وتذكر لنا حياً خاصاً يسمى Julverie وعلى النقيض كما يذكر المؤلف الفرنسي للوصف ^(٢٨).

La manoient li plus des suriens de Jherusalem

وهذه الحقيقة يمكن أن توضح من خلال الاستيطان السابق. وكما رأينا فإن الـ Juiverie كانت مأهولة باليهود حتى مذبحة ١٠٩٩م. ثم ظلت بعد ذلك غير مأهولة. وعندما وصلت أنذراج الاستيطان إلى بيت المقدس، فإن حيهم السابق، وهو الحي النصراني حول الضريح المقدس، كان النصارى الأوربيون قد شغلوه بالفعل، وبالتالي فلم يكن أمامهم اختيار آخر، فاستقروا

فى المنطقة المجاورة وهكذا فقد أعادوا سكنى الحى اليهودى السابق والذى كان آنذاك منطقة خالية تماماً^(٢٩) وهنا فقد شيدوا كنائسهم - القديس إبراهيم بالقرب من باب القديس ستيفن (حالياً باب دمشق) والقديسة ماريا المجدلانية والقديس إلياس. وربما تم إصلاح بعض الكنائس فى حيهم السابق لهؤلاء القادمين الجدد مثل القديس يعقوب لليعاقبة بالقرب من الضريح المقدس والقديس كاريتنون والقديس جورج فى مكان السوق، والقديس سابا بالقرب من برج داود^(٣٠) ومن المفترض أنه فى هذه الفترة تم بناء جزء من السور الشمالى والذى يحيط بحى السريان الجديد. وهذا الحائط الجديد، والذى يقع خلف كنيسة ماريا المجدلانية، ربط بين سورى المدينة الشرقى والشمالى، وأوجد مسافة بين الأسوار فى الجانب الشمالى الشرقى. وأحاط بحى السريان وأعطى له أماناً وحماية. وأصبح الحى بسبب صغره يسهل حمايته من اللصوص، أما فى وقت الحصار فإن السور المزدوج فى أغلب أجزاء المدينة عرضة للهجوم كان له أهمية خاصة فى الدفاع.^(٣١)

وبعد عدة سنوات من المحاولة الأولى لتطوير المدينة نرى رجال الدين فى بيت المقدس يتخذون نفس المبادرة. وكان اهتمامهم واضحاً. فإلى جانب الاعتبارات الدينية فإنه وجد اهتمامات دنيوية. فقد ادعى بطريرك بيت المقدس ملكيته الخاصة لكل المدينة. وفى الحقيقة، فإن جودفرى دى بويون كان قد منحه ملكيتها، ولكن طبقاً للظروف فإن المدينة ظلت فى سيادة الملكية وكانت ثروة رجال الدين فى المدينة جديرة بالاعتبار. ونشير هنا فقط إلى احتكارهم إلى المخازن فى المدينة والتى كانت تابعة لهم. وبناءً على مبادرتهم فقد أصدر الملك بلدوين الثانى قانوناً فى عام ١١٢٠م حيث أعفى الإمدادات الغذائية من الضرائب المفروضة عند مدخل المدينة. كذلك ألغيت «الأوزان والمقاييس» الإضافية^(٣٢) ومرة أخرى فإن الترجمة الفرنسية لوليم الصورى تفسر أكثر منها تترجم النص الأصيل، حيث تشرح بوضوح الظروف التى أحاطت بإصدار هذا القانون^(٣٣).

وهذا الوصف يعطى مزيداً من الإيضاحات، فعن طريق تشجيع استيراد مؤن غذائية رخيصة وتخفيض تكاليف المعيشة فقد حاول الملك أن يحسن من أوضاع المدينة، ومن خلال هذه الوسائل فإن كلا من بلدين الأول والثاني يستحق لقب موطن بيت المقدس. وقد مدح وليم الصوري كلاهما (٣٤).

وإذا قارنا بيت المقدس مع المدن الأخرى فى نفس الفترة فإننا نصدم بالغياب الكامل للقومونات الإيطالية. وكان للتجار الإيطاليين ومن جنوبي فرنسا أهمية فائقة فى استيطان المدن الفلسطينية فى هذه الفترة، وكان غيابهم فى بيت المقدس ملفتاً للنظر. وقد حصلوا على امتيازات فى بيت المقدس مماثلة لتلك التى حصلوا عليها فى المدن الأخرى (٣٥). وحتى إذا أخذنا فى الاعتبار الأهمية غير الاقتصادية لبيت المقدس، فإن غياب أحياء القومونات يشكل لغزاً محيراً. ويمكن أن نقترح حلاً واحداً. فقومونات التجار الإيطاليين فى الشرق كانت لتجارة جملة على نطاق واسع، ولذا لم يكن لديهم أعمال تجارية فى بيت المقدس. فلم يستقروا فى أية مدينة داخلية، وفضلوا المدن الساحلية. ولم يتاجروا فى التذكارات أو الرفات وكانت سلعهم يمكن أن تباع وتشتري بسهولة فى موانئ الشحن إلى أوروبا. ومن ناحية أخرى، فإن بائع التجزئة الداخلى يمكنه بسهولة أن يمارس أوجه نشاطه التجارى فى الموانئ، حيث مراكز التبادل للبضائع الشرقية والغربية.

وكان لعدم وجود القومونات الإيطالية فى المدينة جعل لبيت المقدس بعض الملامح الاقتصادية والإدارية والطبوغرافية الخاصة. فبدلاً من الأسواق العديدة والمخازن المعقدة فى عكا وصور مع سوق ونزل فى كل حى إيطالى، فإن بيت المقدس لم يكن بها سوى سوق واحد، مكون من ثلاثة شوارع مغطاة، حيث تم بناؤه فى منتصف القرن الثانى عشر بمنحة ملكية (٣٦). وإذا وجدت شوارع خاصة فإن الاختلاف مرجعه إلى نواحي اقتصادية وليست عرقية. وكان لمتخلف الحرف اليدوية أو التجارية أماكن خاصة، وكان الفرنجة

والسريان يعملون فى نفس التجارة، ويشغلون جانبى الشارع الواحد. ولكن كان ذلك أكمل امتداد للاختلاف العرقى. ومن خلال هذه النظرة فإن بيت المقدس كانت أكثر منها مدينة أوروبية متجانسة بخلاف المدينة الشرقية غير المتجانسة وكانت فريدة فى ذلك بين المدن الكبرى لمملكة بيت المقدس.

وكان الدور الاقتصادى والاستيطانى للقومونات، والذى لم تتكرم بإقامة فنادقهم Fondachi فى بيت المقدس، وقع على عاتق جماعات أخرى فى المملكة. وكان للدور المزدوج لبيت المقدس كعاصمة للمملكة وكمرکز دينى للنصارى عوض الخسارة التى عانت منها بسبب غياب الإيطاليين. وكانت الأولى للملك ولحاشيته وكذلك لإدارته الملكية، والذى كان لوجودهم أثره فى حقن حياة جديدة فى أوردة المدينة القديمة. كذلك كان للمذاهب الدينية المختلفة، والجماعات، والحشود، وكذلك قساوسة الضريح المقدس بصفة خاصة، وهم ملاك الثروة الضخمة، قد طور المدينة من خلال تركيز إدارتهم بها. ثم هناك ثروة بطريك بيت المقدس (والتي أحياناً كانت تعادل ثروات رجال الدين) وأخيراً وليس بآخر، الجماعتين الدينيتين القويتين. وقد اعتمدت المدينة عليهما فى وجودها الاقتصادى، ومقارنة بهما فإن الحجاج يكونون العامل الثانى من الأهمية فيما يتعلق بالمدينة^(٣٧) وجميع هذه المنظمات، كانت مؤسسات اقتصادية مستأجرة، حيث أن خدمها وتابعيها كانوا بحاجة إلى الطعام والملابس، وحتى هذه السياسة الفردية لتلك المنظمات فإنها كانت تشتمل على سوق محلى.

وكان لعدم وجود الأحياء الإيطالية له صدها فى التنظيم الإدارى للعاصمة. وعبثاً فإننا نبحث فى بيت المقدس عن أحياء تتمتع بحصانة علمانية. ولم يكن هناك صلاحية علمانية خاصة سوى الملك، كما لم يكن ضرائب سوى للملك، وكان الملك هو الذى يأمر بتنظيف الشوارع، والذى أدى إلى حركة «مقاومة سلبية» عامة بين السكان^(٣٨) وذلك لأن المدينة غير

المأهولة بالسكان لم تتطور. وظلت المؤسسات العامة Regalia. ولذا فإن السبع وعشرين مخزناً في المدينة (منها أربع وعشرون منحت لرجال الضريح المقدس، واثنان لفرسان القديس يوحنا وواحد للقديسة ماريا اللاتينية) وربما المجزرة ظلت في يده، ولم يذكر ضرائب تدفع عند مدخل المدينة أو ضرائب تدفع في الأسواق.

وسبق القول أن القومونات الإيطالية لم تستخدم الامتيازات الممنوحة لهم ولذا فإنه لم يكن هناك حصانات Immunitates قسمت المدينة إلى مناطق عرقية خاصة. ونفس الشيء للجنسيات الأخرى. وإلى جانب الانقسام الديني الفظ بين الفرنجية والسراني (والذي لا يمكن أن يكون على الرغم من ذلك كاختلاف عرقي) فإن اختلاف السكان الفرنجي يلاحظ بشكل طفيف جداً. والشاهد الوحيد على ذلك الخلاف موجود أو محتفظ به فقط في أسماء الشوارع في المدينة. وكان لجماعة القديسة ماريا في القرن الثاني عشر الميلادي ما يسمى بأشربة القديس توماس الألماني والذي على الأرجح كان في شارع الألمان حيث كانت توجد كنيسة والتي تنتمي لنفس الفترة^(٣٩) واتفق ذلك مع الروح القومية لهذه الجماعة، مقارنة مع الاستبارية والداوية المتحررة من النزعة الإقليمية. ولكن كيف كانت هذه المستعمرة الألمانية غير ملفتة للنظر، والتي ربما لفت إليها النظر الرحالة الألماني يوحنا أوف فريزبورج، الذي كتب عنها حوالي عام ١١٦٥م^(٤٠) أما الشارع الأسباني، والذي يمتد من باب القديس ستيفان إلى منطقة المعبد، فقد أطلق عليه هذا المسمى بدون شك بعد هجرات من شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن لا يوجد شيء محدد يمكن أن يقال عنهم أكثر من ذلك، ويمكن لنا أن نفترض أن الـ Vicus de Lissbonetta يتطابق مع الشارع الأسباني. وربما يمكن لنا أن ننظر إلى هذا الشارع على أنه مولد لجماعة أسبانية دينية، ولكن ذلك تخمين بحث^(٤١) وفيما عدا الكنيسة الهنغارية، وربما مستشفى،

وذلك فى الجزء الشمالى الغربى للمدينة، وكذلك بالأحرى عدداً من الرجال الفرنسيين الذين يعيشون فى منطقة المعبد، فإنه لا يوجد شىء آخر يمكن أن يقال عن تجمعات عرقية فى بيت المقدس.

وكان لجميع الأقطار الأوروبية ممثلين لها تقريباً فى بيت المقدس. وقد أشار الرحالة الألمانى السالف الذكر إلى ذلك. وهذا يمكن أن يضاف إليه العديد من الأسماء من الوثائق المعاصرة. غير أن الجدوى هنا أن هذه القوميات لم تشكل أبداً تكتلات قومية سياسية خاصة. وكما أن القومونات الإيطالية لم تكن عامل استبطانى، كذلك فإن المجموعات الجنسية المختلفة لم تكن مراكز استيطانية مؤثرة.

ومن العوامل التى تعتبر كمفتاح لفهم وثيقة أمريك الأول بتوثيق أملاك الضريح المقدس هى، عدم أهمية المجموعات القومية فى بيت المقدس (وذلك على العكس مثلاً مع عكا وصور)، وكذلك لغياب الأحياء الإيطالية، ونقص أو عدم وجود أى أملاك علمانية Burgi حيث يتمتع ملاكها بنوع من الحماية Immunitas (٤٣)، (٤٤).

ولهذه الوثيقة علاقة خاصة بمظاهر الحق الملكى الخاص، وطبقاً لها فإن بعض الحقوق سوف تحفظ للملك بمفرده فى المستقبل، وهى بدون شك نوع من أنواع الـ Regalia أو امتيازات الخطر. ومن ناحية أخرى فإن الملك تخلى عن بعض الحقوق من أجل رجال الدين. وسمح لقساوسة الضريح المقدس بتأجير منازلهم للمرابين والتجار والحرفيين والذين يمكنهم ممارسة تجارتهم دون حائل أو مانع. غير أن هذا الامتياز الأخير لا يمكن أن يعتبر منحة امتلاك عادية. وحدد الملك ذلك بأنه امتياز خاص. وهذه المنازل سوف تكون خالية فى الأحوال الخاصة والاستثنائية.

ماذا تعنى هذه الحرية الخاصة؟ فالتحديد الخاص فى إيجار المنازل فى

بيت المقدس لم يكن معروفًا^(٤٥) فلماذا إذن الحاجة إلى امتياز خاص؟ ومفتاح الإجابة يوجد في أعمال النزلاء المحددة فى الامتياز. وهم جميعاً ينتمون إلى فئة التجار والحرفيين، ومثل هؤلاء، كما يمكن أن نتصور، بحاجة إلى تفويض خاص لممارسة تجارتهم، تفويض يشترى للأموال السائلة، أو بالأحرى يدفع من خلال الضرائب والواجبات المفروضة على إنتاجهم وصفقاتهم.

وفى الحالة الثانية فإن جمع الضرائب سيكون أمراً سهلاً إذا كان هؤلاء الرجال مستقرين فى مكان السوق. وكان ممثلى الملك أو رجاله سوف يكونون فى السوق. ولكن محلاتهم لم تكن مركزة فى مكان واحد، ولذا فإن جمع دخل الملك أصبح أمراً غاية فى الصعوبة. ويمكن أن ننظر إلى عكا كحالة مشابهة. فقد ارتأى قرار محكمة الملك (حيث كان البرجوازية ممثلين بدرجة كافية) أن السكان غير الكاثوليك، والذين يدفعون الضرائب والواجبات للملك، يجب أن يعيشوا فى حى خاص فى المدينة^(٤٦) وربما حدث نفس الشيء فى بيت المقدس. وهذا، كما افترض، لماذا مارس الحرفيون والتجار تجارتهم فى مناطق خاصة محددة، وكان هذا توضيح للاستثناء الممنوح لرجال الضريح المقدس، ومنحهم الملك تأجير منازلهم، فى أى موقع تكون، للحرفيين، للتجار.

وإذا كان هذا التوضيح صائباً، فإنه يظهر تساؤل آخر، ما هو الأساس النظرى أو العملى للحق الملكى فى هذه الحالة؟ هناك إجابتان على ذلك التساؤل. وفى حالتنا هذه فالملك هو سيد المدينة، وكذلك فإنه يجمع الضرائب والواجبات لهذا المكان. ومن هنا يمكننا الافتراض، أنه كسيد للمدينة فإن له حق التدخل فى الممتلكات، والتأجير وذلك بقدر ما تتصل بدخله. وكذلك فإن هناك تفسير آخر، فكما أوضحنا فإن بيت المقدس بين كبيرات مدن المملكة، ولأنه لا يوجد بها سيادة أخرى علمانية، بخلاف

المملك، ولذا فإن سيطرة الملك على السكان كانت أقوى من أى مكان آخر. وبذلك يمكننا أن نفسر حق الملك فى التدخل نتيجة نشاطه الاستيطانى. وهذا الاستيطان كان عملاً مربحاً، فى فتح الأسواق، المعارض، والصرافة وهى مشاريع تدر الدخل. وجهزت المدن الأوروبية فى نفس الفترة بأمثلة عديدة. ومن هنا نفترض أن الملك، والذى عمر المدينة وزاد من تطويرها، احتفظ لنفسه حتى عام ١١٦٤م بحق التدخل حيث تتسع المدينة، وحيث تتركز اهتماماته الخاصة. وظل توطين التجار والصرافين والحرفيين، ومساحات مناطق المدينة والأبنية، وكذلك الحق الوحيد فى ترتيب اليد العاملة فى المجتمع فى المدينة، حقاً خاصاً.

ويمكن أن نلخص الوصف السابق كما يلى: فاستقرار اللاتين فى المدينة المقدسة بدأ من العدم Nihilo. وبدأ البحث عن نواة السكان الجدد فى الجيش المحتل، والذى كان لحماسه الدينى أثره عليه فى منع غير النصارى من الإقامة فى المدينة، وكان الملك (السيد الاقطاعى للمكان) ورجال الدين من العوامل المؤثرة فى زيادة تطور المدينة. ولعب الملك دوراً مؤثراً فى عملية الاستيطان لكى يحقق أهدافه. وكانت الخطوة الأولى هى توطين الفلاحين من النصارى الشرقيين من وراء الأردن، ثم تبع ذلك السماح باستيراد المؤن الرخيصة وتخفيض تكاليف المعيشة وذلك بإلغاء أو تخفيض الضرائب والواجبات المفروضة على البضائع المستوردة. وكانت هناك محاولات أخرى هدفت إلى استقرار التجار العالميين، القومونات الإيطالية ونتيجة لذلك جعلت بيت المقدس كمركز تجارى تفشل تماماً. وكان لموقعها الجغرافى، وبعدها عن طرق التجارة الرئيسية، وكذلك تركيبها الاقتصادية، وكمدينة للمستهلكين، لم يبرر ذلك التطور.

وظلت بيت المقدس عاصمة للمملكة لأسباب روحية بحثة. واعتمدت فى المقام الأول على الإيجارات من السكان، الملك والبلاط، ورجال الدين

من جميع الطوائف والجماعات الرهبانية، على الرغم من أن السكان بدون شك استمدوا جزءاً من دخلهم من تيار الحجاج المتذبذب ومن الصدقات المدفوعة من أوروبا.

وكان لغياب القومونات الإيطالية والجماعات الأخرى الخاصة، سواء أكانت قومية أو اجتماعية، قد أعطت بيت المقدس تجانساً فريداً في الإدارة، ولوحظت أيضاً حتى في مؤسساتها الاقتصادية، على الرغم من سكانها الأوروبيين.

وعلى الرغم من ذلك فإن بيت المقدس لا يمثل مثالا لمدينة صليبية. وهي استثناء لهذه القاعدة. واحتفظت بوجودها لأسباب عاطفية بحتة، واعتمدت بقية المدن على المدن الأخرى تماماً على مؤسساتها الاقتصادية والإدارية.

الهوامش

(*) تناولت مدرسة الإسكندرية فى العصور الوسطى العديد من المدن فى عصر الحروب الصليبية بالدراسة فى رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها على سبيل المثال لا الحصر مدن: أنطاكية وصيدا وقيسارية وحيفا ويافا وبيروت والخليل والجليل بخلاف القلاع الأخرى. ويبدو أن المؤلف لم يطلع على هذه الدراسات (المترجم).

(١) مثال ذلك الشروط المعروضة من أسقف البندقية للمحاصرين فى حيفا: تحول السكان المسلمين إلى العبودية أو إخلاء المدينة، أو التحول إلى النصرانية ويصبحون مواطنين من الدرجة الثانية. وربما كانت هذه الشروط غير صحيحة تاريخياً ولكنى أعتقد أنها تعكس بوضوح رأى العام فى هذه الفترة. انظر:

Monachus Littornsis in Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux (RHOcc) V, 276.

(٢) E.G. in Acre (1104), cf. Gesta Francorum, 63, (RHOcc. III, 567), Beirut (1110), cf. Albertus Aquensis, XI, 17.

(٣) سقطت عسقلان فى عام ١١٥٣، وهى استثناء لأن موقعها الجغرافى أجبر الصليبيين على تهجير سكانها من المسلمين.

(٤) على أى حال، فطبقاً للمؤرخ العربى، فقد ظل فقط المرضى والفقراء.

Ibn al - Athir, A.H. 518 in RH Orientaux, I, 359.

(٥) ولیم الصورى، 111, 13 وفى هذه الحالة فإنه من الضرورى أن نورد النص الموجود لهذه الأحداث لدى الترجمة الفرنسية لولیم الصورى، الذى لا يوجد فى الأصل اللاتينى.

(٦) Cf. Assises de la cour des Bourgeois in RHC. Lois, II, Preface, p. XVII.

وعالجت نقص القوى البشرية فى مملكة بيت المقدس فى مقال:

Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem , Revue Belge de Philologie et d' Histoire, XXIX (1951), 1063-1118.

(٧) أشار يحيى الأنطاكي إلى الزلزال وإصلاح الأسوار، وفيما يبدو أن هذا الزلزال يتطابق مع الزلزال الكبير فى سوريا وفلسطين فى نهاية عام ١٠٣٣ وطبقاً لخطاب

عبرى من بيت المقدس فإن الزلزال بدأ في ٥ ديسمبر ١٠٣٣. انظر :

J. Mann, The Jews in Egypt and in Plaestine Under the Fatimids (Oxford, 1922), II, 176-178.

William of Tyre, IX, 17-18 (RH Occ. 1, 390 f. (٨)

J. Prawer, The Vicissitudes of the Jewish and Karaitic in Jerusalem During (٩)
the Arab Period (640-1099) Zion Quarterly for Research in Jewish History,
NS., XII (1947), 136-148); The Jewish in Latin Kingdom of Jerusalem, Ibi-
dem, N.S., XI (1945)-1946), 38-82.

وكلاهما باللغة العبرية مع ملخص إنجليزي.

(١٠) وعن كنيسة ماريا المجدلانية انظر:

E. Cerulle, Etiopi in Palestine, Rome, 1943, I, 10-12.

(١١) لا توجد أعداد احصائية متاحة لهذه الفترة ولكن من الملاحظ أن الثلاثين طائفة
يهودية المعروفة والموجودة في فلسطين فيما بين القرنين السادس والحادي عشر
الميلاديين ورد ذكر اثني عشر منها في المصادر بعد ١٠٧١ م، وهو عام الغزو
السلجوقي.

William of Tyre, XI, 7. (١٢)

Baldricus Dolensis, XIV, RH Occ. IV, 113; William of Tyre, XI, 27, (١٣)
RHOcc., I, 500f.

(١٤) الأرقام التالية هي أرقام مفيدة. وفيما بين ستين ألف في وقت غزو المدينة، فإن
عشرة آلاف لعبوا دوراً في معركة عسقلان فيما بعد ذلك بشهرين (أغسطس
١٠٩٩ م) وفي خريف نفس العام كان هناك ثلاثة آلاف فقط في معركة
أرسوف. وفي ربيع عام ١١٠٠ م وسبتمبر ١١٠١ م كان هناك فقط ألف ومائتان
وألف وثلاثمائة مقاتل على الترتيب. وقدم هؤلاء من جميع أنحاء المملكة. وهذا
يعطينا فكرة عن عدد سكان بيت المقدس. وهذه الأعداد مأخوذة من :

W.B. Stevenson, The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), pp. 33, 35,
39, 44.

Fulcherius Carnotensis, Historia Hicrosolymitana, ed. H. Hagenmeyer (١٥)
(Heidelberg, 1913), n. 10.

William of Tyre, XI, 27.

(١٦)

Matthew of Edessa, Cap. 21, RHC, Documents arminius, I, 54-55, cf. E. (١٧)

Cerulli, Etiopi in Plaestina, P. 13.

(١٨) هذا توضيح مبتكر للمكان أسماء ف. م. أبل. ويجب الإشارة إلى هذا المكان السرى كان يطلق عليه حتى عام ١١٨٧ م «الباب الجديد» Porta Nova. انظر :

J. Delville le Roulx, Cartuliar General de l'Ordre des Hospitaliers de S.

Jean de Jérusalem (Paris, 1894), no. 537.

William of Tyre, xi, 27.

(١٩)

(٢٠) مثال ذلك الرحالة العربى على الهروى فى أرشيف اللاتين الشرقيين، ص ٥٩٣، أما أعداد الرحالة والحجاج اليهود فهى أكثر. وتوجد قائمة كاملة لدى سيفر . Sefer

The Itinerary of Benjamin of Tudela (English Translation) ed. Asher (New York, 1900), p. 69. (٢١)

وذكر أربعة عائلات يهودية فى بيت المقدس. أما النص الذى يشير إلى «مائتى عائلة» والموجود فى بعض المخطوطات فهو خطأ. انظر:

B. Dinaburg in Zion Quarterly for Research in Jewish History, II, 1927, 54.

William of Tyre, IX, 19, RH Occ., I, 393.

(٢٢)

(٢٣) تناولت هذه المشكلة بالتفصيل فى مقالى:

The Assise de Teneure and the Assise de Vente: A Study of Landed Property in the Latin Kingdom, The Economic History Review, 2nd series, IV, I (1951), 77-88.

William of Tyre, IX, 19.

(٢٤)

(٢٥) لا يوجد أساس للوصف التقليدى عن فترة السعادة التى تلى الاحتلال مباشرة فى الوثائق المعاصرة. وأما تطور المملكة فهو مأخوذ من رواية فوشيه. (نشر هاجنمير، ص ٣٧) وهو يثبت التطور الهائل للأساس الصغير حيث كتب بصفة خاصة للجزء الثالث من تاريخ بيت المقدس حيث لم يتم تأليفه قبل ١١٢٤ م. ويوجد وصف آخر ليس أقل شهرة لدى اكهارد. Ekkehard.

William of Tyre, XI, 27.

(٢٦)

وأثبت التاريخ رورشت:

R. Röhrich, *Geschichte, des Konigreichs Jerusalem, 1100-1291* (Innsbruck, 1898), p. 113.

William of Tyre, XI, 27, *RHOcc. I*, 500.

Itinéraires à Jerusalem de descriptions de la Terre Saints rédigés en Fran- (٢٧)
cais aux xii e et xiii e siècles, ed. H. Michelant and G. Raynaud. (٢٨)

ويوجد الاقتباس في ص ٤٩. وكان هذا الحي يسمى في اللاتينية Judearia وورد ذكره في وثيقة من وثائق دير نوردام أوف جوزيفات وكنيسة الضريح المقدس.

(٢٩) أفضل خريطة لبيت المقدس توجد في :

F.M. Abel, *L'etat de la Cité de Jerusalem, Jerusalem, Records of the Pro-Jerusalem Council, I* (Jerusalem, 1918-1990), ed. C.R. Ashbee, F.M. Abel, *Jerusalem au Temps du Royaume Latin, XII e Siècle, Jerusalem Nouvelle, Planchs LXXXVI.*, C.N. Johns *Palestine of the Crusaders* (Jerusalem, 1936).

(٣٠) أخذت الأسماء من خريطة للقرن الثاني عشر الميلادي من مخطوط كامبري Ms. Cambrai - المطبوعة بواسطة رودشت. وهذه الكنائس لم ترد في مصادر الفترة السابقة. والاستثناء الوحيد هو كنيسة ماريا المجدلانية. وهناك كنيسة بهذا الاسم ذكرت في بداية القرن التاسع، ولكن موقعها الطبوغرافي في هذه الفترة غير معروف. وأخذت موقع كنيسة سريانية في عام ١٠٩٢م والتي تتطابق مع ماريا المجدلانية، على الرغم من نص تاريخ البطارقة اليعاقبة السكندريين لم يذكرها.

(٣١) شق الصليبيون طريقهم في هذا المكان تماماً إلى داخل المدينة. وحدد المكان في خريطة مخطوط كامبري بعلامة الصليب ووصف كتب عليه.

Cartulaire... du Saint. Sépulture, ed. Rözière, pp. 83-85, *CF. Wil. Tyr. XII*, (٣٢)
15, *RH Occ. I*, 534, p. والنص ورد ملخصاً في فوشيه.

P. Paris, *Guillaume de Tyr et ses continuateur*, p. 456. (٣٣)

أما النص الوارد في الـ *Recueil* فهو مشوه في هذا المكان.

William of Tyre, XII, 15. (٣٤)

(٣٥) مع أن الامتيازات العامة للقومونات الإيطالية قد منحهم حقوقاً خاصة في جميع

مدن المملكة فإنه يمكن أن نفهم أن بيت المقدس كانت ضمنها أيضاً. ولكن هناك حقوقاً خاصة ذكرت بيت المقدس بوضوح. فقد حصل البنادقة على امتياز فى عام ١١٢٣ م منحهم حياً فى بيت المقدس.

G.L. P. Tafel and G. M. Thomas, *Urkunden zur älteren Handels und Staatsgeschichte der Republik Vene dig*, I, (Vienna, 1856), no. 40.

(٣٦) ليست أسواق الشوارع الثلاث فى بيت المقدس بحاجة إلى توضيح. غير أنه يجب التذكير بأن المملكة ميليسند هى التى قامت ببناء السوق المركزى بشق طريق جديد بين الطريقين الموجودين. وقام بالعمل عبيد الملكة. انظر:

Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere, No. XLVIII وهناك سوق آخر للحبوب بالقرب من برج داود.

(٣٧) من المفارقات الزمنية أن نعتبر الحجاج الصليبيين مثل السائحين الحديثين فى الشرق. وكان هناك حجاج أغنياء، ولكن الغالبية العظمى كانوا من الفقراء. وكانت صدقات المستشفى توزع، حيث مدحتهم الرحلات فى إشارة إلى أحوال الحجاج، وهناك أيضاً مقابر للفقراء، خارج أسوار المدينة. ومن هنا يمكن أن نعتبر الحجاج مصدراً ثانياً من الدخل فى تطوير المدينة.

(٣٨) هذه رواية شيقة عن تنظيف الشوارع، واحتفظت بها الـ Assises de Bourgeois قوانين البرجوازية.

(٣٩) ورد ذكر الكنيسة فى :

Cartulaire... du Sainte Sépulcre, ed. Roziere وورد ذكر الشارع فى أرنول. وهذا الوصف كتب فى عام ١٢٣١ ولكنه اعتمد على No. 185 مصادر القرن الثانى عشر الميلادى.

Johannes Würzburgensis, ch. 13, in *Descriptiones Terrae Sanctae ex saccu-* (٤٠) *lo* vIII, IX, XII, et XV, ed. T. Tobler (Leipzig, 1874), p. 156.

(٤١) ورد ذكر جيراردى أوف لشبونه فى :

Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere, no. 185.

(٤٢) لاشك أن المصححة الهنغارية من القرن الثانى عشر مؤسسة جديدة، ولكن هناك زعم بأن المصححة الهنغارية فى بيت المقدس قام جياسا الأول الهنغارى ببناءها فيما بين عامى ١٠٧٥-١٠٧٧ م. انظر:

P. Riant in *Archives de l'Orient Latin*, I, (1881), 28, not. 10.

هل هناك علاقة فيما بينهما؟

(٤٣) يستثنى من ذلك بطبيعة الحال حقوق السيادة الخاصة بالبطريرك ورجال الدين وهذه الحقوق التى ظهرت فى العصور الوسطى من نتيجة امتلاك أنواع خاصة من الملكية. انظر : حاشية رقم ٤٥ والاستيطان بواسطة البرجوازية يمكن أن تثبت فى عدة أماكن فى المملكة من بينها عكا.

(٤٤) Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere, p. 265.

(٤٥) تحديد إيجار المنازل يمكن أن نستقيه من حياة البرجوازية.

(٤٦) Assises des Bourgeois, ch. ccxliii, ed. Beugnot in Lois, II, 178.



اللاجئون السوريون - الفلسطينيون

في زمن الحملات الصليبية

Sivan, Emmanuel, Réfugiés Syro-Palestiniens au
temps des croisades in : Revue des études Isla-
miques, xxxv (Paris, 1967)

اللاجئون السوريون - الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية

من عواقب الحروب وتناجها الوحيدة التى لا مفر منها تلك المشكلة الإنسانية الخاصة باللاجئين. والحروب الصليبية لا تشذ عن هذه القاعدة. كل ما فى الأمر أن مشكلة اللاجئين من سكان الشرق الأوسط فى تلك الآونة لم تتناولها الدراسات بالبحث. لذا فقد رأينا الإدلاء بدلونا فى هذا الجانب الخاص بدور اللاجئين فى الحروب الناشئة ضد الفرنجة. ويجدر بنا قبل الشروع فى تبيان هذا الدور البدء فى وضع نشاط هذه المجموعة فى إطار تاريخى موضحين كيفية تكوين هذه المجموعات السكانية وحجمها وتوزيعها جغرافياً إلى جانب مدى استيعاب وتقبل البلاد الإسلامية لها.

والمعلومات التى أمكننا التوصل إليها فى هذا الصدد من خلال المصادر العربية واللاتينية ليست بالغزيرة وهى إلى جانب ذلك موزعة زمنياً ومكانياً وقد رأينا أولاً تجميعها وفى مرحلة تالية تبيان المشاكل التى اعترضت سبيلنا. أما عن النتائج التى توصلنا إليها فلا يمكن اعتبارها سوى فرضيات مطروحة. يمكننا إرجاع مشكلة اللاجئين إلى بدء دخول الفرنجة إلى سوريا وفلسطين فالهجرة الجماعية قد بدأت عام ١٠٩٨ مع غزو أنطاكية وتوالى مراحل متتالية من هذه الهجرة مواكبة للغزوات الكبرى وانتهت بالاستيلاء على «صور» عام ١١٢٤م وقد انقسم المهاجرون الذين كانوا فى أغلبيتهم من المسلمين إلى ثلاث مجموعات وذلك بالقياس بظروف هجرتهم نفسها.

وأول هذه المجموعات الثلاث هى تلك المكونة من الفارين من المذابح التى قام بها الفرنجة فى العشر سنوات الأولى لغزوهم واقتحامهم بالقوة لبعض المدن والمذابح الأخرى التى قاموا بها فى المدن التى استسلمت ورغم

استسلامها لم يتمكن القادة الفرنجة فرض الانقياد والانصياع لبنود الاتفاقيات والشروط المعقودة مسبقاً مع قادة ورجال هذه المجموعات بها.

وتشير المراجع إلى وصول لاجئين إلى الأراضي الإسلامية بعد المذابح الدامية والمجازر التي حدثت في أنطاكية ومعرة النعمان عام ١٠٩٨م وفي بلدة سروج وبلدة قيسارية Césarée عام ١١٠١م. وفي بعض المدن الأخرى قام قادة صليبيون بإنقاذ بعض الجماعات من السكان المحليين (وخاصة الضباط ورجال الصفوة) كما حدث في القدس عام ١٠٩٩م وعكا عام ١١٠٤م أما ثانی هذه المجموعات فهي أكثرهن أهمية. وهى مكونة من سكان المدن التى كانت قد استسلمت والتزم فيها الفرنجة بمواثيقهم بشأن الحفاظ على حياة السكان وكفالة حرية مغادرة هذه المدن. ويبدو أن معظم السكان المسلمين قد اختاروا حل الهجرة هذا. وقد وجدنا مثل هذه الحالات حتى فى السنوات الأولى لغزو الفرنجة فعلى سبيل المثال نجد هذا الأمر فى أرسوف عام ١١٠١م وأفامية عام ١١٠٦م وجبلة عام ١١٠٨م وعرقه عام ١١٠٨م أيضاً إلى جانب طرابلس عام ١١٠٩م.

وكما بين J. Prawer فإن مثل هذه العهود والمواثيق والكيفية التى التزم بها الفرنجة فى تطبيقها أصبحت أمراً شائعاً منذ غزو صيدا عام ١١١٠م مما يدل على وجود تغيير واتجاه أكثر إنسانية حيال سكان المدن التى يتم غزوها (ص ١٣٧) وإن كان البعض يفسرها على الأقل جزئياً بالدوافع الاقتصادية) كما يدل ذلك على سيطرة القادة الفرنجة الكاملة على رجالهم.

وتتكون المجموعة الثالثة من هؤلاء السكان الذين أدخلوا مدنهم بالكامل خوفاً من غزو الفرنجة وآثروا اللجوء إلى المدن التى رأوا أنها بعيدة عن خطر الغزو. وهؤلاء هم سكان مدن الرملة ١١١٠، أرتاح ١١٠٥، منبج، بالس ١١١٠. ويشير ابن أبى طى إلى أن مجموعة من الحلبيين قد فروا إلى

الجزيرة والعراق بعد غزو طرابلس عام ١١٠٩ (حاشية: يمكننا إضافة مجموعة رابعة إلى هذه المجموعات الثلاث وهي التي أشارت لها مراجع الجنيزا Geniza بالقاهرة والخاصة بمجموعة من يهود القدس. أما اليهود الذين وقعوا في أيدي الغزاة فقد قام إخوانهم في الدين في عسقلان ومصر بتخليصهم من براثن الغزاة)

ونظراً لخلو المصادر من البيانات العددية ولعدم وجود دراسة عميقة للديموجرافية السورية (لعدد ونوعية السكان في سوريا) خلال القرن الحادى عشر فلا يمكننا قياس حجم هذه الهجرة. نضيف إلى ذلك جهلنا بأمر ومصير المسلمين في القرى وعدم معرفتنا إذا كان على شاكلة مصير أهل المدن المحيطة بهذه القرى أم مختلفاً عنها. كل ما يمكننا قوله أن هذه الهجرة الجماعية شملت جانباً كبيراً من السكان المسلمين في سوريا وفلسطين.

ويمكننا إضافة حقيقة لا شك فيها وهي أن هذه الهجرة قد استمرت بعد الربع الأول من فترة وجود الفرنجة وإن كانت بنسب أقل. وهناك حالات كثيرة من حالات الهجرة الجماعية نعرفها غادر فيها السكان قراهم إلى مناطق متاخمة للحدود كما في Besarré في منطقة طرابلس (نهاية الثلاثينيات) وكما في الغرب في جبل بيروت عام ١١٧٠م تقريباً.

أما الهجرة من منطقة نابلس فهي ذات طابع مختلف. ويجدر بنا التوقف قليلاً عندها. فهي من ناحية تزيدنا معرفة بالظروف المعيشية للسكان الأصليين في مملكة الفرنجة ومن ناحية أخرى فلاجئوا نابلس كان عليهم أن يلعبوا دوراً هاماً في الجهاد ضد الصليبيين. وكانت قرى هذه المنطقة قد أظهرت عداءً حيال الفرنجة في زمن غزو المودود عام ١١١٣ والفترة التالية له. أما في منتصف القرن الثانى عشر فقد أضمرت عداءً متزايداً لسادتهم (حاشية: مصدرنا فيما يخص الهجرة ويتعلق بأمرها في نابلس هو ابن طولون، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصليحية، دمشق المجلد الأول، ١٩٤٩،

ص ٢٦-٣٩) والأمـر هنا يتعلـق بالقرى الواقعة فى الجنوب الغربى لنابلس والتابعة لبودان ديبـلين سيربل Sirabel (حاشية: يطلق ابن طولون على هذا السيد تارة «ابن بليان» و«ابن باريزان» وتارة أخرى يطلق عليه بودان أو بودوين. ومن السهل الاستدلال عليه فقـرية «الـجـطـيل» مركز الهـجرة وبعض القرى الأخرى التى يشير إليها ابن طولون كانت تابعة لعائلة ايبـلين. وبالتالى يمكن البحث عن هذا السيد فى هذه العائلة وبين أفرادها ونظراً لكون ايبـلين الأول قد توفى قبل عام ١١٥٥م فالسيد المتواجد وقت الهجرة الجماعية عام ١١٥٦م هو أحد ابنـيه. ولما كان «باليان الثانى» فى هذه الفترة قاصراً فالأرجح أنه الابن الأكبر بودوان الذى ولد عام ١١٣٣ وكان يتولى حكم هذه المنطقة باسم والدته هلفيس دى راما).

وقد فرض عليهم هذا السيد نظاماً قاسياً وظالماً فى المجال الضريبى (فقد بلغت الضرائب فى هذه المنطقة أربعة أضعاف مثيلتها فى المناطق المجاورة) وفى مجال العدالة (تزايدت العقوبات الجسدية) وقد بلغ القهر المجال الدينى عندما اتخذ بودوان إجراءات قاسية ضد فقيه من قرية الجمال يدعى أحمد بن محمد بن قدامى وكان قد نسب إليه إيذاء العمل الزراعى بخطبة يوم الجمعة وما جاء بها خاصة وأن أعداداً غفيرة تحضر لاستماع هذه الخطب. وما نعرفه عن ابن قدامى هو اعتباره وجود المسلمين فى غير بلادهم شيئاً مهيناً وقد أشار إلى ذلك فى خطبه وبين مدى الظلم المجحف الواقع على المسلمين من ناحية الضرائب ومن ناحية العدالة. ورغم معرفة ابن قدامى بنوايا بودوين فقد قرر الهجرة وقد أقنع ذويه وبعض الأسر الموالية له باتباعه.

وقد استغل الفقيه فى ذلك كراهية هذه الأسر لبودوين وإلى أحكام الدين الإسلامى التى ترى وجوب مغادرة المسلم للبلاد غير الإسلامية فى حالة عدم استطاعته ممارسة شعائره الدينية. وأول جماعات غادرت قراها كانت ذات أعداد محدودة وقد ارتحلت سرّاً إبان العام ١١٥٦ إلى دمشق.

وقد أفاض ذوى ابن قدامى فى تفسير هجرته وقد أثرت هذه الهجرة فى بعض الأذهان. ففي العشرين عام التالية ترك سكان ثمان قرى فى المنطقة بلادهم واستقروا فى ضاحية الصالحية بدمشق حيث استقر ابن قدامى ومريده. وهجرة نابلس هذه لها قيمة خاصة وإن كانت لا تمثل إلا حالة من الهجرة الجماعية الإرادية الفريدة. فرغم لوم الشخصيات الكبيرة ومنها على سبيل المثال ابن جبير إلا أن الغالبية العظمى من المسلمين فى الشرق اللاتينى أبت أن تغادر إرادياً ديارها. ولم يكن سكان نابلس هم أول النازحين إلى دمشق. فقد كانت دمشق وكذلك حلب من أكبر مراكز تجمع المهاجرين منذ بداية القرن الثانى عشر. وقد امتصت المدن السورية فى مجملها (بعد استثناء دمشق وحلب وشيزر وحماه) أغلب موجات الهجرة السورية الفلسطينية.

وقد كانت الأعداد المهاجرة إلى الجزيرة والعراق أقل بكثير ومعظم هذه المجموعات من منطقة الرها. كذلك كانت الأعداد النازحة إلى عسقلان ومصر أعداداً بسيطة.

وتنقصنا المعلومات عن مدى استيعاب البلدان المهاجر إليها لهذه المجموعات ويمكننا استقاء بعض المعلومات من مصادر مختلفة تبين لنا حالات المهاجرين من رجال الدين والتجار وجدوا أعمالاً وسبلاً للمعيشة فى البلاد التى هاجروا إليها. إلى جانب هؤلاء هناك أعداداً غفيرة وجدت صعوبات مادية جمّة (هذا إذا أغفلنا الجانب النفسى) نظراً لكونها قد اضطرت لترك بلادها بدون اصطحاب أمتعتها كما حدث فى أرسوف.

وفى الأشعار التى ألفها المهاجرون وفى بعض الرسائل التى وجدت فى الجزيرة بالقاهرة صدى لهذه الآلام والمشقات التى عانى منها المهاجرون.

وتعد الصالحية الحالة الوحيدة المعروفة لدينا عن استقرار المهاجرين بصورة جماعية وإذا كانت هذه المنطقة قد ازدهرت وانتعشت فلا يجب أن

ننسى أن مهاجرى نابلس قد عانوا فى بداية الأمر وظهر ذلك فى ارتفاع نسبة الوفيات.

ورغم قسوة أحوالهم المعيشية فقد استقر المهاجرون فى البلاد الإسلامية بصفة نهائية وأداروا ظهورهم للإمكانيات المقدمة لهم من قبل الفرجة للعودة إلى مساقط رؤوسهم. نستثنى من ذلك بعضاً من سكان مدينة صور القدامى الذين عادوا إلى بلادهم ودافعهم إلى ذلك كما يقول ابن جبير هو حبهم لمدينتهم الأم.

ما هو دور هؤلاء الضحايا المباشرين للغزو الغربى فى الحرب القائمة ضد الفرجة؟ لا يمكننا الجزم بأن المهاجرين قد كونوا بعض قوات حركة الجهاد المناوئة للفرجة فقد كانت هذه القوات من الدمشقيين والحلبيين منذ فترة طويلة وأغلبهم من رجال الدين الذين ليست لهم علاقة بالمناطق المستولى عليها.

ويمكننا القول بأننا نملك العديد من قصائد المهاجرين التى تم تأليفها بعد غزو الفرجة وكلها تدور حول القدر والمصير والأعداء. وهى فى مجملها بكاء على هذا المصير الذى آل إليه الشعراء أنفسهم. وتطفئ أحاسيس الخوف والقلق فيها على المشاعر الأخرى مثال ذلك ما قاله القاضى السابق لمعرة النعمان الذى لجأ إلى حماه: «ما هذا الهم الذى يعترينى؟ أترأه بسبب فقدانى لذوى أم لأموالى؟ أم تراه ابتعادى عن مسقط رأسى وافتقادى لمن يساندنى هنا؟ لا أعرف ماذا أبكى فى كل ذلك؟» ويقول آخر متأملاً منزله وقد تصدع بعد المذبحة التى قام بها الفرجة فى معرة النعمان: «أترأه بيتى ومحل إقامتى أم مأوى ومرعى لحيوانات شرسة مفترسة؟ التفت إلى جدرانته متساءلاً أى حكم ومصير ظالم ذلك الذى أُلِّمُّ بنا؟ ويروى تاجر كان يقيم فى معرة مسرين فى قصيدة له: «أنا من مدينة حكم الله عليها أن تدمر. لقد أفنوا كل السكان ومر حد السيف على رقاب الشيوخ والأطفال على السواء.

ويلاحظ أن الكراهية والعداء اللذان يرد ذكرهما في هذه القصائد لا يأخذان صبغة دينية. ولا يعتبر أى من الشعراء اللاجئين وحتى قاضى معرة النعمان الشافعى العدو كافراً كما لا يدعو أى منهم إلى شن حرباً مقدسة ضده. والقصيدة الوحيدة التى يمكن من خلال أبياتها استشعار أصداء دينية هى قصيدة «المهذب» وهو لاجئ آخر من لاجئى معرة النعمان «يا له من مصير ذلك الذى أصاب آل منطقة الشام. فقد ألم بهم الطاعون وأحاط بهم الأعداء فى آن واحد. لقد أصبحوا شهداء تخترقهم الرماح وتحيق بهم الأوبئة».

وتجدر ملاحظة أن لفظ «شهداء» قد استخدم هنا بمعناه الواسع أى يقتصر هنا على الإشارة إلى الموت المفاجئ وغير الطبيعى كالفقر والطاعون والقتال مع استبعاد الدلالة الدينية.

وحركة الجهاد التى نشأت فى دمشق وحلب فى بداية القرن الثانى عشر لم يدخل اللاجئين إلى صفوفها إلا فى مرحلة متأخرة عندما اتسعت هذه الحركة وتبناها بعضاً من الحكام وأولى الأمر.

ويعد زكى موصول - حلب (١١٢٧ - ١١٤٦م) أحد هؤلاء الحكام وقد التحق بخدمته شاعران هما أبو عبد الله القيصرانى (من قيسارية) وأحمد بن منيد (من طرابلس) وكانا قد هاجرا من مدن ساحلية سورية - فلسطينية عند غزو الفرنجة. وكانا عند الهجرة فى أعمار متفاوتة فعلى حين كان الأول فى السادسة عشرة كان الثانى يناهز الثلاثين. وقد سمح لهما سنهما بإدراك مرارة الاغتراب. وتشير قصائد المديح للزانكى التى كتبها ليس فقط إلى فضائل سيدهما ومساوى الفرنجة وإنما إلى عقيدتهما أيضاً وأهم ما قدماه فى الحرب المقدسة ضد الفرنجة هو إطلاقهما لفكرة وجوب استعادة أراضي الشرق اللاتينى كهدف أسمى للجهاد. وقد دعا إلى ذلك عقب غزو الرها عام ١١٤٤م.

فالقيصراني يقول مثل: «قل للحكام الخونة أن يسلموا بعد الرها كل أراضيهم فهي بلد زنكى».

وأهمية الفكرة ترجع إلى كونها منحى هام وتغيير فى طابع الحرب ضد الصليبيين فحتى هذه الدعوة كانت الحرب بصفة أساسية حرباً دفاعية. ومنذ أعلنت حركة الجهاد عام ١١٤٤م أصبحت حرباً هجومية. وقد ظهرت هذه الفكرة الجديدة وتلخصت فى شعار جديد يدعو إلى تحرير المدينة المقدسة أورشليم وهنا يظهر الطابع الدينى لهذه الحرب.

ويتغنى ابن منير بقوله إن زنكى سيلتفت غداً إلى بيت المقدس. كما يقول القيصراني إذا كان غزو الرها هو اليم فبيت المقدس والساحل هما الشاطئ».

ومن المحتمل أن يكون زنكى بعد غزو الرها هو مطلق فكرة استعادة الأراضى غير أن هذا لا يجعلنا نستبعد تأثير الشاعرين عليه خاصة فيما يتعلق بالأراضى المقدسة بيت المقدس. وقد ظلا حتى مماتهما يناديان بهذه الفكرة خاصة عام ١١٤٦م بعد تولى نور الدين محل والده زنكى.

وقد استمر الشاعران فى خدمة الابن وأطلقا الصيحات والنداءات للحرب المقدسة. وقد مدحا أعمال نور الدين وهاجما البلدان التى رفضت مثل دمشق التنازل عن استقلالها من أجل الوحدة السورية التى كان نور الدين يحاول الدعوة إليها مشيراً إلى كونها الشرط والركيزة الهامة لنجاح الحرب ضد الفرنجة.

إذا كان لم يوجد بين مادحى نور الدين ومن بعده صلاح الدين لاجئين فى الفترة التالية فإننا نجدهم بين دعاة الجهاد الذين لا تحميهم سلطة. وهؤلاء كانوا فى غالبيتهم فروع مختلفة من عائلة بنو قدامى المقيمين فى الصالحية التى أضحت أكبر مركز للدعوة بدءاً من الستينيات. وكان يقوم بالدعوة هناك اثنان من الفقهاء هما موفق الدين بن قدامى وهو

نجل مؤسس هذا المكان أو المركز، وقريب له يدعى عبد الغنى. وقد تمكن الاثنان أثناء حملات نور الدين على مصر حشد الفاطميين وحلفائهم الفرنجة من عقد ندوات قرءا فيها عن العقيدة الدينية لابن بطة وهو كتاب يتميز بالتنديد بالمجذدين (خاصة الاسماعيليين) وبالتركيز على الأهمية الكبرى للجهاد ووضعه في مقام أركان الإسلام الخمسة.

وقد أعادوا قراءة هذا الكتاب في حضرة موفق الدين عشية حملة صلاح الدين على الصليبيين. أما قريبه عبد الغنى فقد كتب إبان حكم صلاح الدين دراسة من نوع فضائل الجهاد الذى قصد أن يقرأ فى الأوساط التقوية فى دمشق وبدلا من الاكتفاء بالدعوة بالقول والكتابة أعطى الفقيهين المثل لمواطنيهم بالتطوع الإرادى فى صفوف جيش صلاح الدين فى حملاته فى الثمانينيات، وتلاههما فى التطوع أربعة علماء من اللاجئين منهم اثنان من بنى قدامى مما أدى إلى الإقبال على عملية التطوع فى سوريا خلال هذه الفترة.

ولم تتراخى الأنشطة الدينية فى الصالحية حتى فى الفترة التى هدأت فيها الحروب المقدسة وهى فترة حكم الأيوبيين. ومن هنا فقد كرس موفق الدين جزءاً هاماً من دراسته فى القانون «الغنى» لتبيان مزايا الحرب المقدسة. بينما كتب ضياء الدين المقدسى وهو أحد أفراد عائلة مواليه دراسة عن الجهاد ودراسة أخرى تمجد أورشليم والأرض المقدسة.

إذا كان نشاط رجال الدين قد ساد وهدم السلطة إبان عهد صلاح الدين فإنه أثناء الحكم الأيوبي قد ناوى السلاطين الذين كانوا يبعون إقامة تسوية ودية مرضية لهم والفرنجة. ومن هنا فالخلاف بين هاتين القوتين يبدو منطقياً ومن غير الممكن تفاديه. وأول صدام بين المعارضة التقوية والسلاطين نشأ عندما اتهم عبد الغنى بن قدامى صراحة حاكم مصر ودمشق «العادل» بالانبغال بالحروب ضد المسلمين وتجاهل القتال ضد الكفار والخائنين.

وقد استمر التقليد الذى أوجده لاجئو نابلس حتى العصر المملوكى الذى شهد ازدهاراً فى روح الجهاد. وقد دفع فخر الدين السعدى وهو من سلالة المشاركين فى الهجرة الجماعية، أهل دمشق للمشاركة فى الحرب التى شنها بيبرس ضد الساحل. وقد شارك شمس الدين بن قدامى وهو ابن شقيق موفق الدين وكبير قضاة دمشق فى الحملات التى قادها بيبرس ضد الصليبيين. وقد أشاد بالجهاد فى التعليق الذى قدمه عن الدراسة الثانية فى القانون التى كتبها عمه. وقد قاد ابنه نجم الدين وهو أيضاً من كبار القضاة، مجموعة من المتطوعين مكونة من أبناء العائلات المهاجرة المقيمة فى دمشق وقد اشتركت هذه المجموعة فى غزو طرابلس عام ١٢٨٩م أحد آخر معاقل الفرنجة.

باستثناء مجموعة البحارة لاجئى المدن الساحلية التى انضمت إلى صفوف البحرية المصرية أثناء غزو صيدا عام ١١٠٩ يمكن القول بأن معرفتنا بالمشاركة الفعلية للمهاجرين فى الحرب المقدسة تقتصر على رجال الصالحية ومن المؤكد أن اللاجئيين قد لعبوا دوراً ما فى عمارة الحدود والدفاع عنها والمبادرة فى هذا المجال ترجع لا إلى اللاجئيين وإنما للحكام.

وكان أولهم زنكى الذى عند استيلائه على معرة النعمان عام ١١٣٦ رد للسكان القدامى ممتلكاتهم. وقد قام ابنه نور الدين باتباع الأسلوب نفسه مع أبناء قدامى السكان فى مدينة عزاز عام ١١٥٠. وقد تم إرجاع الأراضى وفقاً لصكوك الملكية التى كان الملاك القدامى قد حملوها معهم أو طبقاً لسجلات المساحة الرسمية فى حلب أو طبقاً لأقوال الشهود. وهدف هذان الحاكمان واضح للغاية. وهو إبراز طابع استعادة الأراضى الذى اتسمت به حملاتهما إلى جانب إقرار مجموعة من السكان الموثوق بهم على الحدود تدافع عن الأراضى المستردة باستماتة.

وجدير بالذكر أن إعادة الممتلكات هذه قد سببت لزكى خلافاً كبيراً مع بعض رجال الدين كما أحييت خلافاً قديماً كان قد سبب انقساماً حاداً بين فقهاء المسلمين. فالواقع أنه طبقاً للمذاهب الثلاثة (الشافعى والحنبلية والمالكية) فإن أموال المسلمين التى استولى عليها الكفار ترد حين تستعيدها الجيوش المسلمة آلياً إلى ملاكها السابقين من المسلمين باعتبارهم الملاك الشرعيين.

أما بالنسبة للمذهب الحنفى فعلى النقيض من ذلك تعود ممتلكات المسلمين التى سبق للكفار الاستيلاء عليها إلى الحاكم المسلم الذى يمكنه إما الاحتفاظ بها أو تقسيمها بين المقاتلين كغنيمة.

ندرك من ذلك لماذا اضطر زكى الذى كان يتبع المذهب الحنفى ويحيط نفسه بفقهاء من المذهب الحنفى إلى تخطى آراءهم ونصائحهم بالاحتفاظ بأموالك اللاجئين. جدير بالذكر أنه لا يوجد خلاف واضح جاء ذكره فى المصادر بشأن إعادة نور الدين وهو أيضاً حنفى. غير أنه بما أن موقف فقهاء المذهب الحنفى فى هذه الآونة معروف من خلال كتاباتهم بثباته فإن فرضية وجود خلافات بين المحيطين به لا يمكن استبعادها.

وقد اتبع صلاح الدين سياسة الزنكيين فى هذا المجال وأعاد الأراضى إلى أمراء البحرين فى الغرب عام ١١٨٧م.

ويبدو أن مشكلة ممتلكات اللاجئين قد شغلت فيما بعد السلطان الشافعى فقد طلب عام ١١٨٩ رأى العالم الدمشقى الناصح الحنبلى. وقد أثار رد هذا الأخير خلافاً حاداً بينه وبين فقيه آخر من الراجح أنه يتبع المذهب الحنفى. وقد استمر الاهتمام بأمر الممتلكات حتى فى عصر الأيوبيين رغم أن عمليات استعادة الراضى قد توقفت تماماً خلال هذه الفترة. وفى عام ١٢٢٥م أعلن السلطان المعظم وهو من أتباع المذهب

الحنفى القلائل أنه يوافق على ما قام به زنكى. أما السلطان المملوكى بىبرس فبعد استعادة الأراضى فإنه قد انتهج سياسة القرن الثانى عشر. فعند استعادة صفد عام ١٢٦٦م أعاد للسكان القدامى أراضيهـم فى مرج الشعرا مخالفاً بذلك العلماء الذين يتبعون المذهب الحنفى. ويبدو أن شاغله الشاغل كان ملء هذه المناطق بالسكان فى أسرع وقت ممكن.

من هنا يبدو أن اللاجئـين لم يكونوا قوة أولى فى عصر الصليبيين وقد ترجع هذه الحقيقة إلى نقص فى مراجعنا، إلا أنه يجدر القول أن فهم نشاط بعض الشخصيات الرئيسية فى القتال ضد الفرنجة لا يتأتى إلا من خلال إدراك صفتهم كلاجئين. ويعدو وجود اللاجئين كمجموعة اجتماعية شيئاً لا يمكن إغفاله خاصة فى سوريا إذا ما أردنا إيضاح الجوانب الدعائية فى الحرب (واستناداً إلى العقيدة الموجودة فى القدس أو بيت المقدس والخلافات القضائية) وكذلك الحياة الثقافية فى هذا العصر.

الرشوة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام
منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس
(١٠٩٥-١١٨٧ م/٤٨٨-٥٨٣ هـ)

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

يتناول هذا البحث ظاهرة «الرشوة فى المجتمع الصليبي فى بلاد الشام - منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس» أى منذ عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ حين قام البابا إربان الثانى بالدعوة للحروب الصليبية وحتى نجاح صلاح الدين الأيوبي فى استرداد بيت المقدس فى عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ وأعقب ذلك انتقال حاضرة هذه المملكة الصليبية الاسمية إلى عكا فيما بعد وقام مجتمع صليبي له نمطه الجديد. ولاشك أن هذا المجتمع الصليبي فى بيت المقدس خاصة وفى بلاد الشام عامة أصبح له عاداته وتقاليده الاجتماعية التى ميزته عن المجتمع الأوربي السابق، بل أصبح المؤرخون يفرقون بين الصليبيين القدامى والوافدين الجدد «الغرباء». ويقول فوشيه دى شارتر «نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين بمعنى الكلمة»^(١).

وعلى الرغم من ادعاء المصادر اللاتينية بأن الحروب الصليبية هى تكفير لذنوب المشاركين فيها وفرصة لضمان الخلاص يوم القيامة، إلا أن واقع الحال يخالف ذلك تماماً، فقد راود الجميع أحلام الثراء سواء أكانوا من الفرسان الذين يحملون قيم الفروسية أو من الفقراء الذين وقعوا فى شباك الطمع الدنيوى. وسيطرت هذه الأطماع المادية على الجميع وسعوا إلى تحقيقها بشتى السبل والوسائل. لذا شاع استخدام الرشوة فيما بينهم ومع من تعاملوا معه. ويطلق أحد المعاصرين على ذلك بقوله: «وقد خالف هؤلاء الصليبيون تعاليم المسيح باعتراف الجميع وفاق حبهم للمال حبهم للعدل الإلهي»^(٢).

وعندما وصلت هذه الجموع إلى القسطنطينية ازداد هذا الجشع وذلك عندما رأوا أمام أعينهم بريق الذهب والأموال وكنوز بيزنطة الأخرى، وعرف الأباطرة البيزنطيون كيف يتعاملون مع هؤلاء الرعايا فاستعانوا بالمال والهدايا للتأثير عليهم ونجحوا فى ذلك نجاحاً بعيداً. وأدرك السلاجقة أيضاً الأطماع

المادية التى حركت هذه الجموع وتمكنوا من استغلال هذا الفهم فى كثير من المعارك لصالحهم. وتعلق أنا كومنين على ذلك بقولها «لقد كان لرنين المال صدى عجيباً عليهم... وكانت تثيرهم كلمات «الغنائم، والتقسيم»^(٣).

وكلما اقتربوا من الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً كما وعدهم البابا إربان الثانى شاعت بينهم الفكرة «اليوم سنصبح كلنا أغنياء بمشيئة الله»^(٤) وأصبح المثل الأعلى بين قادتهم «من يستطيع الحصول على أكثر فليحصل، ومن يستطيع أن يأخذ أكثر فليأخذ»^(٥) وعقب نجاحهم فى تكوين أول إمارة صليبية لهم فى الرها عام ١٠٩٧م/٤٩٠هـ، استطاعوا الاستيلاء على إمارة ثانية هى إمارة انطاكية فى عام ١٠٩٨م/٤٩١هـ وقد لعبت الرشوة دوراً أساسياً فى قيامها.

أما هذا المجتمع الجديد الذى تكون عقب سقوط بيت المقدس فى قبضتهم عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ فيذكر فوشيه دى شارتر وصفاً له بقوله «والذين كانوا لا يملكون درهماً واحداً هناك - أى فى الغرب - أصبحوا يمتلكون قطع الذهب التى لا تقع تحت حصر... فلماذا إذن نعود إلى الغرب مادام الشرق يفى تماماً برغباتنا ومطالبنا؟»^(٦) وفى ضوء هذه الأطماع المادية انتشرت الرشوة فى تعاملات هذا المجتمع بأقسامه المختلفة، ولعبت دوراً خطيراً فى تقرير كثير من معاركه وأحداثه. وعلى الرغم من ذلك فلم يحظ هذا الموضوع باهتمام المؤرخين الحديثين فى الشرق أو فى الغرب على حد سواء، مع أنه يمس جانباً هاماً من حياة الصليبيين وقيمهم ومثلهم فى المجتمع.

وفى حقيقة الأمر فإنه لا يوجد بحث قائم بذاته تناول هذا الموضوع فى هذه الفترة الزمنية مدار البحث. وكتاب الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرازق عن البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك يقع فى فترة لاحقة تبعد عن الفترة التى أتناولها كثيراً ومع ذلك فقد أفادنا البحث فى بعض الجوانب.

وقد اعتمدت على مصادر الحروب الصليبية سواء العربية أو اللاتينية أو اليونانية أو العبرية لاستخلاص هذه الدراسة مع عقد مقارنة فيما بينها بغية الوصول إلى دراسة وافية لهذه الظاهرة وبهدف الوصول أيضاً إلى الحقيقة التاريخية في هذا الموضوع.

وأخيراً أرجو من الله أن أكون قد وفقت في تقديم دراسة جديدة تتناول الأبعاد الاجتماعية لهذا المجتمع من خلال دراسة هذه الظاهرة والتي لاشك أنها كانت أحد العوامل التي أدت إلى انهياره.
والله الموفق.

محبتون حسن محمد الوهاب حسين

أطلق المؤرخون اللاتين مصطلحات متعددة على الرشوة. فقد ذكر ريمونداجيل «الرشوة» مباشرة عندما اتهم المبعوثين اللاتين بأنهم تلقوا «رشوة» من الامبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين^(٧). أما المؤرخ وليم الصورى فقد استخدم نفس الكلمة فى مناسبات كثيرة، وأوردها أيضاً بمعنى «الهدايا والهبات»^(٨) وأورد ألبرت داكس «الهدايا والوعود الجزيلة» للدلالة على الرشوة أيضاً^(٩). وكذلك فى الوثائق اللاتينية الأخرى^(١٠). وفى وثيقة رقم ٨٣ التى نشرها رورشت ورد مصطلح لاتينى آخر للرشوة هو Pollutus Sit بمعنى «أفسدت ذمته»^(١١) واستخدم وولتر ماب رئيس شمامسة أوكسفورد والكاتب الساخر تعبيراً آخر كناية عن دفع الأموال والرشوة فيقول «إن اللىدى بيرس Lady Purse - أى محفظة النقود - هى التى غزت روما»^(١٢) وذلك عندما هاجم قرارات المجمع الكنسى الثالث فى عام ١١٧٩م^(١٣). أما شراء المناصب الدينية عن طريق الرشاوى فقد أطلق عليه «السيمونية» وهى نسبة إلى سيمون الساحر اليهودى الذى أراد شراء هبة الخوارق والإتيان بالمعجزات من القديس بطرس فقال له «لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم»^(١٤).

أما الوصول إلى المناصب الدينية فى الكنيسة الشرقية فقد استخدم فيه مصطلح آخر للدلالة عليه وهو «الشرطونية» فيذكر ابن لقلق «كيرلس الثالث» «وكان من الأساقفة من يزن المائتى دينار وأقل إلى الماية دينار والفقير والصاحب خمسين دينار...» وكانت قضية مستنكرة إلا أنها قد شاعت وذاعت وعرفت وألفت^(١٥).

وأوردت مصادرنا العربية المصطلح بمعان عديدة، فذكره سبط ابن الجوزى بقوله «أخذ الرشاش»^(١٦)، وكذلك العماد الكاتب «فكل من رشا مشا»^(١٧)، واستخدم ابن النديم لفظ المصانعة «فصانعوه على مال». «وصانعه واليهما على سبعة آلاف دينار» وهو كناية عن الرشوة^(١٨). وارتبط أيضاً

مصطلح آخر بالرشوة وهو العطايا والهدايا، فيقول أبو شامة «السلطان يكرمها ويهدى إليها أنفس الهدايا»^(١٩)، وابن واصل «وواصله بالهدايا والتحف»^(٢٠). ويعتبر صلاح الدين تقديم الرشوة نوعاً من الخضوع فيقول «بلغنى حديث الهدية المؤذن بذل الإسلام»^(٢١)، وارتبط بنفس المعنى الوعود «وعدهم بالعطاء الجزيل»، «فوعدهم الوعود الجميلة»^(٢٢). وهذه المعانى وغيرها دلت من سياق الأحداث التاريخية على الارتباط المباشر بمعنى الرشوة والتي سنلاحظها عبر صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى.

أما موقف الإسلام من الرشوة فهو واضح تماماً، بل إن رسول الله ﷺ لعن الثلاثة: الراشى والمرتشى والرائش أى الوسيط بينهما^(٢٣). وفى سفر أعمال الرسل رفض بطرس الرشوة، ولكن الكنيسة عانت معاناة خطيرة من هذا الداء الخطير الذى أدى إلى وصول كثير من الفاسدين إلى المناصب الدينية المختلفة، وقبل قيام الحروب الصليبية بذل البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) كل ما فى وسعه لتخليص الكنيسة ممن وصل إلى منصبه عن طريق السيمونية أو الرشوة. أما بعد قيام الحروب الصليبية فظلت المشكلة قائمة لاستغلال الإمبراطور لهؤلاء المفصولين للبقاء إلى جانبه فى صراعه ضد البابوية إلى أن تم عقد اتفاقية ورمز فى عام ١١٢٢ م وبموجبها تم حل هذه المشكلة^(٢٤)، أما فى قوانين الجماعات الرهبانية العسكرية فهناك تفاوت فى عقوبة المرتشى بينها. فلدى جماعة الداوية يعاقب «بالطرد من الجماعة» وفى الاسبتارية «فقدان الرداء» أما الجماعة الألمانية فتراوحت بين العقوبتين وذلك «إذا اقترف الأخ نفسه الرشوة أو تسبب فى إدخال شخص آخر يدخل إلى الجماعة من خلالها»^(٢٥) وبالرغم من ذلك يعترف أحد مؤرخيهم بأنهم خالفوا تعاليم المسيح (عليه السلام) وفاق حبهم للمال حبهم للعدل الإلهي^(٢٦).

عقب دعوة البابا إريان الثانى للحملة الصليبية لم تنتظر جموع الرعايا والفلاحين وغيرهم الموعد الذى حدده فى خطبته، واندفعت تلك الجموع فيما عرف بالحملة الشعبية وذلك فى أبريل ١٠٩٦م متجهة صوب الأرض التى تفيض لبنًا وعسلًا. وكانت بقيادة والتر المفلس ويطرس الناسك حيث وصلت إلى القسطنطينية. وعلى الرغم من نصائح الإمبراطور البيزنطى الكسيس كومنين لهم إلا أنهم لم يلتزموا بها وأعماهم الطمع والجشع، وأدرك السلاجقة هذه الطبيعة فى هؤلاء القوم فأشاعوا بينهم أن زملاءهم قد استولوا على نيقية وأنهم مشغولون بتقسيم الذهب والأموال وغيرها من الكنوز. وتعلق أنا كومنين على ذلك بقولها إن السلاجقة كانوا يعرفون «مدى حبهم للمال» وكيف أن كلمات الغنائم والمال والأنصبة تربكهم لمجرد سماعهم بها^(٢٧). فاندفع هؤلاء للحصول على نصيبهم من الثروة وكانت نهايتهم المفجعة عند نهر دراكون فى أكتوبر ١٠٩٦م/ شوال ٤٨٩هـ وذلك لجشعهم وطمعهم^(٢٨).

تحركت الحملة النظامية فى حوالى ١٥ أغسطس ١٠٩٦م/ ٢٢ شعبان ٤٨٩هـ وذلك على عدة أقسام حسب التقسيم اللغوى والجنسى والاقطاعى. وسرت شائعة فى أوروبا بأن هذه الجموع سوف تنتقم من اليهود وتهدر دمهم، فسارعت الجاليات اليهودية فى المدن المختلفة بتقديم رشاوى إلى قادة هذه الحملات، وقدرها ألبرت داكس بخمسمائة قطعة من الفضة وهدايا عينية أخرى^(٢٩). أما رالى سميث فيعتقد بأن موظفى الأبرشيات من سكان المدن هم الذين حصلوا على هذه الرشاوى لتقديم الحماية لليهود ولكنهم لم يقدرُوا على ذلك أمام الجشع الصليبي لابتزاز هؤلاء اليهود^(٣٠).

كان ذلك أول اتهام بالرشوة، ويوجه ريمونداجيل اتهاماً آخر للمبعوثين الصليبيين الذين أرسلهم ريموند الصنجيلي لمقابلة الإمبراطور البيزنطى، فيذكر أنهم عادوا بوعود وردية وكان السبب فى ذلك هو «رشوة الإمبراطور

لهم» وذلك فى ١٨ أبريل ١٠٩٧م^(٣١). وربما يكون هذا الاتهام صحيحاً فقد وجد الكسيس نفسه أمام حشود هائلة يدفعها الجشع والطمع فقرّر استخدام سلاح المال والرشوة معاً، وعندما وصل هيوكونت فرماندوا - أخو ملك فرنسا - أغدق عليه «الهدايا» ليقسم يمين الولاء له^(٣٢). أما جودفرى فقد أهده «ثياب حريرة ومؤن وخيول» وشارك الإمبراطور فى مأدبة فاخرة أعدت له وأمر بأن يتم توفير الإمدادات اللازمة له^(٣٣). كذلك أدرك نفسية بوهمند النورماندى فأمر بأن يدخل إلى غرفة مليئة بكل أنواع الثروات من ملابس وذهب وفضة وغيرها حتى أنها لم يبق فيها موضعاً لقدم ووهب له جميع ما فيها، وعلى الرغم من تردد بوهمند الذى كان يخشى البيزنطيين وهم يقدمون الهدايا - إلا أن الرشوة أثمرت وأقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى^(٣٤).

وتؤكد المصادر الأخرى رواية المؤرخة البيزنطية، فيذكر ألبرت داكس أنه تم إحضار هدايا من كافة الأنواع من خزانة الإمبراطور: ذهب وفضة وكل ما له قيمة، إضافة إلى الخيول وغيرها^(٣٥) ويؤكد الكونت آتين فى خطابه إلى زوجته أن الإمبراطور غمر الجميع بالهدايا والمنح، وكذلك فعل مع فرساننا، وأطعم جميع الفقراء^(٣٦). وقد أدركت أن كومنين أن والدها عرف طباع هؤلاء القوم - فكانت الرشوة هى السبيل إلى قلوبهم وعقولهم «وبهذه الطريقة ومن خلال المال والنصيحة الطيبة، بذل الكسيس الكثير لكى يهذب من طبيعتهم الشرسة»^(٣٧).

وبعد أن نجح الإمبراطور البيزنطى فى الحصول على قسم الولاء من هؤلاء القادة، عمل على أن ينفذ الجزء التالى من خطته وهى استرداد المدن البيزنطية التى كانت تابعة له فى آسيا الصغرى وبلاد الشام، فاستمر فى استخدام الرشوة، فقد وعد بإعطاء الصليبيين جميع ما فى نيقية من ذهب وفضة وخيول وغيرها، وسيعطى كل فرد بسخاء مما يجعلهم يتمنون خدمته

مدى حياتهم...^(٣٨) كانت هذه رشوة الإمبراطور أمام نيقية قبل حصارها فى ٦ مايو ١٠٩٧ م. ويعلق ريمونداجيل على ذلك بأن الإمبراطور تصرف بعدها بجحود واتهمه بالخيانة^(٣٩). ويخالف كثير من المؤرخين اللاتين ريمونداجيل معترفين بأن الكسيس غمرهم بالهدايا والأموال والذهب والفضة والثياب ووزع قطعاً من النحاس على المشاة^(٤٠). وسقطت نيقية فى أواخر يونيو ١٠٩٧ م بعد أن نجح الإمبراطور أيضاً فى رشوة عدد من الأتراك بها ووعدهم «بمبالغ كبيرة من المال والمكافآت والعطايا السنوية»^(٤١).

ومرة أخرى ينجح الإمبراطور البيزنطى فى الحصول على قسم الولاء من بوهمند ومن القادة بعد أن رشاهم بالأموال، خاصة بوهمند الذى كان لديه شهوة جامحة نحو المال^(٤٢) وكانوا جميعاً على استعداد لبيع زوجاتهم وأطفالهم مقابل أي مبلغ زهيد من المال^(٤٣).

وعقب معركة ضورليوم فى أول يوليو ١٠٩٧ م بدأت أطماع القادة الصليبيين فى الازدياد وأخذ كل منهم يخطط من أجل تحقيق مصالحه الشخصية وانفصل بلدوين عن الجيش الرئيسى حيث توجه إلى الرها التى كان يحكمها ثورس الأرمنى، وعلى الرغم من تبنيه لبلدوين إلا أن ذلك لم يشفع له حيث وجهت إليه تهمة رشوة الأتراك للتخلص من معارضيه - وعبثاً حاول الاستغاثة ببلدوين وقدم إليه رشوة من «مرمر وآوان ذهبية وفضية ونقود لا تحصى» إلا أنه تم اغتياله. ويوجه البعض اتهاماً إلى بلدوين بالاشتراك مع زوجة ثورس للتخلص منه لكى ينفرد بحكم الرها^(٤٤).

أخذت الغيرة تشتد بين الأمراء الصليبيين بعد نجاح بلدوين فى إقامة أول إمارة صليبية فى الرها، وازدادت الصراعات فيما بينهم أمام أنطاكية التى وصلوا إليها فى أكتوبر ١٠٩٧ م. وعقب نجاحهم فى الاستيلاء على أحد الحصون المؤدية إليها عرض ريموند الصنجيلى رشوة على الفرسان ليقبلوا حمايته لها وتشيد قلعة المحمية أو المنبر وذلك فى ٢٠ مارس ١٠٩٨ م.

وأثناء ذلك لم يسلم حتى شهداء المسلمين من جشع الصليبيين الذين اندفعوا إلى هذه القبور يبحثون عن الذهب والأموال وغيرها من الكنوز المدفونة فيها كما يدعى تيدبوده^(٤٥).

وكما نجح بوهمند في تدبير مؤامراته للتخلص من القائد البيزنطي تاتيكوس لكي ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية، فقد سعى لكي تكون أنطاكية له دون بقية الأمراء الطامعين^(٤٦). ووجد ضالته المنشودة في ذلك الخائن فيروز الأرميني الذي كان يتولى حراسة برج الأختين^(٤٧) وأجمعت المصادر على أن بوهمند رشا فيروز ولكنها اختلفت في هذه الرشوة، فيذكر تيدبوده «أملاك كثيرة»^(٤٨) ويضيف وليم الصوري «وامتيازات واسعة» له ولورثته^(٤٩) أما كفارو الجنوى فيشير إلى «هدايا نفيسة من الثياب الفاخرة والأواني الذهبية والفضية»^(٥٠) وتتفق المصادر السريانية مثل المؤرخ السرياني المجهول وميخائيل في خيانة فيروز ورشوته^(٥١). أما مصادرنا العربية فنجد ابن الأثير يحدد أنهم «بذلوا له مالا وإقطاعاً»^(٥٢). ويذكر ابن العديم أن فيروز هو الذي طلب ذلك دون أن يحدد ما طلبه «أنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطينتني كذا وكذا»^(٥٣).

واختلفت المصادر حول الدافع الذي جعل فيروز يقبل الرشوة، فيذكر ابن القلانسي أن ذلك يرجع إلى مصادرة ياغي سيان حاكم أنطاكية السلجوقي لأموال وغلة فيروز^(٥٤)، وينقل ابن العديم نفس الرواية^(٥٥). أما وليم الصوري فيذكر رواية مختلفة مفادها أن ذلك يرجع إلى خيانة زوجة فيروز ورآها ابنها الذي نقل ذلك إلى والده فعمل على الانتقام من الأتراك^(٥٦). وإلى جانب انفراده بهذه الرواية التي لم ينقلها أحد من المعاصرين، فإن وليم يذكر القصة بعد أن بدأت الاتصالات بين بوهمند وفيروز، وفي النهاية نجحت خطة بوهمند واستطاع تحقيق هدفه المنشود باقتحام أنطاكية في ٣ يونيو ١٠٩٨م / ١ رجب ٤٩١هـ وذلك عن طريق

الرشوة ودون خسائر كبيرة مما كان له أكبر الأثر على مواصلة تقدمهم ومواجهة رد الفعل الإسلامى.

لم يتبق سوى قلعة أنطاكية التى أصبحت فى حوزة أحمد بن مروان أحد أتباع كربوغا، وقد اختلفت المصادر حول موقفه، فبينما تدعى المصادر اللاتينية أنه تمت رشوته هو الآخر وتنصر هو وجماعة معه وسمحوا للباقي بالخروج (٥٧). أما ابن العديم فيذكر أنهم أنزلوه فى دار بأنطاكية وخرج بقية أصحابه إلى حلب فخرج عليهم الأرمن ولم يسلم منهم إلا القليل (٥٨). وتشير المصادر العربية المتأخرة زمنياً أنه كان ضمن الذين خرجوا من أنطاكية ولم يتنصر ويشير إلى ذلك كل من ابن شداد وابن عبد الظاهر «وسلم أحمد ودخل حلب» (٥٩).

ظل الصليبيون فى أنطاكية حيث بدأوا فى مغادرتها فى ٢٣ نوفمبر ١٠٩٨م لتحقيق أطماعهم وفى ٤ يناير ١٠٩٩م عقدوا اجتماعاً فى قلعة الراج قدم فيه ريموند رشاوى للقادة الآخرين تراوحت ما بين عشرة إلى خمسة آلاف صولدى حسب مكانة كل منهم. وكان من بين الرشاوى أيضاً جوادين عربيين من سلالة ممتازة قدمها إلى تانكرد. ويشير رانسيما أن ذلك كان رشوة لهؤلاء القادة، بينما يبررها جروسيه بأن ريموند كان يطمع فى نيل المساعدة من زملائه (٦٠).

انهالت الرشاوى على الصليبيين فى أثناء توجههم نحو بيت المقدس، فقدمت مدن شيزر وحماه وحمص أنواعاً مختلفة من الهدايا مثل الذهب والفضة والحيوانات إضافة إلى إقامة أسواق لبيع ما يحتاجون إليه من مؤن وإمدادات وكذلك أدلاء لعبور نهر العاصى (٦١) ونصح البعض ريموند الصنجيلى أن يتظاهر بحصار أحد الحصون حتى يحصل على رشاوى أيضاً. فقرر محاصرة عرقة الواقعة على بعد ١٥ ميلاً من طرابلس. ووصلت الأخبار إلى جودفرى وروبرت كونت فلاندرز اللذين سارعا بحصار جبلة.

فحاول حاكمها رشوتهما بحوالى ستة آلاف قطعة ذهبية وخيول وبغال وكميات وفيرة من النبيذ، ولكن جودفرى رفض ذلك فرض الرشوة على ريموند بأن أرسل إليه رسلا إذا نجح فى إقناع زملائه بفلك الحصار. ويترك وليم الصورى الأمر معلقاً لأنه يذكر «ويقال» أن الكونت قبل الرشوة سرّاً فأرسل إليهما بأن هناك جيشاً إسلامياً على وشك الوصول إلى جبله فتم رفع الحصار وذهبا إلى ريموند عند عرقة وعندئذ أخبرهما تانكرد بأمر خيانة ريموند وبالقصة كاملة. وكان ذلك فى ٢-١١ مارس ١٠٩٨م (٦٢).

وبعد أربعة أشهر تقريباً من حصارهم لعرقة قرر ريموند بعد الضغط عليه الاستجابة لآراء القادة الآخرين بضرورة ترك الحصار والانسحاب فى ١٣ مايو ١٠٩٩م (٦٣). وأثناء ذلك كان مبعوث الإمبراطور البيزنطى قد وصل فى ١٠ أبريل ١٠٩٩م محالوا تقديم رشوة جديدة للصليبيين، فقد عرض عليهم تحمّل الإمبراطور جميع أعباء الحرب ونفقاتها، ومنحهم هدايا كثيرة وأجور سخية ومبالغ كبيرة من الذهب والفضة وذلك إذا تم انتظاره لكى يعبر معهم إلى بيت المقدس فى أواخر يونيو ١٠٩٩م (٦٤)، وأبدى ريموند موافقته، ولكن القادة الآخرين عارضوا ذلك ومن بينهم جودفرى وقرروا مواصلة المسير إلى القدس دون انتظار الإمبراطور.

وأمام طرابلس جرت محاولات جديدة لرشوة الصليبيين من فخر الملك ابن عمار حاكمها - فقد ذكر تيدبوده أنه أرسل عشرة من الخيول وأربع بغال ومبلغاً من المال دون أن يحدده (٦٥)، ويؤكد وليم الصورى ذلك مناقضاً ما سبق أن اتهم به ريموند الصنجيلى من أنه أشاع وصول القوات الإسلامية لكى يجعل جودفرى وروبرت يقدمان إليه عند عرقة. فقد ذكر أن اتفاقاً نهائياً تم مع حاكم طرابلس بعد أن فشل وصول القوات إليه من خليفة بغداد مما يؤكد وجود هذه الأخبار. وتم عقد هذا الاتفاق مقابل رشوة ضخمة تضمنت تقديم ١٥ ألف بيزنط وخيول وبغال وملابس وإطلاق

سراح الأسرى فى مقابل عدم تعرض مدن طرابلس وعرقنة وجبلنة لأية أخطار^(٦٦).

استمرت المدن الفاطمية فى تقديم الرشاوى للصليبيين أثناء تقدمهم إلى بيت المقدس، فقدمت لهم بيروت وصيدا وعكا وقيسارية وأرسوف هدايا عديدة، ومنها ما قدمه حاكم عكا «سوق حسب شروط جيدة»^(٦٧) وحاولت هذه المدن إبعاد خطر الهجوم عليها، ولكنها أيضاً كانت تحذر بعضها من هذا «الجنس الفظ» كما وصفهم حاكم عكا فى رسالته^(٦٨).

انتهت هذه الحملة الصليبية الأولى بالاستيلاء على بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م/ ٢٤ شعبان ٤٩٢هـ لتسطر واحدة من أبشع الجرائم التى تمت فى هذه المدينة المقدسة. ويعترف المؤرخون اللاتين أنفسهم بهذه المذابح التى لم ينج منها حتى النصارى الشرقيين الذين كانوا بها. فقد أعمى الجشع والطمع تلك الجموع، ولم يسلم حتى الموتى من ذلك، ويعترف فوشيه دى شارتر وراذلف أوف كين بأنهم قاموا بإحراق الجثث بحثاً عن الحلى أو المجوهرات وقطع آذان السيدات لأخذ ما بهن من ذهب^(٦٩).

وهكذا لعبت الرشوة دوراً خطيراً فى إحداث هذه الحملة منذ خروجها من أوروبا متجهة إلى بيت المقدس، وساهمت فى كثير من وقائعها وأظهرت طبيعة هؤلاء القوم فيما بينهم وفى تعامل الآخرين معهم سواء من البيزنطيين أو السلاجقة أو حكام المدن الفاطمية مدركين جميعاً أنهم يمكنهم عن طريق الرشوة بأنواعها المختلفة شراء هؤلاء القوم، وذلك على الرغم من ادعاءات المصادر اللاتينية وتصوير هذه الحملة بأنها تمثل التضامن والتلاحم فى الصراع من أجل المثل الدينية العليا، بل وإسباغ المثل العليا على قادتها - إلا أن ما قدمته لنا المصادر المختلفة يوضح كيف تغلب عليهم الطمع

المادى والجشع، وتصدعت تلك الصور الزائفة أمام بريق الذهب والفضة والهدايا الأخرى. ولاشك أن ذلك سوف ينعكس على هذا المجتمع الذى تكون فى الأراضى المقدسة سواء فى مملكة بيت المقدس أو فى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس.

كان أول اتهام بالسيمونية - أى الوصول للمنصب الدينى بالرشوة - يوجه فى الأراضى المقدسة إلى دايمبرت البيزوى الذى تم اختياره بطريركاً لبيت المقدس فى عام ١١٠٠م، ويوجه ألبرت داكس هذا الاتهام له وذلك عندما استخدم الأموال التى كان قد استولى عليها أثناء وجوده مندوباً بابوياً عند ألفونسو السادس القشتالى فى عام ١٠٩٨م^(٧٠). ولم تنته مشاكله عند ذلك، بل تأزم الموقف مرة أخرى مع الملك بلدوين الأول الذى اصطدم مع البطريرك ووجه إليه اتهامات عديدة بحضور المندوب البابوى الكاردينال موريس أسقف بورتو الذى قدم إلى الشرق لهذا الغرض. وصحب بلدوين فى رحلته إلى القدس وضمن تأييده لسياسته. وعندما أصر بلدوين على موقفه شرع دايمبرت «يغريه ويرجوه ألا يعفيه من منصبه وهمس فى أذنه بتقديم رشوة مالية له»^(٧١) كما وافق على دفع رواتب أربعين جندياً، ولكن عندما ماطل فى تنفيذ وعوده قرر بلدوين عزله وتم إجبار مساعديه على الكلام فأقروا بوجود أموال تتراوح ما بين ٢٠ - ٣٠ ألف بيزنط بخلاف الفضة التى يصعب وزنها. وأخذ الملك هذه الأموال ووزعها على جنوده، ولم ينجح دايمبرت فى العودة على الرغم من صدور قرار بابوى له بذلك، فقد مات فى مسينا بإيطاليا فى يونيو ١١٠٧م^(٧٢).

حرصت المدن الفاطمية على تقديم رشاو مختلفة لبلدوين ملك بيت المقدس حتى تبعد خطره عنها، وتنوعت ما بين القمح والفواكه والزيت والجياذ العربية الأصيلة وذلك إضافة إلى الأموال^(٧٣). وربما كانت رشوة حاكم قيسارية لجودفرى قد أودت بحياته، فقد اتهمه المؤرخ متى الرهاوى

بأنه دس السم فى طعام قدمه هدية له، فمات ومعه أربعين شخصاً. وعلى الرغم من أن بقية المصادر لا تؤكد هذه الرواية فقد أشار ألبرت داكس أنه قدم لهم طعاماً بالفعل ولم يأكل جودفرى سوى تفاحة ومرض بعد ذلك^(٧٤). وقبل بلدوين أثناء رحلته من الرها إلى بيت المقدس هدايا قدمتها له المدن التى مر بها من الخبز والخمر والعسل وأكباش الضأن المطهية وذلك لضمان عدم عدوانه عليها. كما وافق بعد اعتلائه العرش على رشاوى أخرى قدمت له وذلك لحاجته إلى الأموال فى بداية حكمه^(٧٥). واستمر بلدوين فى سياسته الابتزازية للحصول على رشاوى من هذه المدن إذا لم ينجح فى الاستيلاء عليها فعند حصاره لصور فى عام ٥٠١هـ/١١٠٨م «صانعه واليها على سبعة آلاف دينار» فقبضها ورحل عنها^(٧٦). وكذلك قدم له حاكم صيدا رشوة تراوحت ما بين ألفى إلى ستة آلاف دينار ومحاصيل من الكروم وذهباً وذلك لكى يفك حصاره عنها^(٧٧) أما موقف حاكم عسقلان - شمس الخلافة - من دفع رشوة لبلدوين «وأهدى إليه مالا وعروضاً» «واتفقا على مال» فقد أثارت المصادر العربية ذلك واتهمه المؤرخون بأنه كان «أميل إلى المودة والمسالم» «وأرغب فى التجارة من المحاربة». وعلى الرغم من أخذ بعض المراجع الحديثة برأى هذه المصادر العربية، إلا أن هناك إشارة هامة أوردها فوشيه وألبرت عندما ذكرا أن الأسطول النرويجى رسا عند يافا وكانت هناك نية الزحف ضد عسقلان فلجأ حاكمها إلى استخدام الرشوة مع الملك الصليبي مما أنقذ المدينة من السقوط فى قبضة الصليبيين لأكثر من نصف قرن من الزمان تقريباً^(٧٨).

ونهبجت صور نفس النهج السابق فقدمت لبلدوين سبعة الاف قطعة ذهبية. وفى الحصار الذى امتد من ٢٩ نوفمبر ١١١١م إلى ١٠ أبريل ١١١٢م ٢٥/ جماد أول - ١٠ شوال ٥٠٥هـ يذكر ألبرت داكس أن أهالى صور لجأوا إلى فارس صليبي اسمه رنفريد Reinfried لتأمين عبور

قافلة لهم تحمل ودائعهم وأموالهم وذلك مقابل رشوته بمبلغ كبيرة من المال. ولكن الفارس قام بإخبار بلدوين الذى انقض على القافلة واستولى على ما بها من غنائم^(٧٩). وفى الواقع فإن رواية ألبرت هذه فيها مبالغة واضحة ففوشيه دى شارتر - وقد ذكر صراحة أنه كان مع الملك الصليبي فى هذه الحملة - لم يشر إلى هذه القصة^(٨٠)، كما أنها تختلف مع روايتين لابن الأثير وابن القلانسي، فذكر الأول أن عز الملك صاحب صور أرسل أموالا إلى طغتكين أتايك دمشق الذى أرسل إليه طائراً يعلمه بوصوله مما ينفى رواية ألبرت عن اللجوء إلى الفارس الصليبي، أما ابن القلانسي فذكر أنه فى عام ٥٠٦هـ/١١١٢م وصلت أنباء قافلة دمشقية متجهة إلى مصر وذلك عن طريق أحد العرب من بنى زريق الذى وقع بعض أفراد أسرته أسرى لدى الملك الصليبي فدلّه عليها مقابل إطلاق سراحهم^(٨١).

ويشير وليم الصورى إلى أنه أثناء حصار صيدا فى عام ١١١٠م/٥٠٤هـ حاول أهلها رشوة أحد أفراد حاشية الملك بلدوين «ووعده بمبلغ كبير من المال وممتلكات واسعة فى المدينة» إذا خلصهم من الملك، ولكن النصارى بها أخبروه بهذه المؤامرة وأعلموه سراً بالأمر فقام بالقبض عليه وتمت محاكمته وحكم عليه بالشنق^(٨٢).

ومن أهم المؤثرات التى تركتها الرشوة فى هذه الفترة المبكرة على حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، مقتل شرف الدين مودود بن ألتوتتكين^(٨٣) ويذكر متى الزهاوى وابن العبرى أن ظهير الدين طغتكين، أفرج عن قاتل محكوم عليه بالإعدام ووعده «بالحرية والهدايا وخمسمائة قطعة من المال» إذا نجح فى مهمته^(٨٤)، ويذكر ألبرت داكس نفس الاتهام ولكنه جعلهم أربعة وعدهم «بالهدايا والوعود الجزيلة»^(٨٥) ولكن المصادر اتفقت على أن شخصاً واحداً هو الذى قام بهذه الجريمة الشنعاء وذلك بتحريض من طغتكين الذى خاف أن ينتزع منه مملكته^(٨٦) وكان مقتله فى ربيع ثان ٥٠٧هـ/أكتوبر ١١١٣م.

أما في شمال الشام فقد حاول الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الانتقام من بوهمند أمير أنطاكية وذلك عندما وقع الأخير في قبضة الملك غازي كمشتكين في أغسطس ١١٠٠م / رمضان ٤٩٣هـ، وعرض الإمبراطور رشوة قدرها مائتين وستين ألف دينار لتسليمه بوهمند، ولكن الأمراء الصليبيين سارعوا بالتدخل، كما نجح بوهمند في إقناع غازي بالتحالف معه وأطلق سراحه^(٨٧)، وجاء إطلاق سراحه وبالا على المسلمين قد قويت به نفوس أهل أنطاكية، كما وقع الخلاف بين الملك غازي وقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وتفككت بذلك جبهة الأتراك في آسيا الصغرى^(٨٨).

كذلك مارست المدن الشامية في الشمال دفع الرشوة للصليبيين لإبعاد خطرهم عنها، فقد دفعت حمص رشوة مالية لريموند الصنجيلي في رجب ٤٩٦هـ / أبريل ١١٠٣م لكي يفك حصاره عنها، فقبل ذلك بعد أن وصلتته أنباء قرب وصول قوات دقاق أتابك دمشق لإنقاذها^(٨٩). وعقب إطلاق سراح بوهمند قام بسلسلة من الإغارات على المدن الشامية مما اضطر كثيراً منها إلى دفع رشوة له لتبعد خطره عنها ولكي يعوض ما دفعه ثمناً لحريته. وحصل من المسلمية - الواقعة على طريق حلب وتبعد عنها أحد عشر كيلومتراً - على سبعة آلاف دينار وعشرة من الخيول وإطلاق سراح عدد من الأسرى^(٩٠). أما وليم جوردان الذي خلف ريموند الصنجيلي بعد موته في ٢٨ فبراير ١١٠٥م / ١١ جماد آخر ٤٩٨هـ فقد استمر على سياسة سلفه الرامية إلى محاولة الاستيلاء على طرابلس. وفي أثناء حصاره لها قام اثنان من تجارها بخيانة فخر الملك ابن عمار وكانت المدينة تعاني من المجاعة بسبب الحصار الصليبي لها. وكذلك فقد رفضا تقديم العون لابن عمار في إزالة ذلك الحصار، فحاول رشوة ريموند لإعادتهما ولكنه رفض فأرسل ابن عمار وراءهما من قام باغتيالهما^(٩١).

وبالإضافة إلى العوامل التي أدت إلى فشل بوهمند في حملته ضد بيزنطة في عام ١١٠٧م/٥٠١هـ يضيف ألبرت داكس عاملاً آخر، هو نجاح الكسيوس في إغراء عدد من قادة جيش بوهمند حيث أفسدت نفوسهم «أموال وهدايا الإمبراطور» فتحولوا عنه وخانوه «وأعمتهم إغراءات الإمبراطور وخطفت أبصارهم كميات الذهب والفضة» وانتهت هذه الحملة بعقد معاهدة ديفول في عام ١١٠٨م/٥٠٢هـ^(٩٢).

لعبت الرشاوى دوراً آخر في شمال بلاد الشام، فقد أدت إلى قيام تحالف جمع بين نقيضي الصراع. فقد تحالف تانكرد (١١٠٤-١١١٢م) ورضوان حاكم حلب معاً ضد بلدوين سيد الرها وجوسلين صاحب تل باشر وجاولي حاكم الموصل، وعرض جاولي على بلدوين إطلاق «ما بقى عليه من مال المفاداة»^(٩٣) كما أطلق الأخير من جانبه «سراح مائة وستين أسيراً مسلماً كلهم من سواد حلب وكساهم وسيرهم»^(٩٤). أما الحلف الأول فنجد أن تانكرد نكث بوعده لرضوان وحاصر الأثارب وعبثاً حاول حليفة رشوته بعشرين ألف دينار لكنه رفض وطالب بثلاثين ألف بخلاف الثياب والخيول وإطلاق سراح جميع من في حلب من أسرى الصليبيين^(٩٥)، وكان ذلك في عام ١١١٠م/٥٠٤هـ.

انهالت الرشاوى على تانكرد عقب استيلائه على الأثارب، فأخذت العديد من المدن تدفع له الأموال، فقد دفع له ابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار، وعلى الكردي صاحب حماه ألفي دينار^(٩٦). ولم يكن أمام العرب من خيار في تلك الفترة سوى اللجوء إلى الذهب لكبح جماح الفريخ كما يذكر ابن العبري^(٩٧). وفي ٩ محرم ٥٠٥هـ/ ١٨ يوليو ١١١١م توجه شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمد ديل الكردي صاحب مراغة في أذربيجان وغيرهما إلى جهاد الصليبيين، وحاولوا استرداد تل باشر، وعندما أشرفت المدينة على السقوط، لجأ جوسلين إلى استخدام الرشوة

لإنقاذها فذكر ابن القلانسي أنه استمال أحمدبيل «بمال وهدية»^(٩٨)، وأكد ابن العديم ذلك بقوله «فتطارح جوسلين صاحبها على أحمدبيل الكردي وحمل إليه مالا، وطلب منه الرحيل، فأجابه إلى ذلك» وحسن أحمدبيل إلى الأمراء الرحيل عنها فأجابوه لأن أكثر العسكر كان معه ورحلوا إلى حلب^(٩٩) كذلك سلم ياروققاش الخادم متولى أصفهسلارية حلب حصن القبة إلى روجر صاحب أنطاكية (١١١٢-١١١٩م) ورتب مسير القوافل من حلب إلى هناك وأن يؤخذ المكس منهم^(١٠٠).

فشلت محاولة جوسلين الثاني أمير الرها وبوهمند الثاني أمير أنطاكية في استغلال الأوضاع السيئة في حلب عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود ابن البرسقى. ولكن إنقاذها من ذلك في عام ١١٢٨م/٥٢١هـ تم بعد رشوة جوسلين «فصانعوه على مال حتى رحل»^(١٠١) ويحدد ميخائيل السرياني المبلغ باثني عشر ألف دينار سنوياً^(١٠٢). ويذكر أيضاً رواية ينفرد بها وذلك عندما تم رشوة بعض الطبّاحين الذين يعملون لديه وذلك لوضع السم لجوسلين وستة من فرسانه، وبالفعل قاموا بذلك ومات هؤلاء الستة ولكن جوسلين نجا بعد أن أنقذه الأطباء، وتم القبض على هؤلاء الجناة وإعدامهم مع أطفالهم^(١٠٣). ولم تشر المصادر الأخرى إلا إلى إصابة جوسلين بمرض خطير دون تحديد سببه كما ذكر وليم الصوري^(١٠٤).

استمر الاهتمام بشمال الشام حيث كان مركز الثقل لظهور حركات الإفاقة الإسلامية بها من ناحية، ولاستمرار ضعف الدولة الفاطمية ومشاكلها في الجنوب. فقد لقي الأفضل بن شاهنشاه وزير الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي مصرعه على يد جماعة. وتشير الروايات إلى استخدام الرشوة في قتله، فقد دس عليه الأمر «رجالا وأمرهم بقتله ووعدهم العطاء الجزيل»^(١٠٥) «ومالا وإقطاعاً»^(١٠٦) وتمت المؤامرة في رمضان ٥١٥هـ/ديسمبر ١١٢١م.

وفى إمارة أنطاكية حاولت أليس أرملة بوهمند الثانى الانفراد بحكم الإمارة الصليبية مستخدمة فى ذلك الرشوة لتحقيق هدفها، فقد أرسلت بعد وفاته فى فبراير ١١٣٠م / ربيع الأول ٥٢٤ هدية إلى زكى عبارة عن «جواد أبيض مزين بالفضة حتى ساد التناسق فى كل مكان وتم تزيينه بكل دقة» وحمل مبعوثها رسالة معه ولكن تم اكتشاف المؤامرة واعترف بذلك. وسارع والدها الملك بلدوين الثانى إلى هناك لحل هذا الخلاف وتم نفيها إلى منفاهها فى اللاذقية وجيلة^(١٠٧).

عاودت أليس تمردا مرة أخرى بعد وفاة والدها ورفضت الخضوع لفولك الأنجوى ملك بيت المقدس الجديد (١١٣١-١١٤٤م) وذلك فى صيف عام ١١٣٢م واعتمدت أيضاً فى ذلك على رشوة بعض النبلاء الأقوياء مثل بونز كونت طرابلس (١١١٣-١١٣٧م) فقدمت لهم «هدايا ووعداً سخية». ويشير وليم الصورى إلى تلك الشائعات التى راجت حول موقف بونز وقبوله الرشوة لأنه حاول منع الملك الصليبي من التقدم إلى أنطاكية عبر إمارة طرابلس. وعلى الرغم من أن فولك نجح فى دخول أنطاكية إلا أن أليس استمرت فى رشوة بعض النبلاء الذين «أيدوا قضية الأميرة بسبب الهبات السخية التى وزعتها عليهم»^(١٠٨). وفى غضون ذلك كان فولك قد أرسل مبعوثاً سرياً لاختيار زوج للأميرة كونستانس ابنة أليس لحل ذلك الصراع، واستقر رأى على اختيار ريموند يواتيه، وعندما علم روجر ملك صقلية بذلك حاول منع وصوله إلى أنطاكية، وقدم رشاوى لزعماء مدن أبوليا الساحلية لمنع مروره ولكنه استطاع الاحتيال ووصل إلى أنطاكية فى أبريل ١١٣٦م^(١٠٩).

ومن أهم العوامل التى أدت إلى فشل حملة الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م) على بلاد الشام فى عام ١١٣٨م هو قبوله الرشوة من صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن منقذ. ويجمع المؤرخون

الغريون على قبول الإمبراطور لما عرضه عليه صاحبها من أموال وهدايا ولكنهم اختلفوا حول الدافع لقبولها، فبينما يذكر وليم الصوري أن سلوك الصليبيين أثناء الحملة جعل الإمبراطور يقرر انتهاز أول فرصة للعودة والانسحاب بحملته. وبعد حصوله على الأموال التي دفعها له حاكم شيزر صدرت الأوامر بالرحيل^(١١٠). أما المؤرخ البيزنطي كيناموس فيشير إلى أنه عرضت على الإمبراطور البيزنطي رشوة مالية تدفع له في الحال بالإضافة إلى جزية سنوية ولكنه رفضها في البداية. ولكن عندما صمدت قلعة شيزر أمامه استقبل السفارة وقبل منهم الأموال وهدايا أخرى قيمة وحصل على وعد بجزية سنوية تدفع له^(١١١). أما نقتاس فيقول إن ذلك يرجع إلى أمرين - الأول أنه إذا سقطت المدينة فسوف ينسب ذلك إلى الصليبيين، والثاني وصول أنباء عن حصار الرها وتعرضها للخطر فقرّر فك الحصار وحصل على هدايا هائلة منها خيول عربية أصيلة ذات أعناق مزينة، وأثواباً من الحرير المطعم بالذهب ومائدة قيمة مطعمة بالجواهر وصليباً مزيناً بالرخام الفارسي^(١١٢). ويعلل المؤرخ السرياني المجهول السبب في ذلك حدوث مجاعة في المعسكر البيزنطي وازدياد المعاناة وكذلك خيانة الفرنج في إضاعة الوقت بحصار القلعة إلى جانب أن السفارة المرسلّة إليه زرعت الشك لديه بأن الفرنج قد ضلّلوهم حينما أحضروه إلى هذا المكان - فقرّر قبول هداياهم^(١١٣).

أما المصادر العربية فلم تشر إلى مسألة الرشوة، وإنما ذكرت أسباباً أخرى لفشل الحملة وفك الحصار عن شيزر، فأشار ابن الأثير إلى الواقعة التي أحدثها زنكى بين الجانبين البيزنطي والصليبي «فاستشعر كل من صاحبه»^(١١٤) وتجمع بقية المصادر أيضاً على أن السبب يعود إلى وصول إمدادات إلى شيزر فقرّر الإمبراطور الرحيل^(١١٥)، ويضيف ابن العبري سبباً آخر هو مهاجمة السلطان مسعود صاحب قونية لقليلية وسقوط أذنة في قبضته فقرّر الإمبراطور الرحيل^(١١٦).

وفى الثلاثينيات من القرن الثانى عشر الميلادى حدثت تغييرات جذرية فى بلاد الشام، فقد ازدادت قوة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وذلك عندما نجح فى ضم حماه وحمص ووضع نصب عينيه الاستيلاء على دمشق نفسها، ومثل ذلك تهديداً للصليبيين من ناحية ولمعين الدين أنر حاكم دمشق من ناحية أخرى. ودخل الأخير فى تحالف مع فولك ملك بيت المقدس وأصبحت بانياس هى كبش الفداء لهذا التحالف، وعلى الرغم من ادعاء وليم الصورى أن الفرنج قرروا تقديم مساعدة مجانية لأنر خوفاً من زنكى وإضافة بانياس إلى المملكة الصليبية فإن المصادر العربية تؤكد إرسال هذه الأموال^(١١٧). فيذكر ابن القلانسي «والتمسوا على ذلك مالا معيناً، يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوة ورهاناً تسكن بها نفوسهم، وأجيبوا إلى ذلك، وحصل إليهم المال...»^(١١٨). وأكد ابن الأثير وابن واصل أنه «بذل لهم بذولاً»^(١١٩) وكان تقدير وليم الصورى لذلك هو عشرين ألف قطعة ذهبية شهرياً^(١٢٠).

وعندما توجه أنر وفولك لحصار بانياس فى ٢٧ شوال ٥٣٤هـ/ ١٥ مايو ١١٤٠م تم إرسال مفاوضين سرّاً لدعوة أهلها للاستسلام. ويذكر وليم الصورى أن حاكم المدينة طلب رشوة ثمناً لذلك وهى تخصيص دخل مناسب له يعتمد عليه، وأن أنر أقنع حلفائه بذلك فتقرر ضمان هذا الدخل من عائدات الحمامات والبساتين والسماح للسكان بحمل أمتعتهم والخروج سالمين منها^(١٢١) ويؤكد ابن القلانسي تعويض الوالى الذى كان بها «بما أرضاه من الاقطاع والإحسان»^(١٢٢)، وفى المحرم ٥٤٣هـ/ يونيو ١١٤٧م جرت محاولة أخرى لرشوة التونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين وذلك لكى يسلم للملك بلدوين الثالث بصرى وحصن صرخد. ووافق على منحه «تعويضاً جديراً ومناسباً»، غير أن نور الدين محمود نجح فى إفشال هذه الرشوة حيث سارع بحمايتهما وعندما عاد إلى دمشق قبض عليه وأفتى الفقهاء بسمل عينيه^(١٢٣).

وفى أنطاكية دار صراع بين ريموند بواتييه والبطريك رالف أوف دمفرن (١١٣٥-١١٤٠م) حيث تم توجيه الاتهام للأخير بـ «السيمونية» واضطر للذهاب إلى روما للدفاع عن نفسه على الرغم من الصلح المؤقت بينهما. وبينما كان رالف عائداً إلى الأراضى المقدسة تم رشوة أحد المرتزقة فقام بدس السم له فى شراب فمات قبل عودته إلى منصبه (١٢٤). كذلك استمرت الاتهامات إلى البطريك الجديد إيمرى أوف ليموج (١١٤٠-١١٩٣م) الذى اتهم أيضاً باستخدام السيمونية للوصول إلى منصبه عن طريق قريه بطرس أرميون الذى لجأ إلى «الحيل والبذل السخى للهدايا» و«أثر عليهم بهبات سخية» ويبدو أن ريموند هو الذى كان وراء هذه الاتهامات عن طريق رشوة المجتمعين فى الجمع الكنسى (١٢٥).

حرص الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) على استخدام نفس الأسلوب البيزنطى مع قادة الحملة الصليبية الثانية. فانهالت هداياه على كونراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا (١٢٦)، بل إنه حاول رشوة عدد من قادة الملك الألمانى بالأموال لكى يمتنعوا عن الولاء له (١٢٧) وكذلك فقد أثير موضوع الرشوة بالنسبة للأدلاء البيزنطيين الذين سحبوا القسم الألمانى. ويذكر أودو أوف ديل ووليم الصورى أن مانويل هدف من ذلك القضاء على الإيمان المسيحى والتشبيط من عزيمة الصليبيين (١٢٨)، ويضيف وليم الصورى والمؤرخ السريانى المجهول إتهاماً آخر لمانويل هو رشوته للتركمان (١٢٩). أما المؤرخ نيقتاس فيترك الأمر معلقاً بعد أن عدد اتهامات كثيرة بقوله «إنه لا يعرف الحقيقة» (١٣٠). أما عن رشوة التركمان فيذكر أن الأتراك قاموا بمحاربة الألمان بمجرد أن أثارهم الإمبراطور بخطاباته إليهم (١٣١). وتعلق فريجنيا جينجريك مترجمة كتاب أودو أوف ديل على المادة التاريخية السابقة بأنها من الدرجة الثانية، كما أن وليم الصورى بعيداً عن الأحداث وتستند فى رأيها على خطاب لكونراد أرسله إلى قيلبد

أوف كورفى مشيراً إلى أنه هو الذى اختار الطريق الذى وقعت فيه الكارثة للألمان، كما أنه لم يشر إلى رحيل الأدلاء عن الحملة مما يجعلها شيئاً ثانوياً^(١٣٢)، غير أنه لم يذكر فى خطابه موقف التركمان وهل تمت رشوتهم أم لا مما يجعل المسألة بحاجة للبحث والدراسة.

أما أحداث الحملة نفسها بعد أن وصلت الجموع الصليبية إلى عكا فى ٢٤ يونيو ١١٤٨م/ ٤ صفر ٥٤٣هـ فكانت اتخاذ أغرب قرار وهو مهاجمة دمشق حليفة الصليبيين آنذاك. وأجمعت المصادر الغربية على توجيه الاتهام بالرشوة لعدد من قادتها مما أدى إلى فشلها. وتراوحت الاتهامات ما بين بلدوين الثالث الملك الصليبي نفسه، وإيلي ناندوس سيد طبرية وفيسرى كونت فلاندرز وريموند بواتيه أمير أنطاكية وعدد آخر من القادة، ويذكر وليم الصورى أن الدمشقيين كانوا يعرفون شره وجشع الصليبيين فعملوا على إقناع عدد منهم بتحويل القوات الصليبية إلى الجهة المقابلة التى حسنوا لهم أنها يمكن الاستيلاء على دمشق عن طريقها، ولكن تم اكتشاف الخدعة التى وقعوا فيها وأن المكان غير صالح لذلك. وكان ممن وجه وليم اتهامه إليهم بتلقى الرشوة هو ثيبرى كونت فلاندرز الذى اجتمع بالملكين كل على حده فوعده بتسليم دمشق له وعندما علم عدد من القادة بذلك لجأوا إلى الخيانة بدلا من تسليم دمشق إليه. ويستمر وليم فى روايته مشيراً إلى أن فريقاً آخر وجه الاتهام بالرشوة إلى ريموند بواتيه الذى استمال عدداً من قادة الحملة لكى تفشل ويعود لويس السابع خالى الوفاض^(١٣٣). وأخيراً يوجه وليم اتهامه إلى عدد من القادة - دون ذكر أسمائهم - بأنهم قبلوا المال لإنزال الكارثة بالحملة وإفشالها^(١٣٤).

وفى الواقع فإن ما سجله وليم الصورى عن هذه الاتهامات لم يكن فى زمن الحملة إنما جاء بعد وقت طويل من فشلها كما يذكر ذلك، ويصعب قبول اتهامه لريموند سيد أنطاكية وذلك لأنه لم يكن موجوداً مع الحملة،

كما أن الحملة أثناء وجودها في أنطاكية لم تكن قد اتخذت قراراً بعد بمهاجمة دمشق - كما أن توجيه الاتهام لعدد من القادة - الذين لم يحدددهم وليم - بعيداً عن الواقع لأن الذي اتخذ القرار بتعديل الهجوم هو الملك الصليبي وليس هؤلاء القادة، كذلك لم يتهم وليم ثييري كونت الفلاندرز بقبول الرشوة مباشرة، وإذا كان الأمراء الصليبيون قد تقاعسوا بسببه، فإن جاي سيد بيروت رشح لتولى إمارة دمشق أيضاً (١٣٥).

على أية حال فإن الاتهام الثانى بقبول الرشوة يوجهه ميخائيل السريانى إلى كل من الملك بلدوين الثالث وإيلي ناندوس سيد طبرية. ويذكر أن الدماشقة خوفوه من الملك الألمانى بأنه لن يتركه على عرشه وعرضوا عليه رشوة مقدارها مائتى ألف دينار، ونصف المبلغ لسيد طبرية، وفيما بعد اكتشفوا أن هذا الذهب كان مزيفاً وتخطب الخونة فيما بينهم (١٣٦). ويذكر المؤرخ السريانى المجهول نفس الرواية مع تعديل عليها فيشير إلى أن الملك الصليبي هو الذى أرسل للدماشقة يستفسر منهم ماذا سيدفعون له لو جعل الحملة تعدل من وجهتها بعيداً لأنه كان جار لدمشق ويعرفها جيداً، فوعده بمائة ألف دينار ذهب، وحينئذ نصح الملوك بتعديل مواقعهم وأدركوا بعد ذلك خيائته فغضبوا وتركوا حصارهم لدمشق عائدين إلى عكا (١٣٧). أما ابن العبرى فيذكر أن معين الدين أنر أرسل سرّاً خطاباً إلى ملك بيت المقدس يعرض عليه مائتى ألف دينار مغطاة بالذهب المصرى، وخمسين ألف إلى سيد طبرية مصنوعة من الذهب المغشوش. ويقارن ذلك مع خمس من المخطوطات العربية فلم يجد هذه الرواية التى أوردها فقط ميخائيل السريانى كما يذكر (١٣٨).

وثمة اتهام آخر يوجهه برنارد متولى الخزانة وحولية أنرول إلى جماعتي الفرسان الاسبتارية والداوية بأنهم تعرضوا للخديعة وتلقوا هذه الرشوة وأخذوا البيزنطيات المزيفة (١٣٩). ويشير وليم الصورى مرة أخرى إلى رواية الرشوة دون أن يحدد من قبلهم ويذكر أنها وجدت «مزيفة ولا تساوى شيئاً» (١٤٠).

وفى الحقيقة أجمعت هذه المصادر على وقوع حادثة الرشوة من ناحية وعلى أنها وجدت مزيفة من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن مصادرنا العربية لم تشر إليها، إلا أنها ذكرت حدوث اتصالات بين أنر حاكم دمشق وبين الصليبيين خاصة «إفرنج الشام» أو «الساحلية» الذين أجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان بعد خوفهم من وصول نور الدين محمود وعرض عليهم إعطائهم بانياس بدلا من دمشق، ولا نستبعد أن يكون قد تم أثناء ذلك تقديم الرشوة المشار إليها^(١٤١). أما تحديد الشخص الذى قبل هذه الرشوة فلا شك أن الاتهام يوجه إلى الملك الصليبي الذى تقع عليه مسئولية تحويل القوات الألمانية والفرنسية إلى الجهة الأخرى التى لم يتوفر بها الماء والمؤن، مما أدى إلى فشل الحملة. وكذلك إلى إيلي ناندوس سيد طبرية أو الجليل الذى كان من القواد الرئيسيين فى الجيش الصليبي وكان يهمله ألا يفقد صداقة دمشق كما أن ضم بانياس للمملكة سوف يوفر حماية لإمارته من جهة الشمال^(١٤٢).

لعبت الرشوة دوراً هاماً فى القضاء على بقايا إمارة الرها وحاكمها جوسلين، فقد صمم نور الدين محمود على الانتقام من حاكمها بعد أن سخر منه عند السلطان مسعود بن قليج أرسلان والد زوجته. فأغرى نور الدين جماعة من التركان «ووعدهم الوعود الجميلة»^(١٤٣) «وبذل لهم الرغائب»^(١٤٤) لأسره. ووضعوا فى طريقه امرأة وتمكنوا من أسره، وحاول جوسلين رشوتهم لإطلاق سراحه ولكن تم إبلاغ نور الدين الذى أرسل من قبض عليه وأرسله إلى حلب^(١٤٥) وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه «كان شيطانا عاتياً شديداً على المسلمين قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره»^(١٤٦).

أما بقايا إمارة الرها فقد تقاسمها السلطان مسعود السلجوقى ونور الدين محمود والأرناؤقة. كما باعت بياتريس أرملة جوسلين بعضاً منها للإمبراطور

البيزنطى مانويل بعد أن وافق الملك بلدوين الثالث على هذه الصفقة. ولم تحافظ بياتريس إلا على قلعة هروم جلا أو قلعة الروم لحين قدوم ابنها. وعرضت على البطريرك الأرمنى جراجوار الثالث رشوة مالية للحفاظ عليها فقبل ذلك وأصبحت مركزاً للبطريركية الأرمنية بعد أن قام قرياقاريوس جاثليق القلعة بدفع رشوة للخليفة العباسى مكنته من استرداد أرض أرمنية. كما أنها ظلت فى قبضة الأرمن وأصبحت بمثابة «الشجى فى الحلق، والغلة فى الصدر»^(١٤٧).

وعلى الرغم من أن قوانين الداوية حرمت الحصول على الرشوة، فقد فضلوا الحصول على ستين ألف دينار من أخت الخليفة الظافر الذى قتل على يد الوزير عباس وابنه نصر وفرا إلى بلاد الشام. وأرسلت وراءهما «تبذل لهم الأموال»^(١٤٨) وإباحة جميع ما معهم إذا قبضوا عليهما وأعادوهما إلى القاهرة. وكانا قد أخذتا معهما ما قدرا عليه من المال والجواهر^(١٤٩). وقتل عباس وتم أسر نصر حيث أعيد إلى القاهرة وتم قتله على أيدي الجوارى وهو محبوس فى قفص^(١٥٠).

استخدم نور الدين محمود الرشوة لتحقيق التوازن فى صراعه مع الصليبيين خاصة بعد نجاحهم فى الاستيلاء على عسقلان آخر المعاقل الفاطمية على ساحل الشام وذلك فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ فعمل على ضم دمشق للوصول إلى بلاد الفرنج ولسياسة مجير الدين أبى المتحالفه مع الفرنج ضده. فعمل على استمالته أولاً «وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به» ثم راسل أحداث دمشق «ووعدهم بالإحسان إليهم واستمالهم إليه»^(١٥١)، ونجح بذلك فى ضمه لدمشق فى المحرم ٥٤٩هـ/مارس ١١٥٤م، مما كان له أكبر الأثر على الصراع الصليبي الإسلامى فى العقود التالية.

ومرة أخرى يثار الاتهام بقبول رشوة فى المجتمع الصليبي ولكن هذه

المرّة على مستوى أعلى، فقد اتهم وليم الصوري الكرادلة في روما بأنهم «ضللتهم الهبات» في أثناء وجود البطريرك فولشر ومعه حشد كبير من رجال الدين الذين سافروا في عام ١١٥٥ م/ ٥٥٠ هـ لعرض صراعهم مع جماعة الفرسان الاستبارية^(١٥٢). ويوجه جيرهوه أوف ريجنزبرج اتهامه إلى البابا أدريان الرابع بأنه تلقى ثلثمائة مارك من الفضة الخالصة لإصدار الامتيازات البابوية للاستبارية^(١٥٣).

يعاود وليم توجيه اتهامه للبابا أدريان الرابع بقبول الرشوة وذلك من أمليرك (عموري) بطريرك بيت المقدس الجديد في نوفمبر ١١٥٧ م، فعلى الرغم من معارضة رئيس أساقفة قيسارية وأسقف بيت لحم لذلك، فقد أرسل البابا مع فردريك أسقف عكا طيلسان الحبرية Pallium الذي كان قد سافر إلى روما ويتهمه وليم بأنه الذي استخدم «الهبات السخية» للحصول على موافقة البابوية على هذا القرار^(١٥٤).

وفي عام ١١٦٠ م/ ٥٥٥ هـ نجح نجم الدين أيوب في الدفاع عن دمشق عندما تعرضت لهجوم من الملك بلدوين الثالث وذلك بتقديم رشوة مالية من أربعة آلاف قطعة من الذهب، وكذلك إطلاق سراح ستة من الفرسان الصليبيين أسرى مقابل هدنة مدتها ثلاثة أشهر. كما تمكن من رشوة عدد آخر من المحيطين بالملك لإقناعه بالموافقة على هذا العرض، وبالفعل وافق الملك على ذلك وانسحب^(١٥٥). وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تشر إلى ذلك إلا أن رواية وليم الصوري تبدو صحيحة، فقد كان نور الدين محمود مشغولاً آنذاك في مهاجمة أملاك سلطان قونية، أما أسد الدين شيركوه الذي كان قد عهد إليه نور الدين بدمشق منذ ضمها - كان يؤدي فريضة الحج، كما أن نجم الدين كان بدمشق عندما قدم إليها العام السابق صحبة نور الدين^(١٥٦) ومن هنا يبدو لنا كيف أسهمت الرشوة في الحفاظ على واحدة من أهم المعازل وإدراك نجم الدين لجشع هؤلاء القادة.

وثمة حادثة أخرى وقعت ما بين عامي ١١٦٥م، ١١٦٦م وذلك عندما سقطت قلعة تسمى بكهف صور واقعة بالقرب من صيدا وذلك في قبضة أسد الدين شيركوه عندما نجح في رشوة حراس هذه القلعة - ويؤكد وليم الصوري ذلك بقوله «وإن ذلك كان واضحاً»، ولكن تم القبض فيما بعد على قائد هذه المجموعة وشنقه في صيدا^(١٥٧). وبالإضافة إلى ثبوت الرشوة كما ذكر وليم فإن إشارته الثانية أهم في موضوعنا ولكن للأسف لم يعط لنا أية تفاصيل عن ذلك. والتساؤل هو هل كانت «عقوبة الشنق» بسبب تلقي الرشوة أم بسبب سقوط القلعة؟

ودون الدخول في تفاصيل المرحلة التاريخية التالية. ونقصد الصراع حول امتلاك مصر بين نور الدين محمود وبين ملوك بيت المقدس فإننا نلاحظ أن العوامل المادية واستخدام الرشاوى قد حسم كثيراً من أحداث هذه المرحلة، ففي عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ قام شاور برشوة الصليبيين بتقديم أربعمئة ألف قطعة ذهبية يدفع نصفها فوراً ويسدد الباقي بعد إتمام الاتفاقية^(١٥٨). كذلك حاول شاور أن يغري التركمان الذين كانوا في جيش أسد الدين شيركوه الذي قدم لنجدة ضرغام - «وأفسدهم بالذهب»^(١٥٩) لكي يتخلو عن أسد الدين - وربما كان لذلك أثره عليه «فلما راسلوه في المهادنة أجاب وطلب منهم عوض ما غرمه»^(١٦٠). ويشير صاحب البستان الجامع إلى أنه عندما تم الصلح بين صلاح الدين وعموري بغير علم من شاور ورحل إلى عند الملك الصليبي ونظر إلى صلاح الدين جالساً بجانبه فقال له سلمه إليّ وأعطيك كل سنة خمسين ألف دينار - ولكنه رفض وقال حلفت له^(١٦١).

وفي أثناء وجود الصليبيين في مصر ضغط نور الدين عليهم بمهاجمة بانياس مستغلاً وجود صاحبها همفري الثاني كافل المملكة في مصر وليجبر الملك الصليبي على الانسحاب منها. ويوجه وليم الصوري اتهاماً إلى ولتر

دى فوسنوى وشماس يدعى روجر بأنهما تلقيا رشوة من نور الدين مقابل الاستسلام. وخشيا على نفسيهما أن يتعرضا للقتل بعد عودة همفري (١٦٢). ولا ندرى مرة أخرى هل كان ذلك عقوبة تلقى الرشوة كما سبقت الإشارة إلى شنق قائد كهف صور. وعلى الرغم من إشارة المصادر إلى أن بانياس سقطت فى عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ فى قبضة نور الدين، إلا أن الغارة الثانية فى عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ كانت ضد بقايا بانياس وخاصة قلعة هونين أو Chatu Neuf وهو ما ذكره ابن الأثير وأبو شامة فى شوال ٥٦٢هـ/ يوليو ١١٦٧م (١٦٣).

وفى حملة عمورى الثالثة إلى مصر فى صفر ٥٦٤هـ/ نوفمبر ١١٦٨م عمل شاور على استخدام الرشوة لإفسادها. فقد ارتاع لما فعله الملك الصليبي فى بلبس وقرر استخدام الأموال لمصانعة عمورى فى الوقت الذى أرسلت استغاثات إلى نور الدين لإرسال قواته مرة أخرى. وبالفعل وعده شاور بدفع مبلغ ضخّم قدره البعض بمليونى قطعة ذهبية إذا التزم بعدم الهجوم على القاهرة وإطلاق سراح الأسرى. ويتهم وليم الصورى الملك الصليبي بالجشع لأنه «كان يفضل يأخذ رشوة كبيرة وينسحب» كما أشار إلى أن ميلون دى بلانسى كان وراء قرار الملك بقبول هذه الأموال لأنه «كان على بينة تامة بجشع الملك ونهمه إلى تحقيق الثراء». وعلى الرغم من مطالبة الغالبية باللجوء إلى السيف لكن الملك وفريقه طالبوا بعكس ذلك أى قبول الرشوة المقدمة من شاور. وانتصرت رغباته فى نهاية الأمر ونفذت إرادتهم، ودفع شاور على الفور مائة ألف قطعة ذهبية، وأخذ يماطل فى دفع الباقي متعللا بصعوبة جمع مبلغ ضخّم مثل هذا لأن موارد المملكة المتاحة لا تمكنه من ذلك (١٦٤).

وتتفق المصادر العربية مع رواية وليم الصورى بشأن مماثلة شاور للفرنج، وأشار أبو شامة إلى أن الملك عمورى برر موقفه بأن أخذ «المال للتقوى به

ونكثروا من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره» (١٦٥). ويؤكد أيضاً نقلاً عن العماد الكاتب أن شاور استخدم الرشوة «حيلة وخداعاً له وإطماعاً» وأقام منتظراً ودام متحيراً وعامل الفرغ بالمطال ينقدهم في كل حين مالا ويطلب منهم إمهالا ومازال يعطيهم ويستميلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله» (١٦٦). وهكذا استطاع شاور أن ينقذ البلاد باستخدام الرشوة ونجح في التلاعب بهم لعلمه مدى جشعهم وحبهم للمال ويعترف وليم الصوري بأن «جشع هؤلاء الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث، كما أن نهمهم - وهو أصل الشر - قد شوه الصفاء التي كانت السماء قد منحتنا إياه» (١٦٧).

على الرغم من فشل عموري في حملاته السابقة إلا أنه كان لا يزال يأمل في الاستيلاء على مصر واستعان هذه المرة بحملة بيزنطية صليبية مشتركة لتنفيذ ذلك، ولسنا هنا بمعرض الحديث عن هذه الحملة التي وقعت في عام ١١٦٩م/٥٦٦هـ، وإنما سوف نتناول أحد العوامل الهامة التي أدت إلى فشلها ألا وهو استخدام الرشوة. ويعترف وليم الصوري عند تحليله لهذه العوامل بأن هناك «خيانة» أو «مجرد إهمال واستخفاف» قد حدث أثناء محاولة اقتحام دمياط. أو أن الذين كانوا يتولون القيادة يتصرفون «بنية خائنة» (١٦٨). ثم أشار بعد ذلك أنه أجرى تحقيقاً جاداً ودقيقاً حول الملك وبعض الرجال المهمين في المملكة عن السبب في فشل حملة ضخمة مثل هذه وأنه استمع بعد عودته من روما لروايات شديدة الاختلاف ولكنه في النهاية يلقى بالتبعة على البيزنطيين لأنهم لم يرسلوا الأموال الكافية لدعم الجيش، ثم يعلق السبب في النهاية على نقص الإمكانيات (١٦٩).

أما المؤرخ البيزنطي نيقيتاس فيشير إلى الملك الصليبي عموري بأصابع الاتهام ويتهمهم عند الحديث عن السبب في التخاذل الذي حدث أمام دمياط مشيراً أنه هل كان بسبب أن وضع المصريون له شرباً سحرياً جعله

يعلق درعه ويضع سيفه فى غمده ويفرز سن رمحه المديب فى الأرض؟ أم أنه غير رأيه وسحرتة الفضة وسد الذهب أذنيه فأصممه؟ (١٧٠)، ويوجه كيناموس اتهاماً غير مباشر إلى الملك الصليبي بقوله «وهناك زعم بأن هؤلاء الذين داخل «دمياط» رشوا الملك بالأموال» (١٧١) ولا تخلو عبارات ميخائيل السرياني من اتهام غير مباشر للملك الصليبي بتلقى الرشوة، فذكر أن المصريين قاموا بدفع الأموال التى كانت للملك وتعهّدوا بأنهم سوف يستمرون فى ذلك وأعطوه بعض الرهائن لأن يوسف (صلاح الدين) لم يكن لديه القدرة الكافية لطرد الفرنج (١٧٢).

ومن خلال الروايات السابقة نجد أن الاتهام وجه للملك عمورى بشأن محاولاته لإفساد الحملة وذلك بتلقيه الرشوة. وعلى الرغم من إشارة وليم الصورى إلى ذلك إلا أنه لم يذكر نتيجة بحثه الدقيق، ولكن المصادر اليونانية والسريانية أجمعت على ذلك، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يفضل فيها عمورى الحصول على المال والعودة بقواته كما سبق فى حملته الثالثة. أما مصادرنا العربية فلم تشر إلى رشوة الملك الصليبي اللهم إلا عبارة أوردها أبو شامة حيث ذكر أن الخليفة الفاطمى العاضد أرسل لصلاح الدين مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب والتى ربما استخدم جزء منها فى رشوة الملك الصليبي (١٧٣).

لجأ الصليبيون إلى محاولة جديدة للتخلص من صلاح الدين الأيوبي وذلك عندما وافقوا على الاشتراك فى مؤامرة الشيعة ضده. كما انضم إليهم وليم الثانى ملك صقلية والحشيشية. وجرت هذه المؤامرة فى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ، ووصل رسول من قبل الصليبيين فى الوقت الذى أغرى به صلاح الدين من كان يأتيه بخبره واتصالاته مع المتآمرين. وقبل ذلك كان صلاح الدين قد نجح عن طريق رشوة أحد أطرافها «بالدور والعقار وكل ما له من الموجود والمذخور وبذل له صلاح الدين كل ما طلبه» (١٧٤) وانتهت هذه المؤامرة بالفشل.

حاول الملك عمورى استغلال وفاة نور الدين محمود فى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ وذلك بالاستيلاء على بانياس ولكن حاميتها لجأت إلى رشوة الملك الصليبي ولكنه رفض فى البداية وظل محاصراً لها خمسة عشر يوماً وأخيراً وافق على قبول المعروض عليه وإطلاق سراح عشرين أسيراً صليبياً^(١٧٥) أما المصادر العربية فقد أكدت هذه الرواية - فذكر ابن الأثير أن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صالح عمورى «على شىء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين»^(١٧٦)، ويؤكد سبط ابن الجوزى أخذ عمورى للمال قبل رحيله^(١٧٧) ولكن صلاح الدين اعتبر ذلك نوعاً من أنواع الاستسلام. «فبلغنى حديث الهدية المؤذن بذل الإسلام وشين شريعة المصطفى ﷺ»^(١٧٨)، وكان صلاح الدين يرغب فى ضم بانياس ليصير له طريق إلى بلاد الشام ويمتلك البلاد ولكن استخدام ابن المقدم الرشوة لإنقاذ بانياس أضاع عليه تلك الفرصة.

أدرك صلاح الدين الخطر المحدق بأملاك سيده نور الدين عقب وفاته من ناحية انقسام الأمراء، وخطر الفرنج من ناحية أخرى. وحرص على عدم إظهار نواياه فعمل على استغلال اسم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين مؤقتاً^(١٧٩) وعندما قام بحصار حمص - التابعة آنذاك للأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى - ذكر وليم الصورى أن المحاصرين أرسلوا إلى ريموند الثالث كونت طرابلس والوصى على المملكة الصليبية آنذاك ووعد به «مكافأة لائقة»^(١٨٠) ونجح صلاح الدين فى ضمها فى جماد أول ٥٧٠هـ/نوفمبر ١١٧٤م غير أن قلعتها استعصت عليه فتركها مؤقتاً وتوجه إلى حماه ثم حلب. أما المصادر العربية فقد اختلفت فيما استدعى الفرنج وقدم لهم الرشوة، فذكر ابن أبى طىء أن ذلك تم بعد فشلهم فى الاستعانة بالحشيشية للتخلص من صلاح الدين فكتبوا القمص صاحب طرابلس^(١٨١)، أما ابن الأثير فيشير إلى أن ذلك تم بعد حصار صلاح الدين

لحلب فسار إلى حمص^(١٨٢). وتبدو رواية وليم الصوري أقرب إلى الصحة لأن الصليبيين أدركوا أن خروج صلاح الدين إلى الشام سوف يلحق بهم الضرر ويؤثر على موازين الصراع بين الجانبين. وعندما تقدم إلى حمص واستنجد أهلها بهم تحركوا على الفور في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين في حلب فحاول الحلبيون أيضاً استخدام الرشوة للتخلص منه، وعندما وصلت قوات ريموند إلى حمص لإنقاذها عاد صلاح الدين وتمكن من الاستيلاء على قلعتها في ٢١ شعبان ٥٧٠هـ/ ١٨ مارس ١١٧٥م^(١٨٣).

وفي أثناء الأحداث السابقة أرسل الحلبيون إلى مقدم الإسماعيلية وعرضوا على رشوة «أعطوهم ضياعاً ومالاً» إذا قام بالتخلص من صلاح الدين، ولكن المؤامرة تكشفت عندما عرفهم ناصر الدين خمارتكين وأسرع بإبلاغ صلاح الدين حيث تم القبض عليهم عند خيمته^(١٨٤)، وكادت الرشوة أن تحقق هدفها في هذه المرحلة الحاسمة من جهاد صلاح الدين لولا لطف الله عز وجل.

وفي خريف عام ١١٧٧م/ ٥٧٢هـ تعرضت حارم ذات الأهمية الاستراتيجية لكل من المسلمين والصليبيين لهجوم صليبي وذلك قبل حملة فيليب كونت فلاندرز، ويذكر ابن العديم أن سبب هذا يرجع إلى أن سعد الدين كمشتكين صاحب حصن حارم قرر أن يبيعه «بمال وفير» إلى الفرنج، ولكن الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين نجح في ردهم بعد أن «بذل لهم مالاً» وهددهم بتسليمها إلى صلاح الدين^(١٨٥). ولكن حارم لم تسلم من هجوم صليبي آخر ففي ١٤ نوفمبر ١١٧٧م/ ٢٠ جماد أول ٥٧٣هـ استمر حصارهم لمدة أربعة أيام لمدينة حماة ولكن صاحبها شهاب الدين محمود نجح في الزود عنها وردهم، فتوجهت القوات الصليبية بعدها إلى حارم لحصارها. وعندما وصلت هذه الأنباء قرر صلاح الدين الخروج على الرغم مما كان قد لحق به في نوبة الرملة. وعلى الرغم من أن

الصلبيين كادوا يستولون على حارم إلا أن عوامل مختلفة أسهمت في فشلهم ومن بين ذلك استخدام الرشوة معهم، فقد اتفقت المصادر العربية واللاتينية على قبولهم لأموال بالإضافة إلى إطلاق سراح عدد من الفرسان. يقول العماد الكاتب «فتنازلوا عن النزال، بما قرروه من قطيعة المال، وعدة من الأسارى فرسان القتال» (١٨٦) وحدد ابن العديم ذلك «بمقدار ما أنفقوا مدة حصارهم لهم» (١٨٧)، أما وليم الصورى فيذكر أن أمير انطاكية «قبل من المحاصرين مبلغاً من المال لا نعرف مقداره، ورفع الحصار» (١٨٨). أما أرنول فيلقى المسئولية على كونت فلاندرز، وآخرون على أمير انطاكية وطرابلس (١٨٩)، ومهما كان الشخص الذى قبل تلك الرشوة إلا أنها لاشك قد نجحت في إنهاء واحدة من أهم الحملات الصليبية آنذاك لأن صلاح الدين كان يعاني من آثار هزيمة الرملة السابقة (١٩٠)، وعلى الرغم من ذلك فإن صلاح الدين وجه اللوم إلى أخيه تورانشاه عندما صانع الفرنج بالمال وقال له «أنت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين» (١٩١) غير أن العماد الكاتب برر استخدام هذه الأموال وأنها كانت سبباً فى «ما أمنت به البلاد من مضراتهم وسلمت به الغلات من غاراتهم» (١٩٢). أما وليم الصورى فلم يشر إلى قبولهم للرشوة وذلك لأن الصليبيين حصلوا على غنائم كثيرة فى هذه الوقعة وبالتالي لم يحاول أن يبرر الحادثة (١٩٣).

عندما علم الفرنج بخروج صلاح الدين إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م قرروا الخروج لاعتراضه، واستغل الملك المنصور عز الدين فرخشاه ذلك فقام بالإغارة على بلادهم الخالية، ونجح فى ضم حصن حبيس جلدك من أعمال طبرية على الطرف الجنوبى لنهر اليرموك. وكان منه على المسلمين أذى شديد (١٩٤). ويوجه وليم الصورى اتهاماً إلى حامية الحصن والتي كانت من السريان بأنها سلمته «مقابل مبلغ من المال» (١٩٥). وتم توجيه اللوم إلى فولك صاحب طبرية الذى عين مثل هؤلاء فى موقع

هام مثل هذا^(١٩٦). وبعد نجاح صاحب طبرية فرخشاه فى ذلك تمكن من اللقاء بصلاح الدين وتوجهها معاً إلى دمشق حيث وصلها فى صفر ٥٧٨هـ / يونيو ١١٨٢م^(١٩٧).

عمل صلاح الدين على توحيد الجبهة الإسلامية وأراد أن يستغل الانقسام الموجود بين عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وأخيه عماد الدين زنكى صاحب حلب. ويعترف وليم الصورى ببراعة صلاح الدين فى التفكير عندما اعتقد الجميع أنه سوف يذهب إلى حلب لكنه عبر الفرات لإخضاع عدد من المدن يتيح له بعدها السيطرة على الموصل. ويوجه وليم اتهامه إلى أن هؤلاء الأمراء تلقوا رشاوى بعد أن أغراهم صلاح الدين «بسخائه الوافر» واستلم قلاعهم ونجح فى كسب ولائهم لنفسه^(١٩٨). وفى الواقع أن صلاح الدين لجأ إلى ضمان ولاء هذه البلدان بوسائل شتى، فبذل البذل لهم لنصرته^(١٩٩)، وأعفى بعضاً منها من المكوس والضرائب، وبذل العدل الواسع والإحسان إلى أهلها، «وسيرت هدايا وتحف وعطايا»^(٢٠٠)، وكان صلاح الدين مدركاً لأهمية الأموال فى حملته هذه فأمر «بحمل ما هنالك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطاعم أفواهها». ويذكر وليم أيضاً أن الكرم والسخاء كان أكثر الوسائل لجذب العقول «وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي من الأمراء»^(٢٠١).

وفى رسالة لصلاح الدين أرسلها إلى الخليفة العباسى اتهم المواصلة بأنهم عقدوا مع الصليبيين «عقد أشهده من هو حاضره ونقله إلى من سمعه من هو ناظره وكان عقدهم إحدى عشرة والمستقر لهم فى كل سنة عشرة آلاف دينار على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار منها بانياس وشقيف تيرون وحبيس جلدك وأسارى الفرخ فى كل بلدة بأيديهم وفى كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرخ»^(٢٠٢). وفى الواقع يجب التريث عند

نص هذا الخطاب، فوليم الصوري لم يشر إليها على الرغم من اطلاعه على هذه الحملات، كما أنه إذا كان الهدف كما ذكر صلاح الدين في رسالته شغله من جانب والصليبيين من جانب آخر، فقد أكد ولیم أن تحركاتهم ضد دمشق والمناطق الأخرى أثناء وجود صلاح الدين كانت «دون سبب واضح»، بل إنها ربما كانت ردًا على احتقار صلاح الدين لهم، لأنه رحل «دون الدخول في هدنة أو معاهدة مع الملك» (٢٠٣). وتؤكد المصادر العربية نية صلاح الدين المسبقة لضم حلب والموصل وغيرهما، فقد وصلته استغاثة من بعض الأمراء «فقد أنهى إليه من أغراه بها وحث عزمه فحث على طلبها» (٢٠٤).

وكان ذلك بعد عودته من طبرية في ١٤ من ربيع أول ٥٧٨هـ/ ١٨ يوليو ١١٨٢م. وأورد أبو شامة وولیم الصوري استعداداه لذلك، ولكن يبدو أن الأمر اختلف بعد وصول الأسطول المصرى إلى بيروت في ربيع ثان/ أغسطس من نفس العام، فقد وصل إليه خطاب مظفر الدين كوكبورى ابن زين الدين مقطع حران يخبره بعبور الفرات لضم المدن السابقة بدلا من إضاعة الوقت أمام حلب أو الموصل (٢٠٥) ويذكر ابن شداد أنه حاصر حلب لمدة ثلاثة أيام في ١٨ جماد أول/ ١٩ سبتمبر ثم عدل عن ذلك طالبًا الفرات، وأثناء ذلك أرسل صلاح الدين الخطاب المشار إليه أثناء وجوده عند البيرة (٢٠٦). وربما أراد صلاح الدين أن يوجد عذر عند حصاره للموصل بعد أن قام المواصلة بإرسال مبعوث إلى الخليفة العباسى لنجدتهم (٢٠٧).

استمر صلاح الدين فى محاولاته لحصار الصليبيين مستخدماً فى ذلك كافة الوسائل لتحقيق هدفه، فقد استخدم الرشوة أو الهدايا مع بعض منهم للحصول على معلومات من ناحية، وإحداث الواقعة فيما بينهم من ناحية أخرى (٢٠٨)، ومن بين هؤلاء كانت سيبلًا زوجة بوهمند الثالث أمير أنطاكية فقد كان السلطان «يكرمها لذلك ويهدى إليها أنفس الهدايا»، بل

إنه أطلق لها أقارب وقعوا فى الأسر بعد سقوط حصن برزیه فى قبضته فى عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(٢٠٩). ويشير رانسيمان أن ما ثار من مشاكل حولها فى أنطاكية لكونها الزوجة الثانية لبوهمند، يرجع أساساً إلى كراهية النبلاء لصلتها بصلاح الدين حيث «كانت تراسله وتعلمه بالأمر التى تؤثر»^(٢١٠)، وكان ذلك مثال من ضمن أمثلة عديدة استخدمها صلاح الدين لإحداث الفرقة بينهم ولاشك أن ذلك ترك أثره عليهم.

وفى السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ / الثانى من أكتوبر ١١٨٧ جاءت نهاية هذه المملكة الصليبية التى اتخذت من القدس حاضرة لها. وانفرد تاريخ بطاركة الإسكندرية بأن الأرثوذكس الموجودين فى داخلها تأمروا مع صلاح الدين للسماح له بدخولها. ويذكر أن زعيمهم يوسف بابيط وثق فيه صلاح الدين واتخذة مستشاراً له فى معاملاته مع الفرنج^(٢١١). وفى الواقع فإن المصادر العربية أو غير العربية لم تشر إلى هذه الرواية، وإنما أشارت فقط إلى أن صلاح الدين سمح للنصارى - الذين ليسوا من الفرنج - بالبقاء فى مساكنهم مقابل دفعهم للجزية المقررة عليهم^(٢١٢) «وأقر بأيديهم القمامة (كنيسة القيامة) وعينوا أماكن يزورونها»^(٢١٣). أما السيوطى فيذكر أنهم دفعوا أموالاً للسماح لهم بالبقاء^(٢١٤). ومن خلال هذه الروايات يتبين أن هؤلاء النصارى لو قدموا المساعدة لصلاح الدين لدفع لهم ثمن ذلك ولكن لم نجد ذلك فى المصادر المتاحة بين أيدينا.

وعقب الاتفاق الذى تم بين صلاح الدين والصليبيين للسماح لهم بالخروج من القدس والذى بموجبه تم الاتفاق على أن يدفع الرجل عشرة دنائير والمرأة خمسة ودينار للطفل. ورتب صلاح الدين على الأبواب من يقومون بجمع هذه الأموال، ولكن لم يحدث التزام بذلك. ويعطى لنا العماد الكاتب وصفاً رائعاً لذلك بقوله:

«ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه لكن
تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب مناهج الرشد بالرشا.
فمنهم من أدلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفياً في الرحال
ومنهم من غيرت لبسته فخرج مخفياً بزي الجند ومنهم من وقعت فيه
شفاعاة مطاعة لم تقابل بالرد» (٢١٥).

الخاتمة

تساقطت المدن والقلاع الصليبية عقب سقوط بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين الأيوبي، ولم يتبق منها سوى صور وطرابلس وأنطاكية من المدن الكبرى بالإضافة إلى بعض القلاع المتناثرة. ولم تنجح الحملة الصليبية الثالثة سوى فى استعادة أجزاء ضئيلة قامت فيها مملكة بيت المقدس الاسمية التى اتخذت من عكا حاضرة لها. وخلال الفترة التالية وحتى نهاية الوجود الصليبي فى الأراضى المقدسة فقد اختلفت أنماط المجتمع الصليبي الجديد وفئاته نتيجة لعوامل عديدة ليس هنا مجال التعرض لها.

وفى الواقع ومن خلال الدراسة السابقة ظهر بوضوح كيف أثرت هذه الظاهرة - الرشوة - فى هذا المجتمع الصليبي منذ بداية خروج الحملات وحتى سقوط بيت المقدس. وأثرت بشكل مباشر على كثير من أحداث الصراع بين الجانبين، بل إنها غيرت كثيراً من نتائجها بشكل غير متوقع. فعلى سبيل المثال لا الحصر رأينا كيف أثرت الرشوة على أحداث الحملة الصليبية الثانية، وعلى حملات عمورى فى مصر وعلى الحملة البيزنطية فى عام ١١٣٨م على شيزر، وكذلك الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط فى عام ١١٦٩م، وغيرها من الحملات الأقل. ولم يكن تأثير الرشوة على نتائج هذه الحملات فقط، بل أيضاً على موازين الصراع الصليبي الإسلامى، فنجد أن نور الدين محمود ينجح فى ضم دمشق عن طريق الهدايا والوعود فى عام ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ، وبنجح نجم الدين أيوب فى الحفاظ عليها برشوة الصليبيين فى عام ١١٦٠م/ ٥٥٥هـ بينما كان نور الدين محمود مشغولاً فى الشمال. أما ضم مصر وقيام الدولة الأيوبية بها فقد سبقه تقديم رشاوى للصليبيين بلغت فى أثناء حملات عمورى تقديم أكبر مبلغ للرشوة وهو مليوناً قطعة ذهبية أسالت لعباب عمورى ووقع فى الفخ لحين وصول قوات نور الدين إلى مصر ولكنه فى النهاية لم يحصل سوى على مائة ألف وهى لا

تقارن بأى حال من الأحوال مع نجاح نور الدين فى ضم مصر ثم قيام الدولة الأيوبية.

ولم تقتصر الرشوة على التأثير فى المعارك والحملات العسكرية. بل استخدمت أيضاً فى محاولات الاغتيال والتخلص من القادة المؤثرين فى أحداث هذا الصراع الصليبي الإسلامى مثل شرف الدين مودود وبلدوين الأول وجوسلين الثانى وصلاح الدين الأيوبي. كما استخدمت السيمونية أو شراء المناصب الدينية فى نفس الفترة ووجهت اتهامات إلى عدد من البطارقة بهذه التهمة مثل دايمبرت البيزوى ورافل أوف دمفرت وإيمرى أوف ليموج، بل وجه البعض اتهامات بالرشوة إلى الكرادلة فى روما والبابا أديان الرابع نفسه.

وعلى الرغم من كثير من المزايم التى يقدمها كثير من مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين من أن هؤلاء الصليبيين هم «رواد عظمة الغرب» وأن هذه الممالك قد ازدهرت فيها العدالة والحرية فإن ذلك كان انكشف أمام ما أورده فى الصفحات السابقة. فقد سيطر الجشع والطمع على عقول هؤلاء وقلوبهم منذ خروجهم فى الحملة الأولى وبات ذلك واضحاً عبر أحداثها، وأعمى - بريق الذهب والفضة والأموال والخيول وغيرها من الرشاوى المختلفة التى قدمت لهم - أبصارهم، فقام هذا المجتمع على غير أساس. بل إن الذين استطابوا الحياة فى الشرق وتأثروا به لم يتحملوا الوافدين الجدد، وعملوا على إعادتهم إلى الغرب بعد الاستفادة منهم فى تحقيق مصالحهم الشخصية فحسب. ويسجل اكهارد دى أوربا بأن هؤلاء جميعاً «تخلوا عن أموالهم بالذات وسعوا بطمع وراء أموال الغير» (٢١٦)، وتصح عبارته وتكون دقيقة إذا كان لديهم هذه الأموال بالفعل.

لقد تهاوى هذا المجتمع بجميع فئاته وطبقاته وسقط فى شباك الرشوة

التي نصبها لهم المسلمون الذين نجحوا في كشف ذلك القناع الزائف عن هذا المجتمع. ولم يسلم المؤرخون من ذلك أيضاً، فمؤلف أنشودة أنطاكية جريورى بشاده طلب «زوج من الأحذية القرمزية» حتى يضيف اسم أحد النبلاء في أنشودته كي يمجده ضمن المشاركين في الحملات الصليبية^{١١} (٢١٧) ولا بد أن تكون نهاية هذا المجتمع كما رأينا على الرغم من الادعاءات الصليبية عنه.

«تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ»

«آية ١٤ : سورة الحشر»

الهوامش

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem (١)

Tras. by Frances Rita Ryan, Kenville, 1969, p. 271.

وتوجد له ترجمة عربية للدكتور زياد العسلى: تاريخ الحملة إلى القدس، عمان، الأردن ١٩٩٠، وفضلنا استخدام النسخة الإنجليزية للهوامش والتعليقات الموجودة بها

(٢) جوناثان ريلي - سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: د. محمد فتحي الشاعر، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٩.

The Alexiad of Anna Commena, Trans. from the Greek by E.R.A. Sewter- (٣)
Penguin Books, 1982, p. 312

(٤) رالى سميث، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٥) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، ١٩٨٦، ص ٧٩.

Fulcher of Chartres, op.cit., p. 271-272. (٦)

(٧) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: د. حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٧٠.

(٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠، ص ٣١٥-٣١٦، ٣٨٢، ٣٨٥ وغيرها.

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in RHC, H. Occ. t. IV, Paris, 1879, (٩)
p. 700.

de.Roziere, E. ed., Cartulaire de l'Eglise du Saint Sepulcre de Jerusalem, (١٠)
Paris.

Rohricht, R., Regesta Regni Hierosolymitani, 2 vols Innsbruck, 1893-1894, (١١)

I. no. 83.

(١٢) رالى سميث، الاستبارة وفرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص، ترجمة: صبحى الجابى، دمشق ١٩٨٩، ص ٣٧٥-٣٧٩.

(١٣) حضر وليم الصورى هذا المجمع مشيراً إلى حضور ثلثمائة أسقف فى بابوية الإسكندر الثالث، وذلك فى اللاتيران ويعد من أكبر المجمع الكنسية لعدة قرون. وألف وليم الصورى كتاباً خاصاً عنه ولكنه لم يصلنا. انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٠٩.

(١٤) سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، ١٨-٢٠، وكذلك: نور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا، ج١، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٠٢، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج٢، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٤٢.

(١٥) ابن العميد (المكين جرجس): تاريخه - نشره كلود كاهن تحت عنوان: تاريخ الأيوبيين فى :

B.E.O., Vol. 15, 1955, p. 142.

كيرلس الثالث (ابن لقلق) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، نشر: د. انطون خاطر، ود. ازولد بورمستر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٦٩.

(١٦) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ج٨، ق١، حيدرآباد، ١٩٥١، ص ١٨٧.

(١٧) فى أبى شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج٢ فى مجلد، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص ٩٥؛ وانظر: مادة رشا وأصله من الرشاء الذى يتوصل به إلى الماء - ابن منظور، لسان العرب، ١٥ ج، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، ج١٤، ص ٣٢٢.

(١٨) زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ جزء، تحقيق سامى الدهان، دمشق، ١٩٥١، ص ٦٠٢. والمصانعة أن تصنع لغيرك شيئاً ليصنع لك آخر مقابله، كناية عن الرشوة. انظر المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وآخرون، اسطنبول، ١٩٨٦، ص ٥٢٦.

- (١٩) الروضتين، ج٢، ص ١٣١.
- (٢٠) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ٥ أجزاء: الأول - الثالث : تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، الجزء٤، ٥، تحقيق: د. حسنين ربيع القاهرة، ١٩٧٢ - ١٩٧٧، ج٢، ص ١٢٦ - ١٢٧.
- (٢١) أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٣١.
- (٢٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٣-١٢٤؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤ - ٢٥.
- (٢٣) ابن منظور، المصدر السابق، ج١٤، ص ٣٢٢، وكذلك أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢١. وما حرمه الإسلام هى تلك الرشوة التى تعطى لقضاء مصلحة، أو لإحقاق باطل أو إبطال حق.
- (٢٤) Stephenson, C., Mediaeval History, New York, 1951, p. 227.
- سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣٤٦-٣٦٧؛ جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى وحضارتها، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ١٨٧-١٨٨.
- (٢٥) Sterns. L., Crime and Punishment Among the Teutonic Knights, Speculum, Vol. 57, 1982, p. 41.
- (٢٦) رالى سميث، المرجع السابق، ص ٥٩.
- (٢٧) Anna, p. 312.
- (٢٨) عن تفصيلات الحملة الشعبية انظر: جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٥١-١٧٠. والملاحق المترجمة من المصادر فى نهاية الكتاب نفسه.
- (٢٩) Albert d'Aix, op.cit., pp. 291-292.
- ويشير رانسيمان إلى رشاوى أخرى إلى أمنج كونت لزيجن عبارة عن سبع قطع من الذهب، ومائتى قطعة من الفضة إلى رئيس الأساقفة وحاكم ماينز - ولكنها

ذهبت هباءً. انظر رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. السيد الباز العرينى، بيروت، ١٩٨١، ص ٢١٣.
 (٣٠) الحملة الصليبية الأولى، ص ٥٩؛ قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١١٩-١٢١؛

Anna Sapir Albulafia, *Invectives against Christianity in the Hebrew Chronicles of the First Crusade*, in *Crusade and Settlement*, Cardiff, 1985, pp. 66-67.

(٣١) ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٧٠.

Anna, p. 315. (٣٢)

Ibid., p. 323. (٣٣)

Ibid., p. 328. (٣٤)

وكذلك انظر: جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣١٢-٣٢٨.

(٣٥) انظر نص روايته فى : قاسم عبده، الحروب الصليبية، ص ١٦٣.

(٣٦) نص ترجمة الخطاب فى : جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣٢٩.

Anna, p. 329. (٣٧)

(٣٨) ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٣٩) نفسه.

Fulcher of Chartres, pp. 79-80. (٤٠) انظر:

وكذلك خطاب آتين إلى زوجته أديل، جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣٢٩-٣٣٠.

Anna, pp. 340-341. (٤١)

Ibid., p. 340. (٤٢)

Ibid., p. 336. (٤٣)

(٤٤) اختصر فوشيه هذه الأحداث على الرغم من أنه كان شاهد عيان لها. وتم قتل

نورس في ٩ مارس ١٠٩٨ م. للمزيد انظر:
Fulcher of Charters, p. 90.

وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٢٦٦-٢٦٩؛
Albert d'Aix, pp. 354-355.

وكذلك: محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى
سقوط الزها، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٨٠.
(٤٥) ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ١٠٨؛

Tudebodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere, Trans. J.H. Hill
and L.L. Hill., Philadelphia, 1974, p. 57.

ويرر ريمونداجيل هذا العمل بأنه كان لاستخراج الجثث حتى لا تعوق الروائح
العمل في بناء القلعة على الرغم من اعترافه قبل ذلك أن غنائم الأتراك هي التي
أثارت رجالنا لذلك العمل. وعن بناء القلعة انظر: ح (١٨)، ص ١١٦.

(٤٦) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، الإسكندرية، ١٩٨٩،
ص ١١٦.

(٤٧) نفسه، ص ١١٨-١١٩.
(٤٨) Tudbode, op.cit., pp. 61-63.

(٤٩) المصدر السابق، ص ٣١٥-٣١٦.

Caffaro de Cashifeloe De Liberatione Civiatur Orientis Libers, in RHC, (٥٠)

H. Occ. Vol. V., p. 52.

Anonymous Syriac CHronicle (ed. A.S. Tritton) in J.R.A.S., London, 1933,

2 Vols., p. 66; Michel Les Syrien, Chronique, ed. , en Francais, par JB.

Chabot, 4 tomes, Paris, 1899-1924, p. 184.

(٥٢) الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، بيروت، بدون تاريخ، ج ٨، ص ١٤.

(٥٣) زبدة الحلب، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٥٤) ذيل تايع دمشق، نشر وتحقيق : د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٥٥) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٣٢٢.

(٥٧) المؤرخ المجهول، أعمال الفرخة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق د. حسن

حبشي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٩٦؛ Tudbode, op.cit., p. 89.

(٥٨) زبد الحلب، ص ٥٠١، ٥٠٢.

(٥٩) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق أن ماري أده، منشور، في:

B.E.O. Vol. 32-33, 1980-1981, Damas 1982, 1982, p. 310.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق : د. عبد العزيز الخويطر، الرياض،

١٩٧٦، ص ٣٢٠.

(٦٠) حددت المصادر الثلاثة التالية الاجتماع في قلعة الراج - أما هذه الشروط

فذكرها ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ١٧٠-١٧١، ح (١١) المؤرخ

المجهول، المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧؛ وكذلك رالي سميث، الحملة

الأولى، ص ٨٢؛ Tudbode, op.cit., p. 102.

(٦١) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٣٨٥؛ Tudbode, op.cit., p. 104.

(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٩٠-٣٩١؛ أما ريمونداجيل فذكر العرض المقدم من

صاحب جبلة فقط دون أن يشير إلى قصة وليم، المصدر السابق، ص ١٨٩.

Albert d'Aix, p. 453.

(٦٣) رانسيمان، المرجع السابق، ص ٤٠٩.

(٦٤) ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢١٦؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ص

٣٩٤-٣٩٥. أما آن كومنيننا فلم تذكر المسير إلى بيت المقدس إلا مختصراً ولم

Anna, p. 352.

تشر إلى السفارة البيزنطية، انظر:

Tudbode, op.cit., p. 106.

- (٦٦) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٣٩٧.
 (٦٧) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٣٩١-٣٩٢.
 (٦٨) انفرد ريمونداجيل بذكر هذه الرسالة - ويذكر أنها سقطت في قبضة الفرغ حيث كانت معلقة في رجل حمامة زاجلة. انظر: المصدر السابق، ص ٢٢٥، حسن عبد الوهاب، قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٦.

(٦٩) Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae regis in Expeditione Hierosolymitana, in RHC., H. Occ. Vol. III, p. 397, Fulcher of Charters, op.cit. p. 122.

- (٧٠) تم عزل أرنولف أوف شاكو بطريرك بيت المقدس في أواخر ديسمبر ١٠٩٩م نتيجة اتهامات وجهت له. وكان دايمبرت مندوباً بابوياً صاحب الأسطول البيزوري الذي قدم إلى الشرق، ورافقه في الرحلة إلى الجنوب على ظهر هذا الأسطول بوهمند سيد أنطاكية وبلدوين سيد الرها، وتهمه ألبرت بأنه استولى على كبش ذهبي وأموال نقلها معه إلى الشرق واستمال بوهمند وبلدوين. وكان دايمبرت أسقفاً على ييزا عام ١٠٨٨م وله خبرة طويلة وعلى قدر من التعليم. انظر:

Radulph of Caen, op.cit., p. 704; Albert d'Aix, op.cit., p.p. 511-512.

Albert d'Aix, op.cit., p.p. 539-540. (٧١)

Ibid, pp. 540-548; Hamilton, B., The Latin Church in the Crusader States, (٧٢) London, 1980, p. 55.

وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٤٨٨ ولكنه لم يعط لنا تفاصيل الخلاف.

(٧٣) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٤٦٩، ص ٤٧٢-٤٧٣.

Fulcher of Charters, op.cit., p. 131; Albert d'Aix, p. 515; CF. also: the Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. From French by J. Shirtey, 2 vols. Amsterdam, 1974, p.21.

Mattheiu d'Edesse, Charonique (962-1136) in Bibiotheque Histroaie (٧٤)

Armenienne par Dulaurier, Paris, 1958, p. 229; Albert d'Aix, p. 519.

Albert d'Aix., p. 542. (٧٥) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٤٨٣؛

(٧٦) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٥٥؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق،

ص ٢٥.

Albert d'Aix, pp. 634-635; (٧٧)

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٦٩؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق،

ص ٣١. وكان ذلك في عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م وذكر ألبرت أن ذلك المبلغ كان

سنوياً.

(٧٨) وصل هذا الأسطول في أغسطس ١١١٠م / محرم ٥٠٤هـ وكان على ظهره

سيجورد ملك النرويج، للمزيد انظر:

Flucher of Chartres, op.cit., pp. 199-200; Albert d'Aix, op.cit., pp. 640-

651.

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٧٥؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق،

ص ٣٤-٣٥؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٩٠، ص ١٣٦؛ سعيد عبد

الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ ج، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣١١؛ رانسيما،

المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٣.

Albert d'Aix, op.cit., pp. 690-693. (٧٩)

Fulcher of Chartres, op.cit., p. 203. (٨٠)

(٨١) الكامل، ج ٩، ص ١٤٥؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩١.

(٨٢) المصدر السابق، ص ٥٤٢. ويذكر أيضاً أن هذا الشخص كان مسلحاً وارتد

وأعطاه بلدوين اسمه وجعله في حاشيته. ولم تشر المصادر الأخرى إلى ذلك.

(٨٣) عن جهاده انظر: محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١١ وما بعدها.

Matthieu d'Edesse, op.cit., pp. 106-108; Bar Hebraeus, The Chronography, (٨٤)

ed. and Trans. by E.A. Wallis Budge, 2 Vols. Oxford, 1932, p.

Albert d'Aix, op.cit., p. 700.

(٨٥)

(٨٦) ذكر ابن القلانسي أن ذلك كان «بتدبير وموافقة طغتكين»، انظر: ص ٢٩٨-٢٩٩؛ «وقيل بل خافه طغتكين» كما أشار ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٥٠.

(٨٧) توجه بوهمند لمساعدة جبرائيل حاكم ملطية الأرمني بناء على دعوته ضد غازي صاحب سيواس، ويذكر ابن العبري أنه تم دفع مائة وعشرين ألف دينار. للمزيد:

Albert d'Aix, pp. 524-525, An. Syric. Chron, I., P. 74, Bar Hebraeus, op.cit., p. 237.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٩٨-٤٠٠؛ محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٧٠.

(٨٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٩٩؛ حسين عطية، أنطاكية، ١٢٧.

(٨٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥١١؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٩٠) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥١١-٥١٢، ح (٤).

(٩١) أشار ابن الأثير، إلى قصة الرجلين، أما أنا كومنين فتعطى تفاصيل الحصار

(٩٢) والمجاعة. انظر: الكامل، ج ٩، ص ٩٦. Anna, p. 357.

Albert d'Aix, pp. 651-652.

وأشار ابن القلانسي إلى الخلاف والاتفاق «وأصلح بيمنده أمره مع الملك ودخل عليه ووطئ بساطه»، ص ٢٦٣، وكذلك: جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٢٥٥-٢٥٧.

(٩٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٩-١١١، ص ١٢٩.

(٩٤) ابن الأثير، نفسه، ص ١٢٧.

(٩٥) يحدد ابن الأثير المبلغ باثنين وثلاثين ألف دينار، ويحدد ابن القلانسي الخيول بعشرة، ويجعلها ابن العبري عشرين، وكذلك أربعين بالة من الثياب، ويضيف

ألبرت دأكس إطلاق سراح الأسرى وهدايا قيمة من الذهب والفضة انظر ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص ١٤١، ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٧٣؛

Albert d'Alix, p. 685, Bar Hebraeus, p. 244.

(٩٦) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤١؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥٢١، ٥٢٧؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٤١٨-٤٢٠.

Bar Hebraeus, op.cit., p. 244.

(٩٧)

(٩٨) المصدر السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٩٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥٢٣. أما وليم الصوري فيرجع سبب فك الحصار إلى أن المحاصرين رأوا أنه لا توجد إمكانية للنجاح وذهبوا إلى حلب. المصدر السابق، ص ٥٤٤-٥٤٥؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٠٠) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥٤٣؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٠٦، أما موقع حسن القبة فهو غير معروف على وجه الدقة. نفس المصدر، ص ٣٠٦، ح (١).

(١٠١) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٩٠٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٣٨-٣٩.

Michel Les Syrien, op.cit., p. 244.

(١٠٢)

Ibid.

(١٠٣)

(١٠٤) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٦٤٠، محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٠٣.

(١٠٤) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق د. محمود علي مكى، الرباط، بدون تاريخ، ص ٢٤-٢٥.

(١٠٦) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥؛ وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٥١٦-٥١٧.

(١٠٧) قتل بوهمند الثاني على يد الأمير غازي بن الدانشمند عندما باغته عند عين

زربة انظر: Bar Hebraeus, op.cit., p. 255.

وأشارت المصادر العربية إلى هذا الخلاف انظر: ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦١٠-٦١١.

(١٠٨) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٦٥٨-٦٦٢. أما ابن القلانسي فذكر وقوع هذه الأحداث في محرم ٥٢٧هـ / نوفمبر ١١٣٢م. المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(١٠٩) يذكر كيناموس أن ريموند كاد يقع في الأسر ولكنه نجح في التغلب على مجموعة من الكشافة الرومان - وهي زواية مختلفة. انظر:

Kinnamos, deeds of John and Manuel Comnenus, Trans. by Charles M. Brand, New York, pp. 22-23.

ويسميه ابن العبري بيدوي (Bedewi)؛ Bar Hebraeus, p. 258.

(١١٠) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٦٩٦-٦٩٧.

Kinnamos, op.cit., pp. 24-25. (١١١)

O. City BYZANTIUM, Annals of Niketas Choniates, Trans. by H.J. Ma(١١٢) goulas, Detroit, 1984, p. 18.

Anno, syric, Charon II, p. 279. (١١٣)

(١١٤) الكامل، ج٢، ص ٣٠٢.

(١١٥) ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦٢٨-٦٣٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ٧٧-٧٩؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٥٠-٣٥٧؛ محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٩٦.

Bar Hebraeus, op.cit., p. 264. (١١٦)

(١١٧) المصدر السابق، ص ٧٠٥-٧٠٦.

(١١٨) المصدر السابق، ص ٤٢٦.

- (١١٩) الكامل، ج٩، ص ٣١٣؛ مفرج الكروب، ج١، ص ٨٨.
- (١٢٠) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٧٠٥-٧٠٦؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٦٢-٣٦٣.
- (١٢١) المصدر السابق، ص ٧١١؛ Benvenisti, op.cit., pp. 149-150.
- (١٢٢) المصدر السابق، ص ٤٢٧. ولم يشر وليم الصوري أو ابن القلانسي إلى اسم هذا الوالي ولا شك أنه ليس إبراهيم بن طرغت الذي كان قد استشهد أثناء مواجهة ريموند بواتيه أمير أنطاكية، انظر المصدر السابق، ص ٤٢٦.
- (١٢٣) نفسه، ص ٤٥٢؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٧٤٢-٧٤٣؛ Rohricht, Geschichte, pp. 238-239.
- (١٢٤) كان رئيساً لأساقفة المصيصة وذكر وليم القصة كاملة دون أن يحدد العام الذي مات فيه. ويجعله هاملتون في عام ١١٤٤ م. انظر: وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٧١٥-٧١٩؛ Hamilton, op.cit., pp. 30-37.
- (١٢٥) هناك صلة قرابة بين إيمري وبطرس أرميون متولى قلعة أنطاكية، ولكن هاملتون يذكر أننا يجب أن نأخذ بحذر اتهامات وليم له لأنه كان بطريركا ورفض مثل أسلافه أن يتخلى عن سيطرته على كنائس صور في إمارة طرابلس بينما كان وليم رئيساً لأساقفة صور. انظر: Hamilton, op.cit., p. 39.
- (١٢٦) Kinnamos, op.cit., pp. 62-63, Niktas, op.cit., pp. 37-38.
- (١٢٧) Kinnamos, op.cit., p. 67.
- Odo of Deuil, De Profectione Ludavici VII in Orientem, the Journey of Louis, VII to the East, ed. & Trans. by Virginia Gingerick Berry, New York, 1948, pp. 89-93.
- (١٢٩) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٧٦٢؛ Ano. Syric, Chron, II. p. 298.
- (١٣٠) Niktas, op.cit. p. 39.
- (١٣١) Niktas, op.cit. p. 39.

Odo of Deuil, op.cit., pp. 89, n.5; 93, n.I.

(١٣٢)

وكذلك محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ١٤٥-١٤٧.
(١٣٣) عن العلاقة بينه وبين ريموند انظر: زابوروف، الصليبيون في الشرق،
ص ١٨٤-١٨٥.

(١٣٤) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٧٨٣-٧٨٧.
(١٣٥) كانت هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها ثييري الأراضي المقدسة، فقد زارها
قبل ذلك في عام ١١٣٧ م. أما عن ترشيح جاي سيد بيروت انظر: رانسيما،
المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٥٦.

Michel les Syrien, op.cit. III, p. 276.

(١٣٦)

Ano. Syric, Chron II, pp. 298-299.

(١٣٧)

Bar Hebraeus, op.cit., p. 274.

(١٣٨)

ولم يورد ميخائيل السرياني هذه الرواية بمفرده، بل أشار إليها أيضاً وليم الصوري
والمؤرخ السرياني المجهول أيضاً.

Chronique d'Ernoul , et de Bernard le Tresorier, ed. M. L. de Mas Latrie, (١٣٩)
Paris, 1871, p. 12.

ومؤلف هذا المصدر برنارد متولى الخزانة في دير القديس بطرس في كوربي
بفرنسا، وينتهي عند عام ١٢٣١ م. وربما أضيف هذا الاتهام للجماعتين بعد
ازدياد النقد الموجه ضدهما في أوروبا بسبب سياستهما وأملاكهما الواسعة. عن
ذلك انظر:

Prawer, Military Orders and Crusaders, in the Geistchichen Europas, 26,
1980, pp. 225, ff.

(١٤٠) المصدر السابق، ص ٧٨٧.

(١٤١) بدء حصار الصليبيين لدمشق، في ٦ ربيع أول ٥٤٣ هـ/ ٢٦ يوليو ١١٤٨ م،
وكان ملك بيت المقدس ونبلأؤه يحاصرون الجهة الشرقية، والملك الألماني

والفرنسي من جهة الميدان الأخضر، وذكر سبط ابن الجوزي أن أنر راسل «السواحلة» وخوفهم وعرض عليهم تسليم بانياس في مقابل ترحيل الفرخ «الغرياء» فحسنوا لهم ذلك ورحلوا. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٥٣-٢٥٤؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ص ١٩٧-١٩٨.

(١٤٢) عن موقف سيد الجليل انظر أيضاً: على السيد، إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسى فى الصراع الصليبي الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، الإسكندرية ١٩٨٨ (رسالة ماجستير لم تنشر بعد)، ص ٤٢٠.

(١٤٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٢٣.

(١٤٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٦٩.

(١٤٥) يذكر المؤرخ السريانى المجهول أن جوسلين وعد التركمان بدفع رشوة للتركمان إذا أخذوه إلى قرية النصارى وتم الاتفاق معهم على دفع ستين ديناراً ولكن أحد الصباغين اليهود عرفه ودل عسكر نور عليه فقُبضوا عليه. ويذكر ابن العبري أن نور الدين دفع للتركان ألف دينار بعد إحضارهم له. انظر:

Ano. Syric, Charon II, p. 301; Bar Heraeys, op.cit, p. 276.

(١٤٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٦٩؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦٦٦.

Michel Les Syrian, op.cit., III, p. 343.

(١٤٧)

وظلت حتى نجاح السلطان الأشرف خليل فى استردادها فى رجب ٦٩١هـ/ يونيو ١٢٩٢م. وسميت قلعة المسلمين الأشرفية. انظر: بييرس المنصوري، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٣٠-١٣١؛ وكذلك محمود عمران، السياسة الشرقية، ص ١٨٥ وما بعدها.

(١٤٨) ذكر مؤلف البستان الجامع أنها عرضت مائة ألف دينار وحدد مكان القبض عليه بالقرب من العريش، انظر: البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، لمؤلف مجهول، نشر كلود كاهن فى : B.E.O. VIII, 1938, p. 131.

- (١٤٩) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٥٠٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٩٦، المقرئ، اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، تحقيق د. جمال الدين الشيال. القاهرة، ١٩٩٧، ج ٢، ٣، تحقيق د. محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٣، ج ٣، ص ٢١٥-٢٢٠.
- (١٥٠) يذكر وليم الصوري أن نصر لجأ إلى تعلم اللاتينية وأبدى استعدادة للتحويل إلى النصرانية - وربما لجأ إلى ذلك حتى لا يتم إعادته إلى القاهرة. انظر: وليم الصوري، المصدر السابق، ص عن مصيره : راجع المقرئ: اتعاط الحنفا، ج ٣، ص ٢٢٠-٢٢١.
- (١٥١) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٩٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦٦٩. أما ابن القلانسي فيشير إلى دور امرأة يهودية أنزلت حبلا إلى عسكر نور الدين اقتحموا البلد من خلال ذلك البرج. ص ٥٠٤.
- (١٥٢) صحبه في هذه الرحلة رؤساء أساقفة صور وقيسارية وأساقفة عكا وصيدا واللد وبسبسطية وطبرية. وكان البابا أناستاسيوس الرابع قد أصدر مرسوماً منح الاستبارة امتيازات خاصة أثارت الأساقفة اللاتين في الأراضي المقدسة خاصة فيما يتعلق بالعشور. وتطور الأمر إلى صدام بين أنصار الجانبين. انظر: وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٨٣٥؛ Hamilton, op.cit., pp. 72-73.
- (١٥٣) رالي سميث، جماعة الاستبارة، ص ٣٩٢-٣٩٣، ويذكر أنه من الصعب قبول ذلك عن البابا أدريان الرابع لما هو معروف عن شخصيته.
- (١٥٤) المصدر السابق، ص ٨٥٧-٨٥٨؛ Hamilton, op.cit., p. 76.
- (١٥٥) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٨٦٧.
- (١٥٦) عبد القادر محمد إبراهيم الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ج ١، نشر حمد الجاسر، الرياض بدون تاريخ، ص ٥٦٤.
- أما أبو شامة فقد ذكر قدوم نجم الدين أيوب إلى دمشق في عام ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ. المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٣.

(١٥٧) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٨٩٣.

(١٥٨) نفسه، ص ٨٩٩، وكذلك:

Schlumberger, G., Campagnes Du roi Amaury I de Jerusalem en Egypte au XII siecle, Paris, 1966, pp. 117-119.

(١٥٨) ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٥١؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٣-١٤٥.

(١٦٠) أبو شامة، نفس المصدر.

(١٦١) البستان الجامع، ص ١٣٧؛ ويذكر المقرئ في الرواية في الخطط، ج١-١، ص ٢٨٢، وانتهت هذه الحملة بعودة عموري وشيركوه إلى بلاد الشام في شوال ٥٦٢هـ/ أغسطس ١١٦٢م وقدم شاور لشيركوه خمسين ألف دينار، وللفرنج مائة ألف وشحنة لهم بالقاهرة. انظر: البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق: د. فتحية النبراوي، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ٥؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(١٦٢) وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٨٩٠-٨٩١، وقد ذكر وليم سقوط بانياس وتوابعها في عبارة مختلطة، فأشار أن ذلك كان في العام الثاني من حكم عموري أي ١١٦٧م كما ورد في نص عبارته. وربما خلط بين الأمرين فالعام الثاني يعني ١١٦٤م لأن عموري حكم في ١١٦٣م إلى عام ١١٧٤م وهي صحيحة لأن بانياس سقطت في هذا العام، أما عام ١١٦٧م فيبدو أن هناك عبارة سقطت قبله لأن هجوم نور الدين على بقايا الإمارة كان في هذا العام كما ذكرت المصادر العربية.

(١٦٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٤٦٩-٤٧٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٦، ١٥٢-١٥٣؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٥٢؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٩ وعن الهجوم على هونين انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ٥-٦؛ أبو شامة، المصدر السابق،

- ج١، ص ١٤٧، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٨٦؛
 Benvenisti, op.cit., p. 151.
- (١٦٤) ولیم الصوری، المصدر السابق، ٩٣١-٩٣٢؛ وعن ميلون انظر نفس المصدر،
 ص ٩٧٤-٩٧٥.
- (١٦٥) المصدر السابق، ج١، ص ١٥٥.
- (١٦٦) نفسه.
- (١٦٧) ولیم الصوری، المصدر السابق، ص ٩٣٩.
- (١٦٨) نفسه، ص ٩٤٣.
- (١٦٩) نفسه، ص ٩٤٦.
- Nikitas, op.cit., p. 94. (١٧٠)
- Kinnamos, op.cit., p. 209. (١٧١)
- Michel les Syrian, op.cit., (in RHC Doc Arm.) L., p. 369 (١٧٢)
- أما ما ذكره رانيمان نقلا عن ميخائيل السرياني بأن صلاح الدين حاول رشوة
 اليونانيين فلم يشر إلى ذلك وإنما ذكر أن بعض الأشخاص حذروا ملك القدس
 من البيزنطيين وذلك لأنهم يعتزمون الاستيلاء على مصر لحسابهم الخاص، ونص
 الرواية:
- Le Tribut auquel les Egyptiens S'étaient obligés lui fut payé eu une somme
 d'or, et ils s'engageaient pour l'avenir, eu lui d'annant des otages car Youcouf
 (Saladin) n'était pas encore en mesure de repousser les Franks, CF. Michel
 les Syrian, op.cit., pp. 369-370.
- انظر: رانيمان، المرجع السابق، ص ٦٢٧.
- (١٧٣) المصدر السابق، ج١، ص ١٨٠، وعن الأسباب الأخرى لفشل الحملة انظر:
- محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٣١٢-٣١٨.
- (١٧٤) أشارت بعض المصادر إلى أن ابن مصل، وأخرى إلى زين الدين على الواعظ

- بأنه الذى أخبر صلاح الدين بأمر هذه المؤامرة، أما وليم الصورى فقد ذكر وصول مبعوث الحشيشية إلى عمورى قبل تنفيذ هذه المؤامرة ولكنه أشار إلى أن سبب قدومه بخلاف هذه المؤامرة. أما مبعوث عمورى الذى أشارت إليه المصادر العربية فهو «جرج» كاتب عمورى. عن ذلك انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٦٥-٩٦٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٤؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٥؛ المقريزى، السلوك، ج ١، ص ٢٤٥؛ سعيد عاشور، الحركة، ص ٧٣٠-٧٣٢.
- (١٧٥) أشار وليم إلى أن الذى دافع عن بانياس هو زوجة نور الدين وليس ابن المقدم كما ذكرت المصادر العربية، انظر: ص ٩٦٩-٩٧٠.
- (١٧٦) الكامل، ج ١٠، ص ٦٠.
- (١٧٧) مرآة الزمان، ص ٣٢٤-٣٢٥.
- (١٧٨) ابن واصل المصدر السابق، ج ٢، ص ٧-٨، أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣١.
- (١٧٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٤٢-٧٤٣.
- (١٨٠) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٨٢.
- (١٨١) نقلا عن أبى شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٩.
- (١٨٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٧-٦٨.
- (١٨٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة بدون تاريخ، ص ٨٢.
- (١٨٤) ويذكر أبى طىء أيضاً أنهم «ضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى» انظر أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٧-٦٨.
- (١٨٥) المصدر السابق، ص ٧٨٣-٧٨٤. وكانت حارم فى عهد نور الدين مركزاً

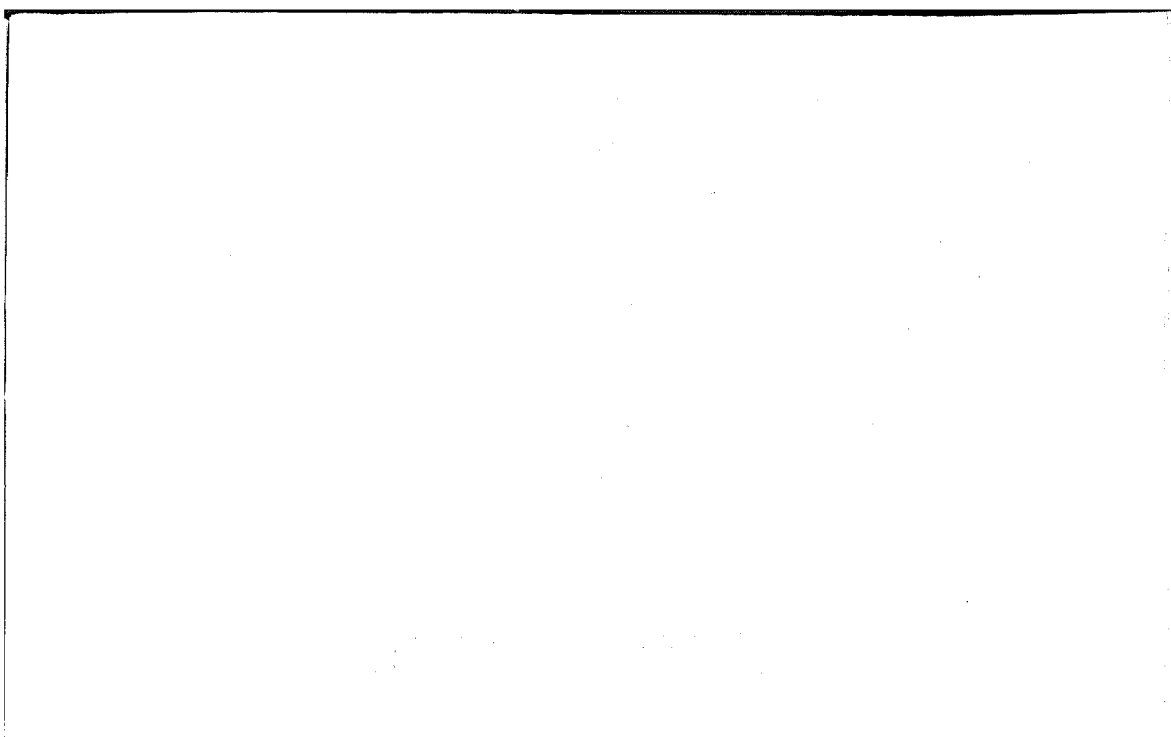
- هاماً إذ رتب بها مشعلين يوقدان ليلاً ليهتدي بهما من يهرب من بلاد الفرخ من أسارى المسلمين وحاول الفرخ رشوته بمبلغ عشرين ألف دينار مقابل إزالتهما لكنه رفض ذلك. انظر: ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٤.
- (١٨٦) العماد الكاتب (عماد الدين الأصفهاني)، البرق الشامى، تحقيق الدكتور مصطفى الحجارى، عمان ١٩٨٧، ص ٥٤.
- (١٨٧) المصدر السابق، ص ٧٨٠.
- (١٨٨) نفسه.
- (١٨٩) رانسيما، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٧٠-٦٧١.
- (١٩٠) وقعت هذه النوبة أو الواقعة أثناء خروج صلاح الدين عند الرملة وكاد يفقد حياته وذلك فى أول جماد ثان ٥٧٣هـ/ ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م. انظر عن تفاصيل الواقعة فى العماد الكاتب: البرق الشامى ج ٣، ص ٣٦-٤١؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٣؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.
- (١٩١) أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣١.
- (١٩٢) العماد الكاتب، البرق، ج ٣، ص ٥٢-٥٣.
- (١٩٣) المصدر السابق، ص ٩٨٩.
- (١٩٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٤-١١٥. ويذكر بنفنىسى Benve-nisti أن هذا الحصن كان يحرس الطرق عند وادى اليرموك ويشرف على بلاد المسلمين. انظر: p. 293-294.
- (١٩٥) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٣٩-١٠٤٠.
- (١٩٦) تجدر الإشارة إلى أن وليم الصورى أخطأ فى ذكر أن صلاح الدين هو الذى استولى على الحصن، أما السبط فيذكر أنه تم فتحه «وقتل من فيه». انظر المصدر السابق، ص ٣٦٩.
- (١٩٧) محمد بن تقي الدين عمر، مضممار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: د. حسن حبشى، القاهرة بدون تاريخ، ص ٩٥؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ١١٠-١١١؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٤-١١٥.

- (١٩٨) المصدر السابق، ص ١٠٤٩-١٠٤٨.
- (١٩٩) النويرى، نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٣٨٢.
- (٢٠٠) محمد بن تقي الدين، المصدر السابق، ص ١٠٦-١١١.
- (٢٠١) أبو شامة، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٠؛ ولیم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٧٨-٩٧٩.
- (٢٠٢) أبو شامة، ج٢، ص ٣١.
- (٢٠٣) المصدر السابق، ص ١٠٤٩.
- (٢٠٤) العماد الكاتب، البرق الشامى، ج٥، تحقيق وتقديم الدكتور فالح صالح حسين، عمان ١٩٨٧، ص ١٧. وأشار ولیم أيضاً هل كان ذلك بدافع شخصى أم تلبية لطلب الأمراء.
- (٢٠٥) أشار محمد بن تقي الدين إلى أن الرسالة وصلته عندما كان متوجهاً إلى حلب. انظر: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.
- (٢٠٦) ذكر رورشت احتمالاً لهذا الخطاب فى نوفمبر ١١٨٢م / رجب ٥٧٨هـ وهو تاريخ متأخر، فقد ذكر ابن شداد أن صلاح الدين عدل عن حصاره عن حلب الذى كان فى ٢١ جماد أول / ٢٢ سبتمبر وتوجه نحو القرات وأرسل خطابه هذا عندما توجه إلى البيرة، ولذا فالتاريخ الثانى هو الأصح، انظر: ابن شداد، النوادر، ص ٩٤؛ Rohricht, Geschichte, p. 399.
- (٢٠٧) كان ابن شداد هو المبعوث للخليفة العباسى، ص ٩٥، كذلك: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٧٦-٧٧٩.
- (٢٠٨) عن علاقة صلاح الدين بهمفرى كافل المملكة انظر: ولیم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٨٣.
- (٢٠٩) ابن شداد، النوادر، ص ١٤٥.
- (٢١٠) أبو شامة، المصدر السابق، ج٢، ص ١٣١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ١٧٣؛ ولیم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٢٤-١٠٢٥؛
- Bar Hebraeus, op.cit., pp. 310-311; Hamilton, op.cit., pp. 46-47.

- (٢١١) رانسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٥١-٧٥٢، حـ (١).
Hamilton, op.cit., pp. 186-187.
- (٢١٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٥٨-١٥٩.
- (٢١٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٣٩٧.
- (٢١٤) السيوطي (أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد)، إتحاف الأخصا
بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: د. أحمد رمضان، ق ١، القاهرة، ١٩٨٢، ص
٢٦١.
- (٢١٥) أبو شامة، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩٥، وكذلك : ابن الأثير، المصدر
السابق، جـ ١٠، ص ١٥٦-١٥٧؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٢، ص
٢١٥. وكذلك حسن عبد الرهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، الإسكندرية،
١٩٨٩، ص ٧٦، حـ (٦٤).
- (٢١٦) زابوروف، المرجع السابق، ص ٣٢٧.
- (٢١٧) والي سميث، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٣؛ ص ١٣٣؛ رانسيمان،
المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٩٩.

وضع المرأة فى الشرق اللاتيني

Jean Richard, Le statut de la femme dans l'orient latin.
in. in: Variorum Reprints, (London, 1976), pp.: 377-388)



وضع المرأة فى الشرق اللاتينى

إذا كان الشرق اللاتينى قد جذب المؤرخين وبالأخص أولئك الذين يطلق عليهم اسم الأكاديميين الذين ينتمون إلى المعاهد. ولقد ازداد هذا الاهتمام بالأخص فى الأعوام الأخيرة وسبب هذا الاهتمام هو أن الشرق قد ظهر وكأنه أرض خصبة عليها نمت وترعرعت صلات ممتدة بين اللاتين الذين أتوا من الغرب وهؤلاء الشرقيين الذين مثلوا الحضارات المختلفة والذين تواجدوا ونموا فى هذه المنطقة ويقصد بمنطقة الشرق ومنذ وقت طويل والتساؤل الذى يفرض نفسه دائماً هو معرفة إلى أى مدى قد نجح هؤلاء الوافدون الجدد أن يقوموا بإدخال وزرع عاداتهم وأفكارهم التى أتوا بها من وطنهم الأم فى هذه البلاد وأيضاً من جهة أخرى إلى أى حد أو درجة استطاعوا أن يتطبعوا وأن يتأثروا بتلك العادات والأفكار التى وجدوها فى هذه البلاد الجديدة القديمة التى استقروا بها؟ وأيضاً الشرقيون التى امتدت جذورهم فى أرضهم هذه قد استطاعوا أن يتقبلوا طرق العيش وأن يتكيفوا معها خاصة أن المجتمع اللاتينى كان جديداً عليهم. كل هذه التساؤلات فى الواقع ذات أهمية كبرى خصوصاً فى غياب الوثائق أو الكتب التى تتصف فى هذا الموضوع أو المجال مما نتج عن هذا عدم وجود إجابة صحيحة مئة بالمئة.

أما بالنسبة للمصادر التى استعنا بها لتأليف هذا العمل والقول هنا بالطبع للمؤلف:

(أ) فهى تشمل تلك النصوص التى تم جمعها من قوانين أو مجامع القدس Les Assises de Jerusalem على الرغم من أن هذه النصوص تنتمى إلى حد ما إلى حقبة متأخرة. ولقد وجدنا أيضاً نصوص نادرة

جداً وهى تلك النصوص التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى

. Les Assises de la Cour aux Bourgeois

(ب) والقوانين القضائية التى وضعت للمدنيين لم تصنع كتابة إلا فى عام

١٢٤٠م (p. 348).

— وكتب جان دى ابلين Jean d'Iblin وفيليب دى نوفار Philipe de Novare وهذه الكتابات أو المؤلفات قد صيغت بعد ذلك بحوالى ٢٠ عاماً. مما يجعلها تؤرخ بتلك الفترة التى حدثت فيها الغزوات أو التحركات العسكرية الأولى فى حوالى بداية القرن الثانى عشر وهى الفترة التى نعتقد فيه أن التمازج الذى حدث بين المجتمع الأفرنجى وبين المجتمع الشرقى قد وصل إلى درجة الذروة. فقرارات المجامع أو المجالس العليا القضائية جعلتنا نتعرف على الوضع الخاص أو الشخصى للمرأة النبيلة أو الحرة. وحقوق هذه فى امتلاك اقطاعيات كانت موضوعاً لمناقشات عديدة وكثيرة من جانب جان دى ابلين Jean d'Iblin ونوفار Novare ولكن الجميع اتفقوا على أنه كان يوجد نص صريح فى القانون يقر بأحقية الفتاة فى وراثة الاقطاعيات. ولكن فى الواقع كان يوجد شرط وحيد للتصريح بذلك هذا الشرط هو أن جميع الورثة من الذكور يفضلون على الفتيات فى إرث المقاطعة أو الاقطاعية إذا كانت القطع أو الاقطاعات الموروثة من قبل الأبوين عددها أقل من عدد الأولاد وأيضاً فإن الترتيب فى الميلاد بالنسبة للفتيات يلعب دوراً كبيراً فى هذا الموقف فمثلاً الفتاة الكبرى ترث اقطاعية بأكملها بعد أن يكون كل الذكور قد نالوا حقوقهم من الإرث أما البقية فيقتسمن ما تبقى، ويتوقف هذا الحق أيضاً إذا كان يشرف على الاقطاعية ولو فارس واحد.

— هذا الشرط يوضع على جانب فيحق الإرث للبنات مثلهم مثل

الذكور. وكان القانون أيضاً يتيح للمرأة أو السيدة حق امتلاك الاقطاعية عن طريق الشراء ولكن جان دى ابلين Jean d'Iblin قد رفض واستنكر هذا القانون خصوصاً بالنسبة للفتيات اللاتى لم يتزوجن.

وعلى أى الأحوال فإن ملكية اقطاعية بالنسبة للمرأة تلزمها بالتزامات لا تجب على النبيل أو الوريث الذى يمتلك اقطاعية. فهى يجب عليها أن تخضع خضوعاً كاملاً للأمير أو الحاكم وأن توفى بنصيبها إليه من الهدايا والعطايا والهبات وحتى إقراضه مثلها فى ذلك مثل الرجال. ويوجد أيضاً التزام آخر وهى أى المرأة يجب أن توكل بمهام إدارة اقطاعيتها هذه إلى أحد الفرسان أو تجعلها تحت رعايته طالما أنها كانت غير متزوجة ولكن فى هذا الوضع إذا رفض الملك أو الأمير أو الحاكم أن يمنحها هذا الحق فإنها فى هذه الحالة تكون مضطرة أن تتخذ زوجاً لها.

ولذلك فإن قانون حق التولى أو امتلاك الاقطاعيات خال دائماً صارم جداً حيال هذه الجزئية فى الشرق اللاتينى والذى بقيت فيه القوات المحاربة هيكلية فالأمير أو الحاكم لا يستطيع اعفاء اقطاعية واحدة من القيام بمهامها. والقانون يقول إن على السيدة التى تود أن تحتفظ باقطاعية قد ورثتها أو اشترتها الزواج من سيد يستطيع أن يديرها ويرعاها باسمها وإلا تعرضت للعقاب الشديد.

وكانت الفتاة التى تبلغ الثانية عشر وتمتلك اقطاعية كانت مضطرة للزواج من فارس يكون قد اختاره لها مليكها أو أنه من الممكن أن يكون الوصى عليها الذى هو فى الواقع أميرها ثلاثة فرسان من حقها أن تختار واحداً منهم لتتزوجه.

وإذا لم يكن كلام فيليب نوفار Philippe Novare له مجالاً للشك فيجب أن نصدقه عندما يقول أو يرى أن السيدات النبيلات كن يتزوجن

حسب إرادتهن. ولكن هذه الحرية التى تمتعن بها والتى كانت من الممكن أن تجعلهن يتزوجن من أزواج دون مستواهن دفع ملك بيت المقدس ومعاونه أن يقرروا أن هؤلاء السيدات يجب أن يحصلوا على تصريح منهم بالزواج والموافقة على الزوج ونتيجة لذلك فإننا نجد أنه حتى الأبوين قد فقدوا حقهم فى اختيار الزوج لابنتهم وجاء هذا النص فى القانون: «إن السيد يمتلك القدرة أو من حقه أن يزوج السيدة أو الفتاة عندما يريد وبمن يريد».

وعلى أى الأحوال فإن النصوص حوت فقط بالنسبة للأرامل على الآتى:

«إن الملك لا يستطيع إجبارهن على الزواج بواحد بعينه فهو لهذا السبب يترك لهن الحرية للالتقاء بين ثلاثة فرسان أو يطلق عليهن بارونات وذلك بعد مرور واحد ويوم تظل أو يسمح للأرملة أن تنتحب وتخرن على زوجها المتوفى.

ونحن نعرف أن هذه الأوضاع قد اختلفت بعد أحداث عام ١٣٦٩م والذي كان من أهم سماته هو عصيان النبلاء القبارصة ضد الملك بطرس الأول Pierre I.

ولكن هل التقييم التاريخي لهذه الأحداث الذى كتبه نوفار Novare كان دقيقاً فنحن لا نعرف فى الحقيقة القيمة لتلك الروايات أو الأحاديث المتداولة التى استقى منها معلوماته وقام بتدوينها.

- ومسألة الزواج الخاصة بالنساء المالكات للاقطاعات قد أوجد العديد من التأويلات والتفسيرات وذلك لتحديد من هو السيد الذى يستطيع أن يرغم السيدة على الزواج خصوصاً إذا كانت مالكة أو تمتلك لعديد من الاقطاعات نتيجة لزواجها بأكثر من زوج أى أن الزوج الأول يكون توفى فترث منه ثم تتزوج بآخر بعد وفاة الأول فيتوفى أيضاً وهكذا. ولكى نعرف

أن المرأة التي تخطت سن الستين (التي نتيجة للسّن قد فقدت القدرة على الإنجاب) كانت تستطيع أن ترفض الزوج الذى يفرض عليها.

ولكن الآراء كلها اجتمعت على أن الطمع كان له النصيب الأكبر فى مسألة زواج هؤلاء السيدات. فلقد كان السادة يتكالبون على هذا الزواج وذلك للإثراء من وراءه. ولقد كتب جان دى ابلين Jean d'Ibelin أن السادة من الأوصياء كانوا أيضاً يقومون بإعاقه زواج الوريثات الذين يشرفون عليهن من أجل التمتع بعائد هذه الاقطاعات لأطول وقت ممكن. وآخرون يضعون هؤلاء الوريثات تحت المزايدة. وطبقاً لقرارات المؤتمر المسيحى الذى أقيم فى نابس عام ١١٦٣ م أو ١١٧٤ م هذه القرارات تقول أو تبيح أنه فى حالة وقوع الملك أسيراً فى أيدي المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم السراكنة (les Sarrauns) فمن الممكن للنواب أو مجلس الأوصياء أو النواب أن يقوموا ببيع أملاك الوريثات لدفع ديته وتحريره.

ويؤكد جان دى أبلين أنه إذا كان الأبوان يريدان تزويج ابنتهما من رجل معين فإنهما يجب أن يحصلوا على موافقة السيد بواسطة مبلغ من المال يدخل إلى خزانة الدولة.

وإذا طرحنا جانباً هذا النظام المميز أو الخاص فى مسألة الزواج بالنسبة للمرأة النبيلة أو التى تنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية العليا لا يختلف كثيراً عن وضع المرأة التى تنتمى إلى طبقات الدنيا أو الطبقات الشعبية. فهذه كذلك يجب أن تحصل على موافقة الزوج كى تلجأ إلى القضاء حتى لو كانت هذه المسألة ترتبط بجريمة قتل. وهذا نص القانون : «إن المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تلجأ إلى العدالة ولو كان هدف اللجوء هو جريمة قتل إلا بعد أن تحصل على موافقة الزوج».

وكانت المرأة تستدعى إلى قاعة مغلقة فى المحكمة كى تشاهد زوجها

يدافعها عنها حتى لو أدى ذلك إلى تهديده باستخدام الأسلحة. ولكنه إذا رفض الزوج الدفاع عنها فهي تستطيع أن تلجأ في هذه المسألة إلى بطل أو فارس آخر كما لو كانت بالضبط في وضع الآنسة غير المتزوجة.

في المسائل المدنية فإن الزوج هو أيضاً الذى يأمر زوجته أن تلجأ إلى القضاء وهذا يسمح لها بالحصول على مدة أو فسحة من الوقت حينما يكون مسافراً أو هارباً من شيء ما أن تلحق به.

بالنسبة للتجارة فإن السيدة أو المرأة كانت من الممكن أن تعمل بالتجارة وهي أيضاً في هذا تكون تحت سيطرة الزوج الكاملة الذى يكون مسئولاً في هذا الوضع على أن يقوم بسداد الديون إذا تراكت عليها.

وفي الحقيقة أحب أن أنوه هنا أن جميع القوانين التى أصدرتها المجالس والخاصة بشئون الزواج فهي مستقاة من القوانين الكنسية عدا القوانين الخاصة أو التى تتعلق بالشئون المالية والنقدية.

فرباط الزواج الأبدى وواجبات الخطوبة. وأيضاً في حالات الطلاق أو الغاء الخطوبة فإن كل هذه المشاكل تودى إلى مشاكل مادية وكل هذه المشاكل تذكرنا بالغرب المسيحى المنتمى إلى العصور الوسطى.

وكانت القوانين الكنسية فى الواقع تهتم بحماية حقوق المرأة وخصوصاً المادية فإذا كانت المرأة أدينى فى قضية ضرب مثلاً فإن الغرامة أو الدية التى تدفعها تبلغ نصف الدية التى يدفعها الرجل الذى فى نفس الموقف.

وعندما تريد أن تبيع إرثها أو شيء من ممتلكاتها فإنها يجب أن تحضر بشخصها إلى مبنى المحكمة. لتقر البيع وربما كانت مجبرة على البيع أو يمكن لزوجها الاستيلاء على إرثها. ولذلك فإنها عندما تحضر بشخصها إلى المحكمة فإنها تقوم بحلف اليمين أو القسم على أنها غير مجبرة على البيع وأنها تود أن تبيع فعلاً بإرادتها.

وأيضاً فإنه بعض هذه القوانين تعتبر كقوانين توضح أهمية وضع المرأة في هذا المجتمع اللاتيني وكيفية الاهتمام الشديد بتأمين حياتها وخصوصاً حياتها الزوجية فمثلاً يمنع القانون طرد زوجته المصابة بمرض عضال أو خطير كمرض البرص أو الصرع مثلاً إلا إذا قام بإثبات ذلك. فتوضع الزوجة التي يتهمها زوجها ذلك تحت رعاية أو ملاحظة عدد من السيدات لمدة ١٥ يوماً من الممكن أن تزداد إلى شهر وذلك للتحقق من حالة السيدة وإثبات صدق الزوج.

وأيضاً كانت تعامل المرأة معاملة الشخص القاصر الذي يجب على الدولة حمايته حتى لو كانت الحماية ضد الزوج.

إذاً فإن وضع المرأة في المجتمع اللاتيني الغربي هو نفسه كان وضع المرأة في المجتمع اللاتيني الشرقي.

بل ونحن نستطيع أن نقول أن وضع المرأة في الواقع كان أكثر أهمية وأكثر عمقاً في واقع الحياة اليومية خصوصاً في ظل الحياة الشرقية ولنتأكد من ذلك فإننا يجب أن نستعين بمصادر أخرى غير قوانين المجالس أو المجالم فربما تساعدنا هذه الدراسة على التعرف على هذا الوضع حقيقة ولكن يجب أيضاً أن نحذر من بعض المعلومات التي يجب أن ندرسها ونحللها قبل أن نصدقها ونقتنع بها. ومثلاً على ذلك:

رواية تروى عن شخص يدعى نورماند Normand وهو يقال عنه أنه كان حاكم بربروستا يقال عن هذا الحاكم أنه كان يمتلك في قصره مجموعة من الجوارى المسلمات يتسرى بهن وهذا شيء لم يوجد مثيلاً له في الشرق اللاتيني. فنحن نعرف أن نظام الرقيق والرق هذا كان شديد الانتشار في ذلك الزمان والمكان وأن أعداداً من المسلمين كانوا قد بيعوا كعبيد وكانوا السادة اللاتين يتمتعن بهن في قصورهم مما أثأضدهم العديد

من الآراء المضادة التي تندد بتلك العادة الشرقية المذمومة ومن أولئك الذين عفوا باستنكاهم لهذه العادة جاك دى فيترى ولكن مع هذا فإنه لم يقم بالإشارة إليها فى كتاباته.

ونحن نذكر هنا فى هذا المجال بأن حاكم عكا قد أدان وحرم أولئك الذين يصادقون العاهرات ويقومون بمصادقة ومصاحبة وإقامة علاقات مع سيدات متزوجات فى غياب أزواجهن.

ونحن نجد أن الكتابات الوحيدة التى اهتمت بحالة الرق وخصوصاً فى هذا المجال الذى تحدثنا فيه من قبل هم كتابات الجامع أو الكهنوت وهكذا فإن الوضع فى مجمع قبرص الذى عقد فى عام ١٣١٣م يمنع أى كاهن أو رجل دين لاتينى أن يجىء أو يجعل امرأة محط شبهات أن تقيم فى بيته وبالأخص إذا كانت من الجوارى فإذا لم ينفذ هذه الأوامر فإنه سوف يتعرض للطرد.

وأنه على الأخص فإن الاجتماع الذى حدث فى نابلس فى عام ١١٢٠م الذى حرم واتخذ موقفاً متشدداً حيال هذا النوع من الأوضاع وكان هذا فى الوقت الذى كان مازال الفتح اللاتينى فى بدايته ولقد تم إصدار قانون فحواه أن المسيحى الذى يتخذ مسلمة كعشيقة أو كمحظية يجب أن يقبض على هذه المحظية وأن يوقع عليها الجزاء والجزاء هو أن يتجدع أو تكسر أنفها هذا فى حالة إذا كانت موافقة على هذا الوضع وأما فى حالة العكس فكانت لا تمس ولكنها كانت يذهب بها لتخدم فى قصر الحاكم وهكذا فإن الجوارى المسلمات أو الحرائر المسلمات اللاتى يتعرضن للوقوع فى الأسر أثناء سفرهن يستخدمن كخدم للقيام بالأعباء المنزلية وخصوصاً فى المطبخ.

ويوجد أيضاً حدث آخر يوضح لنا وضع المرأة فى بلاد المشرق هذا

الحدث خاص بالمسيحيين الأرثوذكس وليس المسلمين.

فهناك جاك دى فيتري Jacques de Vitery الذى لا يحب ولا يميل مطلقاً إلى العاهرات والذى يقول عنهن أنهن السبب فى كل المتاعب والمشاكل يحدثنا عن دليل قائم ومحدد فهو يذكر لنا أن المسيحيين السوريين يقمن بحجز زوجاتهم على طريقة المسلمين ويضربوا عليهن الخمار أو يحجبونهن ويخفونهن عن الأنظار.

بطبيعة الحال فيوجد هنا بعض المبالغات فإن المؤرخين كانوا يبالغون فى تصوير العادات الشرقية التى كانوا يرونها شديدة الانحلال.

ومنذ عام ١١٢٥م نجد أن فوشيه دى شارتيير Foucher de chartres وهو مؤلف مشهور ومتفرد قد تعرض أو أشار فى كتاباته للزواج المختلط الذى كان يجمع بين الإفرنج اللاتين من الغرب وهم من اليونانيين والأرمن وبين السوريين ومن الغريب أيضاً أن نعرف أن بعض المسلمات قد عمدن.

هناك بعض الدلائل التى تؤكد امتزاج التقاليد والعادات. فكهنة نيقوسيا لم يكفوا عن محاربة فى القرن ١٣ وال ١٤ عادة البكاء على المتوفى وأيضاً عادة استئجار الندابات المحترفات.

ولكننا نستنتج من ذلك كله أن شهادة الكتاب الشرقيين لا تتفق مع كتابات أو مدون القسيس أو الأرشيودوق Eveque وذلك يرجع إلى كونه رجل ولد فى الغرب واستنبت فى الشرق.

ولنرى الآن وجهة نظر الشرقيين فى هذا المجتمع اللاتينى فنجد أنه وجد أمير يدعى الأمير أسامة قد صدم بالعادات الغربية لهذا المجتمع الذى سبق الإشارة إليه. ولقد روى الأمير أسامة أنه رأى أحد الرجال الإفرنج يقود ابنته فى الحمامات الشعبية ليقوم بغسلها وسط الرجال وعندما استفسر منه الأمير عن سبب هذه الفعلة. أدار له الرجل رأسه موضحاً له أن والده الفتاة قد

ماتت وأنه لا يوجد أحد يقوم بغسل شعرها ولذلك فإنها اصطحبها معه ليقوم هو بهذه المهمة.

وأيضًا تلك الرواية الأخرى التى رواها رجل يعمل فى إحدى الحمامات الذى طلب منه فارس من الفرسان الإفريج أن يقوم بنزع الشعر الذى فى جسد زوجته. ولقد عقب هذا الرجل على هذا الطلب بقوله: هاهم رجال بدون نخوة ليسوا غيورين وليس لديهم أى كرامة. إذا فعمومًا فإن الشجاعة عند الشرقيين تستنبط من نقطة الكرامة.

ولكى نثبت أن الإفريج يجهلون مسألة الغيرة روى الأمير أسامة بعض الحكايات والأفعال الأخرى التى أكد الأمير أنه كان شاهد عيان بنفسه على أحداثها. فبدأ حديثه بقوله أن الفرنجية أو الإفريج يجهلون الشعور أو الإحساس بالغيرة فيقول لو أن أحدهم صادف امرأته وهى تتنزه مع شخص آخر ويدها فى يده منتحيا بها جانبًا، فإن الزوج فى هذا الموقف يقف ساكنًا وفى وضع لا يشاهد منه. فإذا طال هذا الموقف فإن الزوج ينصرف تاركًا المكان لهم.

ويقول الأمير رواية أخرى عن ذلك السمسار أو الدلال الذى عاد من نابلس والذى عندما دخل إلى حجرة نومه وجد فى فراشه رجلاً يضاجع امرأته، فصاح الزوج «يا للمصادفة» ثم صاح قائلاً مرة أخرى ما الذى جعلك تدخل وتنام فى فراشى بجانب زوجتى فأجاب العشيق كنت مرهقًا ولقد نمت فى فراشك كى أستريح، ولكن كيف جرؤت أن تدخل إلى فراشى يستطرد الزوج. فيجيب العشيق لقد شاهدت وكأنما سجادة فوق المرتبة فتمت عليها. فيقول الزوج ولكن زوجتى تنام بجوارك فيجيب العشيق السرير ملكًا لها فكيف لى أن أطردها منه. فيجيب الزوج متواعدًا فيقول أنه طبقًا لتعاليم دينه فإنه سوف يقوم بالفصل بين الغطاء وبين المرتبة إذا عاود لفعل هذه الفعلة مرة أخرى.

ويعقب الأمير أسامة على هذه القصة بقوله: هاهى الغيرة عند الإفريج.

ويقول الكاتب بهذا الصدد بأن الأمير السورى أسامة من المؤكد أنه قد نابل مع شخص غير متزن عقلياً.
فقوانين مجلس نابلس تنص على أن المزور كان يعاقب عقاباً شديداً رادعاً.

فى نابلس نجد أن عقوبة الموت قد استبعدت أو ألغيت بالنسبة للمرأة لخائنة واستبدلت هذه العقوبة بالتحريم أو النفى كجزاء لها على جريمتها. إذا غفر لها زوجها أو صفح عنها فإنه يطرد معها من الإمارة بأسرها.
ومجمع أو مجلس الملك عمورى قد أجاز للزوج المخدوع أن ينتقم نفسه من الاثنين ولكن يمنع قتل واحد منهم وترك الآخر. خوفاً من أن يوجه للزوج الاتهام بالقتل ويواجه عقوبة الإعدام شنعاً. إذا فمعنى الكرامة والشرف عند الإفرنج يختلف تماماً ويتعد عن وجهة النظر المسلمة التى يؤمن بها الأمير أسامة. ولكن من الواضح أن الذى يدهش أو يصدم الأمير أسامة أو يظهر استنكاره هو كيف أن المرأة الإفرنجية تتمتع بحرية لا حدود لها. أما بالنسبة لرجل غربى جاك فيتري Jacques de Vitry هذه الحرية تبدو وكأنها مغلوطة ومقيدة للغاية. ولكن كرجل شرقى مثل الأمير أسامة فإن هذه الحرية التى تتمتع بها المرأة الإفرنجية تعتبر حرية مبالغ فيها. وأيضاً إن تلك القوانين التى عددها أرشيدوق عكا فى حوالى ١٢٢٠م تعتبر دليلاً على تغيرات فى العادات، ونلاحظ هنا أن كتابات الأمير أسامة كانت مبكرة عن تلك القوانين التى أصدرها أرشيدوق عكا بنحو خمسين عاماً فإن هذا يدعو للشك. وعكا منذ الحملة الصليبية الثالثة قد اتخذت حاضرة والاضمحلال الذى أصاب المستعمرات الإيطالية وأيضاً لازدياد أهمية عكا التى تتضاعف نتيجة لكونها ميناء هام ولأنها أيضاً تضم خلف أسوارها جزءاً كبيراً من السكان اللاتين الذين كانوا أهل مملكة القدس الأصليين. وأنه مما يبعث عن

الاندهاش هو أن العادات الحياتية أو عادات وممارسات الحياة العادية أصبحت شرقية واصطبغت بالصبغة الشرقية في نفس هذه الفترة الزمنية وأنه مما يعتقد أن جاك دى فيترى Jacques de vitry مثله مثل أسامة قام بتعميم الأشياء وبالغ فيها.

وهكذا فدائماً إن وضع المرأة في المجتمع الإفرنجي في الشرق يظهر لنا وكأنه غربي أكثر منه شرقي. فالمرأة أو La dama كما يطلق عليها العرب تستطيع أن تحكم الإمارة وتمارس شئون هذا الحكم.

في مجتمعات أخرى نجد أن المرأة تستطيع أن تمارس التجارة فهي عند تنقلها من مكان إلى مكان تنتقل وهي محجبة الوجه. وفي الواقع فإن زوجها يترك لها حريتها ولا يعاملها كالحریم. والمجالس أو المحكمة أو الكنائس كانت تستقبل الشاكيات المتهمات لأزواجهن بمختلف التهم فكانت تكفل لهن الحماية. والمرأة كانت تعامل أيضاً كشخص قاصر ولكن هذا لا يمنعها هذا من الحصول على حقوق كثيرة تتيح لها سعة في الحرية يندesh لها الشرقيون وهكذا وعلى الرغم من رد الفعل العنيف أو بعض الأحكام العنيفة نتيجة لتأثير العادات الشرقية فإن وضع المرأة يبقى بوصفه امرأة غربية قد أثبتت أو تم زرعها في الشرق.

وعلى ذلك فنحن نقول أن وضعها لا يبدو وضعاً وسيطاً بين وضعها في الشرق وأيضاً كوضعها في الغرب.

الزنا (الدعارة) : واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي
في الحرب الصليبية الأولى
جيمس أ. برونديج

James A. Brundage, Prostitution, Miscegenation and
Sexual Purity in the First Crusade. In: Crusade and
Settlement, ed. by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp.
57-65.

لقد كانت الحرب الصليبية الأولى - فى البداية - بمثابة حج وعملية تكفير لذنوب المشتركين فيها. فأمل الصليبيون فى أن تمحو عنهم تلك الحملة خطيئتهم وتخلصهم من الكفارة المستحقة على ذنوبهم^(١). ويعتبر الفحش الجنسى جانباً أساسياً من الخطيئة التى أحس بها الصليبيون عن يقين. وفى الواقع أجمع من كتبوا حول الموضوعات الأخلاقية فى العصور الوسطى على أن ممارسة الجنس شىء نجس، عمل آثم يندس الجسد والروح معاً^(٢)، وهكذا كان من الصعب أن يكون الجنس بأى شكل على وفاق مع المثل العليا للحياة المسيحية، وحتى فى الزواج، كان الجماع يشوبه دائماً نحو من خطيئة الشهوة الجنسية. ولكنه فى نفس الوقت كان لازماً على الزوجين إقامة علاقات جنسية عند الحاجة. مع الامتناع عن الجماع لفترات قصيرة برضاء الطرفين^(٣) اتباعاً لتعاليم القديس بول (1 Cor. 7 : 5) فضلاً عن ذلك فقد تضاربت الأقوال فى كتب الغفران إبان بداية العصور الوسطى حول الزام المتزوجين بالابتعاد عن الجماع خلال فترات هامة من العام الكنسى: خلال الصوم الكبير، والآحاد الأربعة، وأيام الأحد، والأعياد (ووقفات) وعشيات الأعياد الكبير، والأسبوع الذى يسبق عيد الخمسين، وعند البعض، خلال كل أيام الأربعاء والجمعة والسبت على مدار العام^(٤). أما الأشخاص الذين يؤدون كفارة مثل الحجاج على سبيل المثال، فهؤلاء كان يجب عليهم الامتناع التام عن الجنس^(٥).

هذا القرض الرقابى للجنس، نمت بشكل أكثر وضوحاً إبان فترة الإصلاح الجريجورى Gregorian Reform^(٦) فقد ردد نفس تلك الآراء أصحاب السلطة الدينية الكبار أثناء فترة الإصلاح خاصة الأسقف بورشارد Bishop Burchard of Worms (٩٦٥ - ١٠٢٥ م) والأسقف إيفو Ivo of Chartres (1040 - 1116) وهؤلاء لم يقوموا فقط بحظر العلاقات الجنسية غير المشروعة بكل أشكالها فى أى وقت وتحت أية ظروف ولكنهم

رددوا نفس القيود المتعددة التي وضعها الكتاب الأوائل حول العلاقات الجنسية بين الزوجين بل وأضافوا غيرها من عندهم^(٧). وتعد آراء (إيفو) ملائمة لتفهم المواقف تجاه الشئون الجنسية للمشاركين في الحرب الصليبية الأولى إذ أنه ألف أعظم مقالاته الدينية Decretum, panormia بين عامي ١٠٩٤، ١٠٩٦ في نفس الوقت الذي بدأت تتشكل فيه الحركة الصليبية^(٨). والقيود التي أوردها (إيفو) حول العلاقات الجنسية لم تكن خاصة به وحده إذ نجد أفكاراً مشابهة تشيع في كتابات معاصريه مثل زميل دراسته رئيس أساقفة كانتربري «القديس انسيلم» ١٠٣٣ - ١١٠٩ م St. Anselm of Bec ورئيس الدير «جيبيرت» Abbot Guibert of Nogent (١٠٥٣ - ١١٢٤ م) والذي كان أحد المؤرخين الكبار للحرب الصليبية الأولى^(٩).

وعلى ضوء ما تقدم، فليس من المدهش أن نجد الكتابات المعاصرة للحرب الصليبية تتخذ موقفاً متشدداً تجاه الأنشطة الجنسية للمشاركين في تلك الحملة. وهذا البحث سيتناول مشكلة الأخطاء الجنسية للصليبيين ومعالجتها على يد الكتاب المعاصرين. وسأتناول أربعة موضوعات رئيسية:

- مشاركة المرأة في الحرب الصليبية الأولى ودورها في الجيش الصليبي.
- علاقات الصليبيين الجنسية غير المشروعة.
- زواج الصليبيين من النساء غير اللاتينيات.
- الاعتداء الجنسي المتبادل خلال الحرب الصليبية الأولى.

عندما أعلن «البابا أريان الثاني» Pop Urban II الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٥، فإنه لم يتوقع مشاركة المرأة في هذه الحملة، والمؤرخون الذين سجلوا خطبته في كليرمونت Clermont يذكرون أنه منع النساء من المشاركة في الحرب الصليبية^(١٠)، فأوربان ومعاصروه أرادوا أن تكون هذه الحملة خالصة للرجال، وتصف الخطابات الرسمية بالإضافة إلى كتابات الشعراء

والمؤرخين مناظر مروعة يهجر منها الرجال زوجاتهم بينما تتحسر الزوجات أسفًا على فقدان صحبة وحماية رفقاتهن^(١١). ولكن فى الحقيقة لم تقتصر الحرب الصليبية كلية على الرجال فقط، ولم تقبع كل النساء فى بيوتهن بعد رحيل الرجال إلى القدس (أورشليم). فضمت الجيوش المشاركة فى الحرب الصليبية الأولى نساء من أنواع عديدة فكان هناك نساء متزوجات يرافقن أزواجهن وراهبات، وعاهرات، ونساء ذات وضع مبهم^(١٢).

ويبدو أن وجود العاهرات فى الحرب الصليبية قد أصاب بعض المؤرخين بصدمة، فقالوا إن العاهرات والنساء الفاجرات والأنواع الإجرامية الأخرى وغير الشريفة قد لوثت الجيوش الصليبية، وأصبحت الجند بعدوى رذائلهم^(١٣). ويؤكد رئيس الأساقفة «بالدريك» Archbishop Paldric of Dol قيام الصليبيين خلال حصار «نيقية» Nicaea بإغلاق دور الدعارة فى معسكرهم. ويضيف قائلاً إنه على الرغم من مصاحبة بعض الصليبيين للنساء خلال الحصار إلا أنهم كن إما زوجاتهم أو مجرد خادمات لهم^(١٤). وعندما وصل الجيش إلى «أنطاكية» Antioch، عادت المواخير للنشاط من جديد داخل المعسكرات نفسها^(١٥). وهذا أمر بالكاد مدهش، فالجيوش دائماً ما جذبت إليها التابعين (الأتباع)، والحروب الصليبية المتأخرة بالتأكيد كان لها نصيب من بيوت الدعارة المنظمة^(١٦). ويزعم بعض الكتاب الحديثين أن الصليبيين العائدين هم المسئولون عن وجود بيوت الدعارة فى أوروبا الغربية، ولكن هذا ليس صحيحاً، فالغرب كان مليئاً بمثل هذه المؤسسات قبل عام ١٠٩٥م بكثير^(١٧) من العاهرات والنساء الأخريات فى صفوف الجيش الصليبي قدموا عدداً من الخدمات للجنود، فبالإضافة إلى تلبية مطالبهم الجنسية نقرأ عن نساء يساعدن المحاربين أثناء المعركة، يحضرن لهم الطعام والماء، ويمرضهن، ويستحثنهم على القتال^(١٨)، وكما يقول بالدريك Baldric، لعبت النساء وغير المحاربين الآخرين أدواراً هامة فى الاستراتيجية المعنوية للحرب الصليبية،

يتضرعون للرب بالدعاء بينما يحارب الرجال اللاتقون جسدياً^(١٩). وبالتأكيد شاركت النساء أيضاً فى العمليات العسكرية، ويذكر المؤرخون بين الحين والحين أن امرأة لقت حتفها أثناء القتال^(٢٠).

ولكن الغالبية العظمى من الملاحظات الخاصة بالنساء فى سجلات الحرب الصليبية تتعلق بالإغراءات الجنسية التى قدمنها للرجال وخضوع الرجال لهن بصفة متكررة. وأصبحت نزعة الصليبيين للممارسة الجنسية لازمة غالباً ما تتكرر فى الكتابات السردية. وجعل المؤرخون من الممارسات الجنسية لرجال الجيش سبباً فى جميع النكسات التى منى بها الجيش الصليبي^(٢١). فعندما هزم المجرىون صليبي «جوتشاك» Gohschalk الشعبين، ذكر «ألبرت» Albert of Aachen أن السبب فى ذلك كان انغماس الصليبيين فى الزنا^(٢٢). كما أعلن فولتشر Fultcher of Chartres أن كمين «قلج أرسلان» Qilij Arslan للجيش الصليبي فى دوريلايوم Dorylaeum نتج عن فسوق الصليبيين^(٢٣). ولم يكن سجلهم عند «أنطاكية» Antioch بأفضل حالاً حيث انطلقوا بشهوة عارمة لا تعرف أى معنى للاعتدال، واندفعوا حال وصولهم إلى الجنس أكثر وأكثر وإلى الزنا، وأشكال من الفحش لا اسم لها^(٢٤). وعندما ضرب الحصار حول المدينة وبدأت الإمدادات فى التناقص. عدل الصليبيون من أسلوب حياتهم فكوفئوا بالاستيلاء على المدينة. وبمجرد استتباب الأمر بدأوا من جديد علاقاتهم مع نسائهم الفاجرات، فكانت النتيجة الحتمية، كما يذكر المؤرخون عن اقتناع كاف، وصول جيش «كربوغا» Kerbogha ليحاصر الصليبيين داخل «أنطاكية». ومرة أخرى قوم الصليبيون سلوكهم، وعندما فعلوا ذلك نصرهم الرب على كربوغا^(٢٥). هذا الأسلوب ظل قائماً حتى بعد انتهاء الحرب الصليبية الأولى. واستمر الإسراف الجنسي وفسوق المستعمرين اللاتين يتخذ كمبرر للانتكاسات العسكرية التى واجهوها^(٢٦). وقد كان الدرس واضحاً،

فالمسيحيون متيقنون من النصر فى الحياة الدنيا والى خلاص فى الحياة الآخرة، هذا ما داموا يتجنبون الخطايا الشهوانية^(٢٧).

وإذا اعتقد القواد الصليبيون أن التحرر الجنسى سبب الكوارث العسكرية، كما ادعى المؤرخون عن ثقة، فإن الخطة الجلية لتجنب الهزيمة كانت التطهير الجنسى عن طريق إبعاد العاهرات وربما حتى النساء المتزوجات عن المعسكر قبيل المعارك الحاسمة، وهذا بالفعل ما قام به القواد^(٢٨). فمن أجل تحجيم النزاع الجنسية لدى الجنود وبالتالى إحراز النصر، قام القواد بإبعاد العاهرات والنساء غير المرتبطات فى أوقات الخطر^(٢٩). وعلى الرغم من أن ريموند Raimond d'Aguiters اعتبر أن العلاقات الجنسية بين الرجل وزوجته ليست سبباً فى غضبة الرب^(٣٠)، نجد آخرون خافوا من أن أى نشاط جنسى قد يغضب الرب. ومن هنا وجدنا القادة فى أثناء حصار أنطاكية يأمرّون بإبعاد النساء المتزوجات من المعسكر لئلا يخضع أزواجهن للرجبة الجنسية فى عشية المعركة^(٣١)، ويذكر «ألبرت» Albert of Aachen أن عدة آلاف من النساء المبعّدات لجأن إلى مستعمرة محصنة قريبة أقمن فيها حتى استسلمت أنطاكية^(٣٢).

وبالإضافة إلى تجنب الإغراء عن طريق إبعاد النساء، بصفة مؤقتة على الأقل، تحاشى القواد الصليبيون غضبة الرب عن طريق طقوس الاستغفار والتطهير الروحى قبل المعارك الهامة. فتتصف المصادر الأدبية مثل «أنشودة البطولة» Chansons de geste بصفة عامة الجنود وهم يؤدون الاستغفار الجماعى قبل المعارك، وجيش الحرب الصليبية مارس تلك السياسة الروحانية بصفة دائمة^(٣٣)، فقبل مهاجمة قوات كربوغا فى أنطاكية قام الجنود بالصوم لمدة ثلاثة أيام، واعترفوا بخطاياهم، وتناولوا العشاء الربانى، ووزعوا الصدقات^(٣٤)، وقبيل الهجوم الأخير على القدس فى يوليو ١٠٩٩، مارس

الصليبيون بالإضافة إلى ما تقدم نظام جديد لطقوس الاستغفار، ففضلاً عن الصوم، وبذل الصدقات، والاعتراف، والعشاء الرباني، استمعوا إلى وعظ، وساروا عراة الأقدام في موكب استغفار حول المدينة^(٣٥). مثل هذه الممارسات ظلت قائمة حتى الحروب الصليبية المتأخرة، وأصبحت من الطقوس الصليبية الأساسية^(٣٦).

طقوس الغفران هذه لم تظهر للرب فقط أن الصليبيين قد ندموا على هفواتهم الجنسية، والنقائص الأخلاقية الأخرى، ولكنها أيضاً أوضحت للجنود أن قادة الحملة أرادوا إقامة نظام صارم للسلوك الجنسي. ولتأكيد ذلك أصدر القادة مرسوماً صارماً ينص بمعاينة من يخرق القواعد الخاصة بالسلوك الجنسي. وليس من غير المتوقع أن نجد العقوبات غالباً ما تقع على النساء المتورطات أكثر من الرجال. فقد كان ذلك في الحقيقة هو النمط الشائع لتنفيذ القانون في أوروبا أيضاً^(٣٧)، وحسبما يقول «جيبرت» Guibert of Nogent، تعرضت الحبلى من النساء غير المتزوجات إلى التعذيب الشديد atrocibus supliciiis هن وقوادوهن. وربما يكون وصف جيبرت مبالغاً فيه، إذ نعرف أنه كان يعارض الجنس بجميع أشكاله معارضة شديدة^(٣٨)، ويقدم لنا ألبرت Albert of Aachen وصفاً أكثر وضوحاً بل أكثر اعتدالاً، للعقوبة التي كانت تطبق على المتهمين (المتورطين) جنسياً.

«يتم تجريد الزانى والزانية من ملابسهما، ويجبرا على المشى حول الجيش وأيديهما مكبلت خلف ظهريهما، والجلادون يضربونهما بشدة بالعصى حتى يخاف الآخرون من رؤيتهم لتلك المعاملة القاسية، فلا يقفوا في نفس الجريمة»^(٤٠).

وربما يشير هذا الوصف لقضية الراهب وعشيقتة اللذان أدينا بالزنا عن طريق التعذيب بالحديد المتوهج، وجلدا بالسياط عاريان داخل المعسكر

الصليبى كما يخبرنا شاهد آخر^(٤١). وعلى أية حال فإن مثل هذه العقوبات كانت غالباً ما تطبق على المتهمين جنسياً فى الغرب^(٤٢). وقد نبه المؤرخون الصليبيون قرائهم إلى أن مرتكبى الفواحش الجنسية من الصليبيين قد يواجهون موتاً مفاجئاً، كما حدث على سبيل المثال لرئيس الشمامسة وامرأته الأثمين، اللذان قُتلا بطريقة شنيعة على يد عسس تركى فاجأهما بينما كانا يلعبان النرد فى بستان^(٤٣).

ومن المحتمل أن الكتاب الذين وصفوا الحرب الصليبية الأولى قد عكسوا خوف المشاركين فيها عندما وصفوا الفسوق الجنسى لأعدائهم. فقد قدموا لنا المسلمين كمدمنى أشكال فظيعة من الفسوق الجنسى. ووصفهم على أن لديهم شبق خاص لمفاتن المرأة المسيحية العفيفة^(٤٤). وكان ألبرت Albert of Aachen بصفة خاصة مغرمًا بمثل تلك القصص، مثل حكايته عن محاولة أحد الأتراك اغواء عاهرة فاتنة من «تريير» Trier^(٤٥) ووصفه لزواج أرملة صليبية من ملك تركى^(٤٦)، وقد روع الفسوق الجنسى عند البيزنطيين المؤرخ «جيبرت» بصفة خاصة : وهو يذكر أن اليونانيين أدمنوا الإفراط فى الجنس لدرجة أن الحكومة الإمبراطورية ابتكرت نظاماً للدعارة الإجبارية بإلزام كل عائلة بتخصيص حصة من بناتها للحمامات العامة^(٤٧).

لم تكن المغامرات الجنسية بالطبع قاصرة على الفاسقين الأتراك الذين مارسوا أساليبهم القذرة مع النساء المسيحيات العفيفات. ففى فترة مبكرة من الحرب الصليبية، وقع الصليبيون فريسة فى شرك النساء اليونانيات. وسرعان ما بدأ بعض الفرنجة فى تفضيل مفاتن النساء البيزنطيات على مفاتن نسائهم. وهو تطور يصفه جيبرت باشمئزاز كبير. والأسوأ من ذلك، يضيف جيلبرت قائلاً، أن لجأ بعضهم إلى الغلمان اليونانيين المتوافرين فى دور الدعارة التى تديرها الدولة^(٤٨). ومما صدم بعض المؤرخين الآخرين سماع

تخصيص النساء الشرقيات للجنود الغربيين. وقد فاحت عن علاقات الصليبيين بالنساء الشرقيات، كما يقول الراهب ستيفن Stephen أثناء حصار «كربوغا» لأنطاكية، رائحة نتنة بلغت أعنان السماء^(٤٩). إن الصليبيين باستطاعتهم أن ينالوا تأييد الرب فقط عندما يتركوا عشيقاتهم المحليات^(٥٠). وهذا ما فعلوه بالضبط ولكن بصفة مؤقتة. وبالتأكيد كان الوصول الجنسي للنساء المسلمات أمراً سهلاً على الصليبيين. فبالإضافة إلى الدعارة الحرفية انتظر الصليبيون وحصلوا بالتأكيد على خدمة جنسية بالإضافة إلى الخدمة المنزلية من النساء المسلمات اللاتي أسروهن وتبادلوهن فيما بينهم^(٥١).

ولكن لم تكن كل الاتصالات الجنسية بين الصليبيين والنساء الشرقيات غير مشروعة، ففي فترة مبكرة عام ١٠٩٨م أثناء حصار أنطاكية، سجل تيودوبود Tudebode أن كربوغا أباح الزواج من النساء المسلمات كإغراء لجذب انفصاليين عن الجيش الصليبي^(٥٢). وعندما استقر الحال بالرجال اللاتين في الشرق، بدأوا في الزواج من نساء الإقليم. وفي فترة شهيرة من تاريخه الخاص بالمستعمرات اللاتينية التي تلت الحرب الصليبية الأولى، يورد فوشيه Fulcher of Chartres عادة زواج اللاتين من النساء المحليات.

«بينما قد يحصل مستعمر على منزل وأسرة، كحق مكتسب ومورث. فإن مستعمر آخر ربما يتخذ زوجة ليست من نفس الأصل، ولكن سورية أو أرمينية أو حتى مسلمة تم تعميدها»^(٥٣).

وقد أصبح نسل هذه الارتباطات بين الأجناس طبقة اجتماعية خاصة Turcopoles داخل الإمارات اللاتينية^(٥٤).

من الواضح أنه كان هناك شيئاً من التكافؤ بين المستعمرين اللاتين بخصوص العلاقات الجنسية بين أهاليهم وأهالي المسلمين. وقد قام مجمع

نابلس فى عام ١١٢٠م، والذي كان بالفعل، كما يوضح براور Prower، برلماناً أكثر منه هيئة دينية مسيحية بالمعنى المؤلف^(٥٥)، بتطبيق عقوبات صارمة ضد من يقوم من الرجال اللاتين بإقامة علاقات جنسية غير شرعية مع النساء المسلمات .

«إذا ثبت أن أحداً ضاجع امرأة مسلمة برضاها، يخصى الرجل ويقطع أنف المرأة»^(٥٦).

وقد عاقب مجلس نابلس أيضاً النساء اللاتينيات اللاتى مارسن علاقات جنسية مع الرجال المسلمين.

«إذا رضت امرأة مسيحية ممارسة الجنس مع رجل مسلم، يطبق على كليهما عقوبة الزنا، أما إذا اغتصبها عنوة، فهى غير مذنبه، ويخصى الرجل»^(٥٧).

ومخافة أن يتذرع المتهمون بهذه الاتهامات بعدم علمهم بالموقف الدينى لشريكهم. فقد قرر مجمع نابلس أن من يتشبه من المسلمين بالفرنجية يتخذ عبداً^(٥٨). فقرارات مجلس نابلس سعت خصيصاً للحد من العلاقات الجنسية بين المسيحيين اللاتين والأهالى المحليين الذين ظلوا على ولاءهم للإسلام. فالمحظورات استهدفت العلاقات الجنسية على أساس دينى وليس الأساس العرقى. فاللاتين خاصة الرجال، كانت لهم الحرية فى الزواج من امرأة سورية أو أرمنية من المسيحيات أو حتى الزواج من المسيحيات المرتدات عن الإسلام، ولكن الزواج من مسلمة بالفعل كان عرضة لعقوبة صارمة. الديانة إذن، وليست السلالة أو العرق، كانت الناحية التى أكدت عليها قرارات مجلس نابلس.

وأخيراً هناك موضوع الاعتداء الجنسى أثناء الحرب الصليبية الأولى، أحد الاتهامات التى يتهم بها المسيحيون المسلمين هى تهمة دأب المسلمين

على اغتصاب النساء المسيحيات فى المقاطعات التى غزوها. وفى الوصف الذى يقدمه «روبرت الراهب» Robert the Monk لخطبة البابا أوربان الثانى فى كليرمونت نجد البابا يتهم الأتراك بالاعتداء على نساء أناتوليا Anatolia (٥٩). وهناك مؤرخون آخرون يتهمون أعداءهم باغتصاب عاهرات ونساء أخريات أثناء الحرب الصليبية الشعبية (٦٠). واغتصاب الفتيات والنساء الأرمنيّات فى «عرقا» Arqa (٦١) ووضع الأسرى من الغلمان والنساء فى الموابخ (٦٢)، وإباحة الاغتصاب كحافز لجنودهم (٦٣).

ولكن الصليبيين أنفسهم لم يكونوا بمنأى عن اتهامات مشابهة، فأحياناً ما يشير المؤرخون الغربيون إلى اغتصاب وسوء معاملة الجيش الصليبي للنساء (٦٤) وأحياناً ما ارتكب الصليبيون صنوفاً من الاعتداء الجنسى فضلاً عن الاغتصاب. أحد الأمثلة على ذلك حادث وقع أثناء الحرب الصليبية لعام ١١٠١م، عندما قامت الكتائب اللاتينية بفصل نهدي امرأة مسيحية كانت تقوم بالدفاع عن منزلها أثناء هجومهم (٦٥). وبلا وعى ربما يكشف عن موقف الجنود الصليبيين تجاه نساء أعدائهم المهزومين شبه تفاخر فوشيه Flucher بأنه عقب هزيمة كربوغا Kerbogha فى أنطاكية:

«لم يقم الفرنجة بإيذاء النساء اللاتى وجدوهن فى خيام العدو سوى أنهم مرروا رماحهم خلال بطونهم» (٦٦).

ومع ذلك لم يكن المستعمرون اللاتين فى الأراضى المقدسة، على استعداد لإباحة (السماح) بالاعتداء الجنسى على المسلمات اللاتى أصبحن الآن خاضعات لهم. ولهذا نجد برلمان نابلس يضع عقوبات صارمة ضد من يقوم من اللاتين والآخرين بالاعتداء الجنسى على النساء.

«إذا اغتصب أحد بالقوة امرأة مسلمة من أهل بيته، تستبعد هى ويخصى هو. وإذا ارتكب أى شخص اغتصاب بالقوة لامرأة مسلمة من أهل بيت غيره يتعرض لنفس العقوبة» (٦٧).

إن تاريخ الحرب الصليبية الأولى هكذا، فى ضوء الأدلة التى عرضناها، يظهر وبه تكافؤ أساسى فيما يتعلق بالسلوك الجنسى، وبينما حاول رجال الدين وقلة من القادة العلمانيين تحجيم الأنشطة الجنسية للقوات الصليبية، فإن الغالبية العظمى من الجنود لم تنفذ هذه السياسة بحذافيرها. فقد صاحبت الجيوش الصليبية نساء من أنواع عدة، ووقعت بينهن وبين القوات علاقات جنسية منتظمة. وفى الأوقات الحرجة فقط كان لدى القادة، الدينيين والعلمانيين، القدرة على فرض قيود وقتية (طارئة) على الأنشطة الجنسية لاتباعهم، هذه الفترات الحرجة تركزت فى حالة التآهب للالتحامات الكبرى مع العدو. وقد صاحبت هذه الفترات أيضاً نشاط استغفارى محموم من الدعاء والصوم وبذل الصدقات وما شابه ذلك وإنما ما صاحبت الحظر الجبرى للعلاقات الجنسية. هذا التزامن بين الاستغفار والحظر الجنسى والأزمة خلال الحرب الصليبية كان متوازياً بدرجة مذهلة مع إصرار الأخلاقيين الغربيين على ضرورة تجنب المسيحيين للأنشطة الجنسية حتى فى الزواج، فى مواسم الغفران فى السنة الكنسية.

ومن المذهل أيضاً التطور التدريجى لقانون العقوبات المطبق على السلوك الجنسى داخل صفوف الجيش الصليبي. فلا يوجد دليل على وجود مثل هذه القوانين فى بداية الحملة. وعندما نجح الجيش فى محاصرة أنطاكية، مع ذلك، بدأ نوع ما من النظام الجزائى فى الظهور. وتظهر الأدلة أن تنظيم السلوك الجنسى الذى تطور خلال مجرى الحرب الصليبية الأولى، قد ظل قوياً، ربما مع تطورات أخرى، بعد الاستيلاء على القدس (أورشليم) عام ١٠٩٩م، وأن خيرة الجيش الصليبي فى التعامل مع الأنشطة الجنسية لأفراده يتفوق على مثيلتها فى المملكة اللاتينية، فى الشكل الذى وصل إلينا فيه هذا القانون من (قرارات) برلمان نابلس عام ١١٢٠م.

وأخيراً توحى الأدلة التي أوردناها، أن تقديم السلوك الجنسي خلال الحرب الصليبية الأولى وما تلاها يقدم مثالا آخر على تأثير المعتقدات الشعبية في أوروبا الغربية على القواعد العسكرية الصليبية في الشرق اللاتيني.

الهوامش

- J. A. Brundage, *Medieval Cannon Law and the Crusader* (Madison, 1969), 10-18; p. Rousset, *Les origines et les caractères de a première croi-*
sade (Neuchâtel, 1945), 134-7) (١)
- P. J. Payer, *Early Medieval regulations concerning marital sexual rela-* (٢)
tions, *Jaurnal of Medieval History*, VI (1980), 370-1; J.L., Flandrin, *La*
vie sexuelle des gens maris dans l'ancienne sociétés: de la doctrine de
l'église à la réalité des comportements' in sexualités occidentales (Paris,
1982; *Ecole des hautes en sciences sociales, Centre d' études transdiscipli-*
naires, Communications, No. 35), 102-5, M. Douglas, *Purity and Dan-*
ger:An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo (New York, 1966),
3, 130, 132.
- Ivo of Chartres, *Decretum*. 8; 133-4, in PL, clxi incorporated in Garatian, (٣)
Decretum C. 33. 9. 4c. 12 and c. 33a. 5.c.6.
- R. Kattje, *Ehe und Eheverstüchern*, in *Love and Marriage in the Twelfth* (٤)
Century, ed. W. Van Hoecke and A. Welkenhuysen (Leuven, 1981; *Medi-*
avalia Lovaniesia, ser. 1. no. 8), 339; Payer, *Early medieval regulations;*
pp. 365-7.
- Payer, *Early medieval regulations*, pp. 369-70. (٥)
- J. Lechereq, *Monks on Marriage, a twelfth-century view* (New York, (٦)
1982), 64.
- Burchard, *Decretum*, 19: 5 (PL, cx), 960) (٧)
- P. Fournier and G. Le Bras, *Histoire des collections canoniques en occi-* (٨)
dent depuis les fausses décrétales jusqu ' au Décret de Gratien (Paris,
1931-2) ii, 55-7, 105-6.

St. Anselm, *De nuptiis consanguineorum*, (PL, clviii, 559) and *Oratio IV* (٩)

Guibert of Nogent, *Self and Society in Medieval France*, ed. and trans.

J.F. Benton (New York, 1970), 66.

وعن وجهة نظر انسلم وأيفو عن الصليبية انظر: برونديج.

Robertus monachus, *Historia Iherosolimitana*, RHC Oc. III, 729-30. (١٠)

وعن وجهة نظر أريان انظر خطابه المؤرخ في ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ إلى شعب بولونيا.

D.C. Munro, *American Historical Review*, xi (1906), 237.

Fulcher of chartres, *Historia Hierosoly mitana* (1095-1127) ed. Hagen- (١١)

meyrer (Heidelberg, 1913), pp. 169-3; Urban II, Letter to the Bolognese,

HE p. 108; Letter of the Patriarch of Jerusalem (January 1098) in HE p.

148; Ivo of Chartres, *Epistolae*, p. 125, 245.

Albert of Achen, *Historia Hierosolymitana*, RHC Oc., iv, 281, 288, 317; (١٢)

Fulcher, pp. 183, Baldric of Dol, *Historia Jerosolim, tana*, RHC Oc., iv,

17; Guibert of Nogent, (*Gesta Dei per Francos*, RHC, Oc., iv, 251.

Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 142; Ekkhard of Aura, *Hierosolymita*, (١٣)

RHC. Oc., v, 19; Albert of Aachen, pp. 272, 291; Orderic Vitalis, v, 16.

Baldric of Dol, p. 28. (١٤)

وأخذ بنفس روايته الدريك فيتاليس ، ٥ ، ص ٥٤ .

Baldric of Dol, p. 66; *Gesta Francorum, Iherusalem expugnantium*, RHC (١٥)

Oc. III, 498-9.

Richard of Devizes, *Chronicle*, ed. J. T. Appleby (Edinburg, 1963), 47-8; (١٦)

James of vitry, *letters*, ed. R.B. Huygens (Leiden, 1960), 117-18; *Life of*

St. Louis, Trans. R. Hague (New York, 1955), 66.

- G. Schönfeldt, Beiträge zur Geschichte des Pauperismus und der prostitution in Hamburg (Weimar, 1897; Sozialgeschichtliche Forschungen, vol. 2) 81-2; R. Lewinsohn, A History of Sexual Customs, Trans. A. Mayce (New York, 1958), 145; J.A., Brundage, Prostitution in medieval Canon Law, Signs, i (1976), 825-45.
- Baldric of Dol, p. 34; Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, (118) ed. and trans. R. Hill. (Edinburgh, 1962; (GF); Pierre Tudebode, Historia de Hierosolymitano itinere, ed. J.H. Hill and L.L. Hill (Paris, 1977), 52; Orderic Vitalis, v, 60.
- Baldric of Dol, p. 107. (119)
- Tudebode, p. 65; Albert of Aachen, p. 228; Fulcher, pp. 431-2. (120)
- Rousset, Les Origines, p. 86; R.Hill, Crusading Warfare; A Contemporary's view, in Proceedings of the Battle Conference on Anglo-Norman Studies, i (1979), 79. (121)
- Albert of Aachen, p. 295. (122)
- Fulcher, p. 196; Hill, Crusading Warfare, p. 79. (123)
- Historia et gesta ducis Gotfridi, RHC Oc., v. 466. (124)
- GF., p. 58; Fulcher, p. 243; Robertus monachus, p. 821; Historia et gesta ducis Gotfridi, p. 478; Gesta Francorum Iherusalem expugnatium, pp. 499-501; Orderic Vitalis, v. 98. (125)
- Walter the Chancellor, Bella Antiochena, ed. H., Hagenmeyer (Innsbruck, 1896) 62; Fulcher, pp. 622-4; Hill, Crusading Warfare, p. 80. (126)
- Albert of Aachen, p. 416. (127)
- Fulcher, pp. 222-3; Rousset, Les origines, pp. 146-7; Hill, Crusading Warfare, p. 76. (128)

- Baldric of Dol, p. 66; Albert of Aachen, pp. 378-9, *Historia et gesta ducis* (٢٩)
Got fridi, pp. 467, 478, 488.
- Raymond d' Aguilers, *Le Liber de Raymond d' Aguilers*, ed. J.A. Hill and (٣٠)
 L.L. Hill (Paris, 1969), 97.
- Fulcher, p. 223. (٣١)
- Albert of Aachen, p. 365. (٣٢)
- Rousset, *Les origines*, p. 124. (٣٣)
- GF, pp. 67-8; Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 205; Robertus monachus, (٣٤)
 p. 827; *La chanson d'Antioche*, 7. 33, 11. 959-64, ed. Paris, (Paris, 1848)
 ii, 192; Orderic Vitalis, v, 100; letter of the clergy and people of Luca
 (October 1098) in HEP., p. 164; Rousset, *Les origines*, p. 87.
- GF, p. 90; Raymond d' Aguilers, p. 144; Albert of Aachen, pp. 470-1; (٣٥)
 Gilo, *Historia gestorum viae nostri temporis Hierosolymitane*, RHC Oc.,
 v, 797; Letter of Archbishop Daimbert to the Pope (Septmber 1099) in
 HEP, p. 171.
- Fulcher, pp. 493-4, ORderic Vitalis, v, 178; James of Vitry, *Letters*, pp. (٣٦)
 117-18.
- (٣٧) برر كتاب القرن الثاني عشر الميلادي أحياناً هذا التفاوت في المعاملة على أساس
 أن جنس الذكورة له وقار أكثر من الأنوثة. انظر:
- Huggucio, *Surmma* to D. 26 c. 2, in Cambridge, Pembroke College, MS
 72, fol. 127 ra.
- وبالتأكيد فإن القانون طالب بعفة أكثر من المرأة عن الرجل، كما لاحظ
 الكاردينال هوستينس، وفي معظم الحالات، فإن الوضع القانوني للمرأة كان
 أقل مرتبة من الرجل، وطبقاً لهوستينس والذي أمدنا بكتالوج لهذا، حيث

يتضح صواب ذلك. أما بعض المؤلفين فقد رأى أن جميع النساء على الأقل
متساوون على الرغم من الفوارق الاجتماعية.

- Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 182. (٣٨)
 Guibert of Nogent, *Self and Society*, pp. 14-18. (٣٩)
 Albert of Aachen, p. 379. (٤٠)
 Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 182. (٤١)
 Eleanor of Arborea, *Commentaria*, 22 (1708 ed., p. 57); Perugia, *Statuta* (٤٢)
 3083, 88 (Perugia, 1523-8), fol. 33 va, 34vb.
 Albert of Aachen, pp. 370-1. (٤٣)
 Tudebode, p. 92 (٤٤)
 Albert of Aachen, pp. 327-8. (٤٥)
 Albert of Aachen, p. 436 (٤٦)
 Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 127 (٤٧)
 Guibert of Nogent, *Gesta Dei*, p. 133. (٤٨)
 Tudebode, p. 99. (٤٩)
 Fulcher, p. 243. (٥٠)
 Fulcher, p. 403, Guibert (*Gesta Dei*, p. 127). (٥١)

ويوضح أن الرق كان عادة غير معروفة لدى اللاتين، وهي رواية غير طبيعية
 بشكل واضح. وعلى أي حال، فإن اللاتين سرعان ما عودوا أنفسهم على عادة
 تجارة الرقيق في الشرق الأدنى.

- Tudebode, p. 109 (٥٢)
 Fulcher, p. 748. (٥٣)
 Raymond d'Aguilers, p. 55; Albert of Aachen, p. 434; J. Prawer, *The Lat-* (٥٤)
in Kingdom of Jerusalem, (London, 1972), 340, R.C. Smail, *The Crusad-*
ers in Syria and the Holy Land (Lodnon, 1973), 182-3.

J. Prawer, *Crusader Institutions* (Oxford, 1980), 15-16; H. E. Mayer, *The Concord at of Nablus*, *Journal of Ecclesiastical History*, xxxiii (1982), 531-43.

Council of Nabuls, c. 12; in J.C. Mansi, ed., *Sacrorum Conciliorum nova et amplissima collectio* (Paris, 1901-27), xxi, 264.

Counci of Nablus, c. 15, Mansi, 264. (57)

Counci of Nablus, c. 17, Mansi xxi, 264. (58)

Robertus monachus, p. 728. (59)

Albert of Aachen, p. 288. (60)

Albert of Aachen, p. 358. (61)

Raymond d'Aguilers, p. 130. (62)

Ramond d'Aguilers, p. 155 (63)

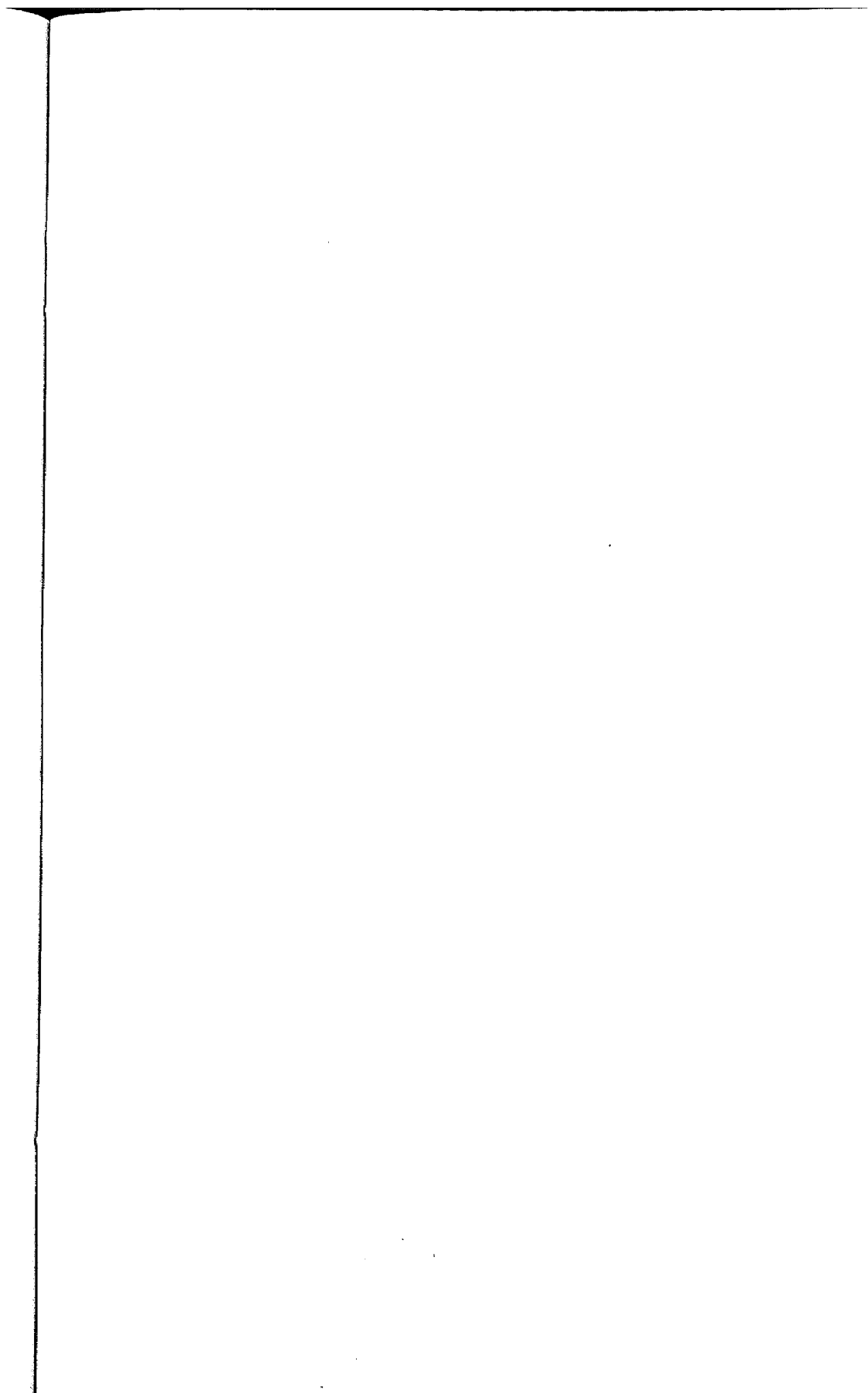
Guibert of Nogent , *Gesta Dei*, p. 143. (64)

Albert of Aachen, p. 560. (65)

Fulcher, p. 257. (66)

Council of Nablus, c. 13-14, Mansi xxi, 264. (67)

مصر وأمن البحر الأحمر
في عصر الحروب الصليبية



يمثل البحر الأحمر محوراً هاماً من محاور الصراع الصليبي الإسلامي. فعلى مدى المائتي عام التي شغلتها أحداث هذا الصراع رسم الجانبان استراتيجيتهما واضعين في اعتبارهما أهمية هذا البحر. فقد سعى الصليبيون منذ البداية إلى السيطرة عليه. غير أن الكارثة التي حلت بهم في آسيا الصغرى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ جعلتهم يعيدون حساباتهم مرة أخرى بعد انقطاع الطريق البري عبر آسيا الصغرى. وعقب انقضاء السنوات العشر الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي ونجاح الصليبيين في الاستيلاء على موانئ الشام الجنوبية - عدا صور وعسقلان - عاد الاهتمام مرة أخرى بالبحر الأحمر ونجح الصليبيون في إيجاد قاعدة لهم عند أيلة وجزيرة فرعون في عام ١١١٦م/٥١٠هـ. وفي العقود التالية حرص الصليبيون على إحكام قبضتهم على هذه المنطقة بإنشاء سلسلة من القلاع على طول الطريق ما بين مصر والشام. وسقوط عسقلان في عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ تحولت الأطماع الصليبية إلى مصر ذاتها وذلك أثناء السباق بين عموري الأول ونور الدين محمود نحو امتلاكها. غير أن هذا المشروع الصليبي منى بالفشل الذريع وقامت الدولة الأيوبية في مصر والتي وضعت استراتيجيتها على أساس إعادة الطريق بين مصر والشام، ويعنى ذلك في المقام الأول ضمان أمن البحر الأحمر. فكانت أولى خطوات صلاح الدين الأيوبي استرداد أيلة في ٥٦٦هـ/١١٧٠م. وشن حملات ضارية ضد الكرك أو بالتحديد بارونية ما وراء الأردن وسيدها آنذاك رينالد دي شاتيون (المعروف في المصادر العربية باسم أرناط) الذي كان أول من أدرك خطر التهديد الأيوبي على إمارته، ومن جانبه بنى أيضاً سياسته على عدة أسس: شكل البحر الأحمر جانباً أساسياً منها. فعقب فشله في ضم شبه جزيرة سيناء ومهاجمة الدفاعات المصرية شرقى النيل، قام بمشروعه في البحر الأحمر وكان مصيره أيضاً الفشل الذريع. ولم يتعلم «أرناط» الدرس من مصير أسرى حملته، بل عاود

تهديد القوافل وتهكم على الرسول ﷺ فكلفه ذلك حياته.

واستمر صلاح الدين فى سياسته الرامية لضمان أمن البحر الأحمر سواء من عند مداخله الشمالية أو الجنوبية وكذلك بطول ساحليه الشرقى والغربى. فنجح فى إبعاد الأخطار التى هددته ووفر له الأمن الاقتصادى من ناحية أخرى.

وسار الأيوبيون بعده فى الحفاظ على أمن هذا الشريان الحيوى فاحتفظوا بالكرك أحد المراكز الهامة لضمان أمن البحر الأحمر ولم يفرطوا فيها أثناء جميع المفاوضات بينهم وبين الصليبيين وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث تحولت الاستراتيجية الصليبية إلى أن مفاتيح القدس موجودة فى القاهرة قلب العالم العربى ومركز إمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح. وعلى الرغم من قيام دولة بنى رسول فى اليمن فقد استمر الأيوبيون فى حفاظهم على أمن هذا البحر وضمانه.

أما نظرة المماليك فقد كانت أشمل. حيث ربطوا بين الكرك والحجاز واليمن، خاصة مع ازدياد المحاولات الرامية لاختراق هذا الأمن من ناحية الصليبيين وكذلك التتار وذلك لتهديد الأماكن المقدسة من ناحية وشل حركة التجارة فيها من ناحية أخرى. وازدادت محاولات فرض الحصار الاقتصادى على مصر للقضاء على حركة الجهاد الإسلامى. وفطن المماليك لهذا فازداد حرصهم على ضمان أمن البحر الأحمر الشريان الرئيسى لموارد دولتهم آنذاك.

وعلى صفحات هذا البحث عرض لأهم هذه الأخطار فى عصر الحروب الصليبية والتى هددت أمن هذا البحر. وكان أبرزها الخطر الصليبي سواء من جهة مملكة بيت المقدس أو محاولات التعاون مع دولتى النوبة والحبشة النصرانيتين لاختراقه من جهة الجنوب. كذلك برز خطر سكان

جزر سواكن ودهلك على الملاحة والسفن المارة بهما. ومن ناحية البر كان خطر قبائل البدو أو العربان الذين انتشروا على سواحل الشرقية والغربية وعند شبه جزيرة سيناء ومنهم من تعاون مع الصليبيين فازداد بذلك خطرهم على أمن هذا البحر. ولاشك أن القوى الإسلامية التي حكمت مصر سواء من الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك نجحت في القضاء على هذه الأخطار جميعاً وتمكنت من إحكام قبضتها عليه لتجعل منه بحراً إسلامياً خالصاً. وبلغ من حرص المماليك على هذا البحر أنهم منعوا وصله بالبحر المتوسط، وكما يقول الحميرى فى «الروض المعطار» صفحة ٤٦٦ :

«وقد رام بعضهم فيما سلف أن يوصل بحر القلزم وبحر الروم حرصاً على عمارة الأرض ونخصب البلاد ومنافع العباد فمنع ذلك خشية تتوصل الروم بسبب ذلك إلى غزو الحجاز».

ولابد من الإشارة إلى أن المقالات التى قدمها الأستاذ الدكتور محمد حسنين ربيع عن موضوع البحر الأحمر كان لها فضل كبير على الباحث فى توضيح كثير من النقاط التى تبرز على مدى صفحات البحث. كما أن لمؤلف الدكتور عطية القوصى عن تجارة مصر فى البحر الأحمر الفضل فى الكشف عن الأهمية الاقتصادية لهذا البحر. وإن كانت هذه المؤلفات لم تركز بصفة أساسية على أمن البحر الأحمر ودور مصر فى الحفاظ عليه خلال عصر الحروب الصليبية وهو محور هذه الدراسة. كما أننى أفدت من مؤلفات أساتذتى فى الحروب الصليبية. وذيلت البحث بملحقين أحدهما يتناول وصف أرنولد لحملة أرناط. والثانى ينشر لأول مرة من مخطوط «الفضل المأثور» لشافع بن على ويتضمن أحد وصايا المنصور قلاوون لابنه الأشرف خليل والذى يوضح مدى حرص سلاطين المماليك على ضمان أمن البحر الأحمر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قبيل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس فى يوليو ١٠٩٩م/ شعبان ٤٩٢هـ، عقدوا اجتماعاً عند الرملة أثّرت فيه فكرة الزحف على مصر مباشرة، للاستيلاء عليها مما سيؤدى إلى امتلاك القدس والإسكندرية والقاهرة وممالك كثيرة. غير أن المشروع اعترض عليه البعض، بسبب قلة القوات وعدم معرفتهم بهذه الأرض الغريبة مما يجعل فرص الاحتفاظ بهذا النجاح قليلة^(١). وعلى الرغم من انفراد ريمونداجيل بهذه الرواية إلا أنها توضح اهتمام الصليبيين بمصر. وربطهم بينها وبين القدس منذ بداية الحملات الصليبية^(٢). وعقب سقوط القدس تولى جودفرى دى بويون (١٠٩٩-١١٠٠م/ ٤٩٢-٤٩٣هـ) الحكم تحت اسم حامى القبر المقدس، وضمت أملاكه يافا وبيت لحم واللد والرملة وطبرية ونابلس والقدس. كما اهتم بمنطقة ما وراء الأردن حيث هاجم القبائل فى هذه المنطقة وأجبرها على إحضار الهدايا. كذلك أعد حملة للاستيلاء على حيفا، والتي سقطت بعد وفاته^(٣). ونلاحظ أن الاستراتيجية الصليبية لم تتضح أهدافها بعد فى هذه المرحلة القصيرة التى حكم فيها جودفرى، على الرغم من أنه يمكننا أن نتبين حرصه على ضم ميناء آخر إلى جانب يافا، لكى يضمن اتصاله بالغرب الأوروبى وسط هذا المحيط الإسلامى الذى يحيط به.

أما بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠-١١١٨م/ ٤٩٤-٥١٢هـ) فقد أظهر اهتمامه منذ بداية حكمه بمنطقة ما وراء الأردن، والتي تربط بين الشام ومصر والحجاز، فقام بحملته الاستكشافية فى هذه المنطقة من ١٥ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر ١١٠٠م، فاتجه عبر منطقة ما وراء الأردن ووادى موسى وشبه جزيرة سيناء حيث اتضح له مدى أهمية هذه المنطقة من الناحية الاستراتيجية لعزل مصر عن بلاد الشام وهو هدف أساسى سعى الصليبيون لتحقيقه منذ بداية حركتهم^(٤) ولكنه اضطر خلال السنوات العشر التالية إلى تركيز سياسته للاستيلاء على مدن ساحل الشام. وذلك بعدما

حلت بالطريق البرى عبر آسيا الصغرى الكارثة التى نزلت بحملات عام ١١٠١م^(٥). غير أنه لم يهمل هذه المنطقة الجنوبية تماماً فقد وضع الصليبيون أقدامهم عليها بعد الاستيلاء على الخليل. وعبر بلدوين نهر الأردن مرة ثانية فى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ. واخترق وادى عربية وواصل إغاراته على القبائل الموجودة فى المنطقة، لكى يجبرها على الخضوع له من ناحية، ولزيد من الاستكشاف لهذه المنطقة من ناحية أخرى^(٦). غير أنه لم يتمكن فى هذه المرحلة من أن يحصل على قاعدة له فيها^(٧).

عاد اهتمام بلدوين بمنطقة ما وراء الأردن، للوصول منها إلى شبه جزيرة سيناء، وذلك بعد أن حقق أهدافه فى الاستيلاء على مدن الساحل الشامى، حيث لم يتبق فى قبضة الفاطميين سوى صور وعسقلان، فهادن دمشق من أجل التفرغ لهذه المنطقة، ويشير جان ريتشارد إلى عقده اتفاقاً مع قبائل هذه المنطقة فى عام ١١١٢م/٥٠٥-٥٠٦هـ^(٨). ثم خرج على رأس حملتين فى عامى ١١١٥ و ١١١٦م/٥٠٩ و ٥١٠هـ. وانتهت الحملة الأولى بنجاحه فى تشييد حصن أطلق عليه مونتريال. وذلك عند موقع الشويك^(٩). وبهذا الحصن استطاع السيطرة على وادى عربية، مما أدى إلى منعه عبور القوافل المارة بهذه المنطقة إلا بعد موافقته، كما نجح بلدوين فى الحصول على مركز متقدم له فى هذا الموقع^(١٠). أما الحملة الثانية والتى خرجت فى عام ١١١٦م/٥١٠هـ فقد استطاع بلدوين خلالها الاستيلاء على أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة وعلى جزيرة فرعون حيث أقام قلعة بها^(١١). ولاشك فى أن ذلك كان أول خطوة صليبية هددت أمن البحر الأحمر. حيث استمر هذا التهديد قرابة نصف قرن أو يزيد. كما سيطر تماماً على الطريق المعتاد للقوافل بين مصر والشام والحجاز، مما اضطر هذه القوافل إلى أن تسلك طرقاً بعيدة. كما أن الحج انقطع عبر هذا الطريق وتحول إلى طريق عيذاب جنوباً على البحر الأحمر^(١٢). أما ما ذهب إليه د. يوسف

غوانمة من أن بلدوين نجح فى التحكم فى تجارة البحر الأحمر فهذه مبالغة واضحة، لأن هذه السيطرة تتطلب أيضاً التحكم فى مدخله الجنوبى وميناء عيذاب الميناء الرئيسى على الساحل المصرى وهو ما لم يستطع بلدوين تحقيقه^(١٣).

استمر بلدوين الأول فى استراتيجيته الرامية إلى السيطرة على شبه جزيرة سيناء والطرق المؤدية إليها. ويشير جان ريشارد إلى بناء بلدوين لقلعة وادى موسى Le Vaux Moysi فى عام ١١١٧م/٥١١هـ^(١٤) وفى العام التالى خرج بلدوين بحملة عبر الطريق الشمالى الذى يمر بشمال سيناء ووصل إلى الفرما حيث أحرقها، وفى أثناء عودته أصيب بمرض أدى إلى موته، وحمل جثمانه إلى القدس لدفنه بها^(١٥).

لا شك أن بلدوين وضع الأساس للاستراتيجية الصليبية للوصول إلى البحر الأحمر بعد أن تكتشفت أهميته من الناحية السياسية والاقتصادية وأيضاً الدينية. وذلك عندما بنى قلعة مونتريال، ثم وصل إلى أيلة وجزيرة فرعون واستولى عليهما ووضع حامية هناك، لكى تكون قاعدة لها، وكان ذلك أول تهديد حقيقى لأمن البحر الأحمر، وحاول الاستعانة برهبان دير سانت كاترين، غير أنهم طلبوا منه عدم إقحامهم فى ذلك، حتى لا يؤثر ذلك على علاقتهم بالسلطات الإسلامية، أو العربان الذين يحيطون بالدير^(١٦). أما الدولة الفاطمية فقد قامت بعدة حملات لوقف هذا التهديد لأمن البحر الأحمر، ولكنها لم تنجح فى ذلك، لأن بلدوين نجح فى تنفيذ سياسته بالاستيلاء على موانئ الساحل الشامى من ناحية، ووضع قدمه على خليج العقبة، وفيما وراء الأردن من ناحية أخرى، بينما كانت الخلافة الفاطمية تعاني من عوامل الضعف والانحلال من ناحية ثالثة.

أما عهد بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م/٥١٢-٥٢٥هـ) فلم يشهد

محاولات جادة هددت أمن البحر الأحمر. فقد انشغل بأحداث شمال الشام، وإن كان أهم حدث فى عهده هو سقوط صور فى قبضة الصليبيين فى يوليو ١١٢٤م/ جمادى أولى ٥١٨هـ ولم تعد سوى عسقلان فى قبضة الفاطميين، والتي ظلت تمثل تهديداً للصليبيين حتى سقوطها فى عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ. واهتم بلدوين بمنطقة ما وراء نهر الأردن، والتي كان لها صلة مباشرة بأمن البحر الأحمر. فأغار على قبائل البدو فى هذه المنطقة، وذلك لإحكام السيطرة عليهم^(١٧).

ومن المفارح التي اهتم فولك أوف انجو (١١٣١-١١٤٣م/ ٥٢٦-٥٣٨هـ) بتسجيلها ضمن عهده «الأرض العربية التي تقع على البحر الأحمر ضمها إلى سلطنة»^(١٨) وفى العقود التالية أصبحت السياسة الصليبية هى الوصول بالحدود الأمنية لمملكتهم إلى الحدود الطبيعية من وجهة نظرهم وفى ضوء الاستراتيجية التي خططوا لها منذ البداية، وفى الجنوب لم تكن سوى الصحراء هى الحد الطبيعى. وعن طريق بارونية ما وراء الأردن وسلسلة القلاع التي شيدت بطول الطريق الذى يربط مصر والشام كانت وسيلة الصليبيين لتهديد أمن البحر الأحمر، وتحقيق المزيد من الإحكام على هذه المنطقة. ففى عام ١١٤١م/ ٥٣٥هـ شيد باجان وكان يعمل ساقياً للملك فولك حصناً شديداً المناعة فوق تل مرتفع أسماه الكرك^(١٩). وأضاف الصليبيون إليه حصون الوعيرة أو قلعة وادى موسى والصلت أو سلا وتافيل^(٢٠). وبذلك أحكم الصليبيون قبضتهم على هذا الطريق. الأمر الذى كان له انعكاساته السياسية والاقتصادية والدينية. أما الطريق الساحلى عبر شبه جزيرة سيناء فقد حرص الصليبيون على إحكام سيطرتهم عليه أيضاً، غير أن عسقلان وقفت حجر عثرة فى سبيل إتمام ذلك. فلجأ الصليبيون إلى إنشاء سلسلة من القلاع حولها فى الفترة من ١١٣٦ إلى ١١٤١م مثل بيت جفرين وبنى وتل صافيتا. واستكمل الصليبيون حصارهم لها ببناء قلعة فى

غزة عام ١١٥٠م/٥٤٥هـ وذلك قبل ثلاث سنوات من سقوط عسقلان وأدى ذلك إلى توقف وصول الإمدادات الفاطمية إليها برّاً، ولم يعد سوى الطريق البحرى^(٢١). ويشير ابن أبيك إلى ذلك التهديد بقوله «لما كان على المسلمين منها من الأذى وقطع الطرق بسببها، فإذا أخذت أمنت الطرق وسافرت القوافل والتجار»^(٢٢).

ارتبطت عسقلان بأمن البحر الأحمر، فقد ظلت رأس الجسر الذى استخدمه الفاطميون طيلة تاريخهم فى هجماتهم ضد الصليبيين بعد سقوط مدن الساحل الشامى فى قبضتهم. كما كانت حائط صد ضد محاولات الصليبيين الاستيلاء على الطريق الساحلى. ولكن بناء سلسلة القلاع السابقة حولها، بالإضافة إلى قلاع أخرى، وحالة الضعف التى آلت إليها الدولة الفاطمية أدى إلى سقوطها عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ فى قبضة الصليبيين^(٢٣) وكانت النتيجة المباشرة لسقوطها هى محاولة استيلاء الصليبيين على مصر فى ظل الصراع بين الوزراء على السلطة خاصة بين شاور وضرغام. كما أن عمورى ملك بيت المقدس (١١٦٢-١١٧٤م/٥٥٧-٥٦٩هـ) كان كونتاً ليافا وعسقلان قبل توليه عرش المملكة، فجعله ذلك على علم بأحوال مصر، وثمة عامل آخر دفع عمورى لذلك هو ازدياد قوة نور الدين محمود وضغطه على الصليبيين وسعيه لتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى استكمالاً لسياسة والده عماد الدين زنكى الأمر الذى يخشاه الصليبيون ويعملون له ألف حساب، فقد أدركوا أنهم سيصبحون بين شقى الرحى، الأمر الذى جعلهم يتجهون نحو مصر التى بدت غنيمة سهلة على الرغم من اعتراض بعض القادة الصليبيين على هذا المشروع^(٢٤). ولاشك أن هذا المشروع نقل التهديد لأمن البحر الأحمر إلى مرحلة جديدة، مما يهدد أكبر مورد اقتصادى لمصر، فضلاً عما يشكله من تهديد لمقدسات المسلمين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ولكن نور الدين

محمود لم يكن بذلك الحاكم الذى يغفل عن هذا التهديد، لما تمثله مصر من قوة بشرية ومادية بالنسبة له وفى جهاده ضد الصليبيين. وينقل سبط ابن الجوزى إدراك نور الدين لذلك «وما قصدنا بفتح مصر إلا فتح الساحل وقلع الكفار منه» (٢٥).

وبدأ التسابق بين عمورى ونور الدين على امتلاك مصر، واستغرق هذا الصراع ما يقرب من سبع سنوات تخللتها عدة حملات وصلت إلى القاهرة والإسكندرية والمنيا ورفعت الأعلام الصليبية فوق أسوار القاهرة. ولجأ عمورى إلى الاستعانة بالدولة البيزنطية محاولاً إجحاح هذه المحاولات. ولكن هذا المشروع انتهى بالفشل الذريع وتحملت الخزانة الصليبية تكاليف باهظة أدت إلى إفلاسها (٢٦). غير أن ميزان القوى فى الصراع بين الطرفين مال لصالح المسلمين بسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية لكى ينتقل أمن البحر الأحمر إلى مفهوم جديد فى ظل هذه الفترة الأيوبية.

لعب البحر الأحمر دوراً هاماً بالنسبة لاستراتيجية كل من الصليبيين والأيوبيين. ففى عام ١١٧٠م/٥٦٦هـ حصّن الصليبيون دير البلح الواقعة على الطريق الشمالى لسيناء. فى الوقت الذى كانوا لا يزالون فيه يسيطرون على الطريق الأخرى والتى تمر بأيلة وبارونية ما وراء الأردن. وظلت القوافل تتعرض للخطر إلا إذا خرج معها العساكر حتى تتمكن من المرور عبر الطرق الفرعية. ولذا أدرك صلاح الدين أن الأمور لن تستقيم له حتى يضمن السيطرة على الطريق بين مصر والشام، وإبعاد الخطر الصليبي عن أمن البحر الأحمر، فتوجه فى عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م مغيراً على الداروم وغزة ووجه إليهما ضربة قوية، ثم عاد وتوجه إلى أيلة وجزيرة فرعون حيث أعد مراكب حملت معه إلى القلزم وبعد استعادته لأيلة أبحرت هذه السفن إلى الجزيرة واستعاد القلعة التى طالما هددت هذه المنطقة وذلك فى ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١١٧٠م (٢٧). وتمكن صلاح الدين بذلك من القضاء على خطر

هذه القلعة التي طالما هددت أمن البحر الأحمر من هذه الجهة «فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد و«مؤيلا» لسفار البلاد وغيرهم». وربط صلاح الدين بين خطرها على أمن الحجاز واليمن بقوله «ومنها قلعة بشغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند وهو المسلوكة منه إلى الحرمين واليمن»^(٢٨) وكان ذلك بداية لفتح الطريق بين مصر والشام والذي ظل مهدداً ما يقرب من خمسة وخمسين عاماً. كما حرص صلاح الدين على استغلال هذا الانتصار في الدعاية لنفسه خاصة لدى الخليفة العباسي في بغداد ويتضح ذلك من خلال رسائله الطويلة إليه والتي أوردها أبو شامة^(٢٩).

غير أن استراتيجية صلاح الدين الرامية إلى استعادته لأماكن نور الدين في الشام اصطدمت بوجود هذه المعاقل التي على الطريق ما بين مصر والشام. فانتهج سياسة ترمى إلى استعادتها أو تخريبها «فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب»^(٣٠) وبدأ سلسلة من الحملات ضد الكرك بصفة خاصة لحصانته ولكونه المركز الرئيسي لبارونية ما وراء الأردن والتي حكمها آنذاك رينالد دي شاتيون أو أرناط. الذي شعر بمدى الخطر الذي يتهدد بارونيته من استراتيجية صلاح الدين. فتبنى سياسة جديدة تمثلت في نقل حدود المملكة الصليبية عبر الصحراء عند مدخلها الجنوبي. ومن هذا المنظور أصبحت شبه جزيرة سيناء بخليجي البحر الأحمر ضمن الاهتمام الصليبي^(٣١). وبدأت هجمات صليبية ضد الدفاعات المصرية الشرقية عند وادي صدر واستهدفت بالتحديد قلعة الجنيدي التي أنشأها صلاح الدين لحماية هذه المنطقة - جنوب شرق ممر متلا الحالي - وهددت فاقوس وذلك منذ عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل^(٣٢) وعاد الصليبيون هجومهم ضد العريش في جمادى الآخرة ٥٧٧هـ/ أكتوبر - نوفمبر ١١٨١م بهدف تخريب هذه الواحة الهامة حيث كان يستخدم صلاح الدين الطريق الشمالي لمهاجمة عسقلان وغزة

والداروم^(٣٣) وعلى الرغم من ارتباط هذه الغارة بحملة أرناط على البحر الأحمر - كما سنرى - إلا أنها أيضاً ارتبطت بالمحاولات الصليبية لإدخال سيناء فى حوزة المملكة الصليبية. وحاول الصليبيون مرة أخرى النيل من الدفاعات الأيوبية فخرجوا فى المحرم عام ٥٧٩هـ / أواخر أبريل ١١٨٣م حتى وصلوا إلى فارآن فخرج إليهم سعد الدين كمشة وعلم الدين قيصر على طريق صدر أيلة عند مكان ماء يسمى العسيلة وتمكنوا من ردهم^(٣٤).

اتجه تفكير أرناط إلى أسلوب جديد يهدد به أمن البحر الأحمر بعد أن فشلت سياسته السابقة القائمة على «أن جبل سيناء يقع فى حدود الكرك» كما ذكر أرنول^(٣٥) ففكر فى غزو تيماء - دهليز المدينة على ساكنها الصلاة والسلام - وذلك فى عام ٥٧٧هـ / ١١٨١-١١٨٢م. غير أن عز الدين فرخشاه خرج ليكون فى مقابلة الكرك وخرب ما حولها لإجباره على عدم الخروج. وفى رسالته إلى الخليفة العباسى يقارن صلاح الدين بين جهاده للصليبيين ومنعهم من تهديد المقدسات الإسلامية وبين المواصلة وتواطئهم مع الصليبيين «والعجيب أنا نحامى عن قبر النبى صلوات الله وسلامه مشتغلين بهم... والمذكور (يعنى صاحب الموصل) ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه»^(٣٦).

استمرت محاولات أرناط الفاشلة فى تهديد أمن البحر الأحمر سواء من جهة سيناء أم الحجاز، ولذا فقد أقدم على مغامرة كانت السبب المباشر فى دق أكبر مسمار فى نعش الوجود الصليبي فى بلاد الشام. فقد حاول الاستيلاء على أيلة والنفاذ منها إلى البحر الأحمر. وأخطأ أرناط فى حساباته هذه المرة أيضاً. فلم يكن صلاح الدين بالقائد الذى يغفل عن مثل هذا التهديد لأمن البحر الأحمر وهو الذى حرص منذ بداية حكمه على استرداد أيلة وضم اليمن جنوباً فى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م. ومنع أى اتصال بالحبيشة جنوباً لكى يحكم قبضته عليه فجعله بحراً إسلامياً خالصاً.

وعلى الرغم من الدراسات المستفيضة لحملة أرناط إلا أننا بحاجة للوقوف عند بعض أحداثها. فقد بالغت كثير من الدراسات في أهدافها معتمدة على خطابات صلاح الدين للخليفة العباسي. بينما أشارت المصادر المعاصرة مثل البرق الشامي للعماد الكاتب إلى أن هدفها «وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله. والآخر الخوض في هذا البحر الذي يتجاوره بلادهم من ساحله»^(٣٧). ويتفق أرنول - المصدر الصليبي الوحيد - الذي أشار إلى هذه الحملة مع القاضي الفاضل في هدف أرناط «وذلك لكي تبحر السفن في هذه المنطقة وتعرف أيضاً نوع من الشعوب يسكن على شواطئ هذا البحر»^(٣٨).

وتجدر الإشارة إلى رواية هامة أوردها المقرئزى تلقى ضوءاً جديداً على استعداد أرناط لهذه الحملة. فقد ذكر أن العريش تعرضت لهجوم صليبي في جمادى الآخرة ٥٧٧هـ / أكتوبر - نوفمبر ١١٨١م وقطعت أشجار النخيل وحملت جذوعها إلى بلادهم^(٣٩). ويعد أرناط المستفيد الوحيد من هذه الغارة وحمل جذوع النخيل إلى إمارته لصناعة السفن التي تصلح للإبحار في البحر الأحمر. وسواء قام ببناء هذا الأسطول في عسقلان أم الكرك فإن بدو هذه المنطقة تشير إليهم أصابع الاتهام، لقيامهم بدور في حملها وتصنيعها. فلم يكن لدى الصليبيين الخبرة في صناعة نوع السفن المستخدم في صناعته جذوع النخيل وهو النوع المعروف بالجلاب^(٤٠). وهذا يقودنا إلى مناقشة نوع السفن. فقد أشار أرنول إلى أنها من الـ Galère أو الشينى^(٤١) وهذا النوع أو الأسماء الأخرى التي أطلقت عليها لم تستخدم في البحر الأحمر باستثناء الحراقة^(٤٢). وهذه الأنواع لم تستخدم فيها عيدان النخيل، مما يجعلنا نتساءل عمن قام ببناء هذه السفن لأرناط. ولا نستطيع أن نغفل دور بدو هذه المنطقة والعلاقة بينهم وبين الصليبيين. فقد كان منهم من له خبرة بأعمال البحر، وأشار أبو شامة إلى «الساحليين من العرب»^(٤٣)، كما أكد ذلك الدور سبط ابن الجوزى والعماد الكاتب^(٤٤).

أعاد أرناط بتجميع السفن الخمس^(٤٥) بعد أن نقلت على الجمال إلى أيلة وأنزلت في مياه البحر الأحمر. وحاصرت اثنتان منها جزيرة فرعون، بينما أبحرت الثلاثة الباقية في اتجاه عيذاب حيث ظلت ما يقرب من أربع أشهر من شعبان إلى ذى القعدة ٥٧٨هـ / نوفمبر ١١٨٢ - فبراير ١١٨٣م وعانت فساداً على ساحليه وهاجمت سفن الحجاج والتجار، وانتشر الفزع، لأنه لم يعهد أن سلك كافر هذا البحر، كما تعرضت المقدسات الإسلامية للخطر. وسارع صلاح الدين - الذى كان آنذاك فى الشام - بإرسال الأمر إلى أخيه العادل سيف الدين فى مصر بحسم هذا الأمر، ولم يتوان العادل فى القضاء على هذا الخطر. فأعد أسطولاً اختار لقيادته قائداً محنكاً - حتى قيل أنه أخذ معه أساور الأسرى - وبحارة لا يقلون كفاءة عن قائدهم. ووصل حسام الدين لؤلؤ إلى جزيرة فرعون فأغرق سفينة وفرت الثانية حيث أسر بحارتها. وتابع السفن الثلاث الباقية حيث علم بوصولها إلى الساحل الحجازى وتمكن من القضاء على هذا الخطر فأسر من نزل إلى الساحل عند الحوراء وأرسل الأسرى إلى عيذاب ومنها إلى قوص ثم إلى مدن مصر مثل القاهرة والإسكندرية فأمر بإعدامهم حتى «لا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف»^(٤٦).

وهناك كثير من المبالغات أحاطت بهذه الحملة. وفى الحقيقة فإن مرجع ذلك هو خطابات صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسى والتى أراد أن يحقق أكبر دعاية له من خلالها. فعلى سبيل المثال أشار البعض أن عدد قوات أرناط بلغت ألفاً وخمسمائة. فلم يكن بإمكانه أن يوفر هذا العدد إلا إذا شاركت مملكة بيت المقدس معه. وكان الصليبيون آنذاك فى مواجهة صلاح الدين الذى كان فى الشام. وهذا يدل على اعتماد أرناط على قواته حيث كانى قدم ستين فارساً فقط فى جيش المملكة^(٤٧). وقد أشار العليمى إلى أن عدد القوات الصليبية بلغ نيفاً وثلاثمائة وهو أقرب ما يكون إلى

الصحة. وتحمله هذه السفن الثلاث^(٤٨). أما ما ذكره د. يوسف غوانمة من أنها كانت حملة بحرية وبرية اعتماداً على ما ذكره الذهبي فهو أيضاً مبالغة لم تشر إليها أيًا من المصادر الأخرى. وربما يقصد الذهبي من ذلك نزول الصليبيين براً عند ساحل الحوراء^(٤٩). على أية حال تمكن صلاح الدين من استغلال نجاحه في القضاء على هذه الحملة حيث كان لا يزال في حاجة لتأييد الخلافة العباسية لكي يضم حلب إلى مملكته.

فشل أرناط في استراتيجيته الرامية إلى ضم سيناء وتهديد أمن البحر الأحمر مما أكد لصلاح الدين ضرورة القضاء على أرناط، ونذر دمه بعد أن تناول على رسول الله ﷺ^(٥٠) واستمرت حملات صلاح الدين ضد الكرك والشوبك مع اتباع أسلوب الحصار الاقتصادي لها بتخريب ما حولها من المزارع التي تمدّها بالمؤن اللازمة. وكانت الكرك عقبة في سبيل ضمان أمن البحر الأحمر وكذلك الحجاز. فيقول العمري «وكان الكرك شجى في الحناجر وقذى في المحاجر ورصد الطرقات المسلوكة» «وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفساً يصعد من تهامته» «ومما فتحه الله على سلطاننا بلاد الكرك وما أدراك ما هو قلعة كانت على الإسلام أية مضرّة، بل كانت لكعبة الإسلام - زادها الله شرفاً - أية مضرّة»^(٥١). ويربط أبو شامة أيضاً بينهما بقوله «وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام»^(٥٢).

فشلت استراتيجية أرناط أمام إصرار صلاح الدين على إزالة بارونيته والتي كانت بمثابة الإسفين بين شقى مملكته في مصر والشام في الوقت الذي كانى سعى فيه إلى توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام ليتسنى له توجيه ضربته القاضية إلى الصليبيين في الأراضي المقدسة. وعلى الرغم من أنه لم ينجح في الاستيلاء على الكرك إلا بعد معركة حطين إلا أنه ظل يوجه إليها الضربات الواحدة تلو الأخرى^(٥٣). وأمام استمرار أرناط في نقض تعهداته تمكن صلاح الدين من أن يوجه ضرباته القاضية للصليبيين في

حطين ١١٨٧م/٥٨٣هـ. ومن نتائجها استرداده للكرك والشوبك حيث ظلا فى قبضة الأيوبيين والمماليك ولم يفرطا فيهما فى أى معاهدات تالية مع الصليبيين.

وعلى الرغم من تحقيق الحملة الصليبية الثالثة لنتائج محدودة، إلا أنها فشلت فى تحقيق الهدف الرئيسى الذى خرجت من أجله وهو الاستيلاء على القدس مرة أخرى، وانتهت الاستراتيجية الصليبية فى هذه المرحلة التالية إلى توجيه الحملات نحو مصر طيلة القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى. ومن أجل الحفاظ على أمن البحر الأحمر فى هذه المرحلة أصّر الأيوبيون ومن بعدهم المماليك على الاحتفاظ بالكرك والشوبك. ففى أثناء الحملة الصليبية الخامسة عرض السلطان الكامل محمد إعادة كثير من الأراضى التى استردها صلاح الدين للصليبيين «ما خلا الكرك والشوبك» وأدرك أوليفر أوف بادنبورن أهميتهما فيقول «ومن يسيطر عليهما فإنه بإمكانه أن يخرب القدس وحقوقها وكرومها عندما يرغب فى ذلك»^(٥٤). وثمة ملاحظة هامة هى أن الداوية والاستبارية والإيطاليين كانوا هم الذين عارضوا ذلك لإدراكهم للأهمية العسكرية والاقتصادية للكرك. وقبل نهاية الدولة الأيوبية نجحت فى استرداد عسقلان عام ١٢٤٧م/٦٤٥هـ حيث تأكدت السيطرة أيضاً على الطريق الشمالى عبر شبه جزيرة سيناء^(٥٥). وأخيراً جاء قيام دولة المماليك فى مصر لكى يضع حداً لهذه الأحلام الصليبية فى السيطرة على مصر خاصة بعد تغلبها على أكبر خطر هدد العالم الإسلامى وهو خطر التتار وكان مركز الثقل فى الصراع بين المسلمين والصليبيين قد مال بشكل واضح لصالح المسلمين.

وأدرك المماليك من ناحية أخرى أهمية الكرك بالنسبة لأمن البحر الأحمر وخاصة الساحل الشرقى منه. «ورأى أن بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنية وظهر البلاد الكركية والشوبكية»^(٥٦) فأكثر ببيرس من خروجه إلى

هناك مهتمًا بتوفير الأمن له حتى يضمن استمرار طريقه ما بين مصر والشام في جهاده ضد الصليبيين. فخرج لمتابعة برج تصدع «فاشتهى أن يكون إصلاحه بحضوره»^(٥٧) كما جدد أبراجًا أخرى به بالإضافة إلى ترتيب جماعة من البحرية به ونظم العلاقة بين العربان والجماعة المقيمة به^(٥٨) واستمر اهتمام قلاوون به حتى في تفاوضه مع الملك المسعود نجم الدين خضر بن الظاهر بيبرس في عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م^(٥٩).

ومن الأخطار التي هددت أمن البحر الأحمر طيلة الحروب الصليبية يأتي خطر البدو أو العرب أو العربان والذين انتشروا بطول ساحليه الشرقى والغربى، وكذلك على الطرق المارة عبر شبه جزيرة سيناء. ويرجع خطر جانب منهم بسبب علاقتهم بالصليبيين. عندما سعى جودفرى ومن بعده بلدوين الأول لاستغلال هذه القبائل التي انتشرت في شبه جزيرة سيناء وفي ما وراء نهر الأردن. وتوثقت علاقة بلدوين بهذه القبائل بعد نجاحه في الوصول إلى رأس خليج العقبة واستيلائه على أيلة وجزيرة فرعون^(٦٠). كذلك اهتم بلدوين بالطريق الشمالى عبر شبه جزيرة سيناء. ويشير المقرئى إلى قبيلة ثعلبة التي كانت بين العريش ورفع واهمها صراحة بالتعامل مع الصليبيين «وكانوا مع الفرنج لما ملكوا البلاد فى الإسلام»^(٦١). وعندما أشار ابن القلانسى إلى مهاجمة الفاطميين للعريش فى ربيع الأول ٥٥٣هـ/ أبريل ١١٥٨م «وظفر العسكر المصرى بجملته وافرة من الفرنج والعرب»^(٦٢). ولم يسلم النازحون من عسقلان بعد سقوطها فى قبضة الصليبيين فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ من رجال هذه القبائل حيث هاجموهم واستولوا على ما معهم^(٦٣) كذلك اتهم ابن جبير عرب الكرك بنقل أخشاب السفن إلى البحر الأحمر فى حملة أرناط وذلك مقابل أجر تم اتفاقهم عليه^(٦٤). كما اتهم أبو شامة الساحليين من هذه القبائل بأنهم دلوا السفن الصليبية فى البحر الأحمر^(٦٥). وفى الحقيقة لا نستطيع أن نحدد قبيلة بعينها. فقد

انتشرت قبائل العابد وبنى عقبة وبنى مهدي وبنى حسن وبنى خالد. وبنى كنانة وبنى أبى وبنى على طول الطريق ما بين أيلة والكرك والحجاز وتداخلت فى بعضها البعض. وأشار سبط ابن الجوزى إلى رسالة صلاح الدين لنور الدين محمود عن خطر هؤلاء - وخاصة عرب الكرك - ونقلهم الأخبار إلى الفرنج ودلهم الصليبيين على الطرق والمسالك عبر الصحراء «فإنهم آفة على المسلمين ودليل الكفار على الإسلام»^(٦٦). ويوضح صلاح الدين هدفه من إبعاد هذه القبائل «بحيث إذا نهض العدو لا يجد بين يديه دليلاً ولا يستطيع حيلة ولا يهدى إليه سبيلاً» ويؤكد العماد الكاتب خطرهم فهم «جنس كالخنظل كلما زيد سقياً بالماء الحلو أفرطت مرارة ثمرته. وعزت نضارة خضرته»^(٦٧) واستمر خطر قبيلة ثعلبة حيث هاجمت من نجا من قوات صلاح الدين بعد هزيمته فى معركة الرملة عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ^(٦٨). وأدرك صلاح الدين سبب الهزيمة وعدم سيطرته على هذه القبائل فى رسالته للخليفة العباسى «وأنا لم نتمكن بمصر منه مع المسافة وانقطاع العمارة وقلال الدواب»^(٦٩).

لكل ما تقدم، حرص الأيوبيون على السيطرة على هذه القبائل، وذلك لضمان أمن البحر الأحمر خاصة الطرق المارة عبر شبه جزيرة سيناء، فيذكر ابن العميد أن الملك الكامل محمد رتب الخفراء لحفظ الطرق^(٧٠) أما ابن واصل فكان أكثر تحديداً عندما أشار إلى أنه أجبر العرب الذين كانوا يحرسون الطريق بين مصر والعريش على إحضار بساط مسروق مما يدل على هيئته وحرصه على أمن هذه المنطقة^(٧١). ولم يقتصر خطرهم على تعاملهم مع الفرنج، بل كان الصدام بين هذه القبائل ينعكس على الأمن، مثال ذلك ما حدث بين قبيلتي جذام وثلعة وكانت أيام خوف وحرب وانقطعت الطرقات^(٧٢).

وكان لهذه القبائل تجرية مع المماليك، فقد أنقذوهم عندما خرجوا من مصر متجهين إلى الشام. فيشير العيني إلى ذلك بقوله «فوقعوا على قبيلة من العرب فحملوهم إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك» وذلك في عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م^(٧٣) ومنذ بداية حكم الظاهر بيبرس حرص على توثيق علاقته بعربان الكرك حيث ربط بين أمن الساحل الشرقي للبحر الأحمر من الكرك والشوبك حتى اليمن جنوباً. «ومنها النظر في أحوال العربان والإحسان إليهم وإلزامهم بخفر البلاد الشامية»^(٧٤) كما فعل نفس الشيء مع بنى مهدى وبنى عقبة حيث رتب أمور الكرك ودعاهم لتناسي الأحقاد بينهم وتحميلهم مسؤولية ضياع أية ممتلكات. كما ضمنهم خفر البلاد إلى الحجاز^(٧٥) بالإضافة إلى اهتمامه بأمر البريد حيث اعتمد على العربان في إحضار خيل البريد^(٧٦). «وشمل الكل إنفاق على ما تقتضيه أحوالهم من إمرة وغير ذلك»^(٧٧).

واستمر اهتمام المماليك في عهد السلطان قلاوون بعربان الكرك لاستمرار ضمانه لأمن البحر الأحمر. فقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنه خلع على مقدمى الكرك ورجالها ومن حضر من أمراء العربان الذين بها ورتب أمرها. وجعله لعز الدين أيك الموصلى وكان نائباً بالشوبك^(٧٨). وبهذه السياسة المزدوجة استطاع سلاطين المماليك أن يحتفظوا بولاء هذه القبائل من ناحية وعدم تعرض أمن البحر الأحمر للتهديد من ناحية أخرى. كما حملوهم مسؤولية حماية الطريق إلى الحجاز خاصة بعد أن أعيد استخدام هذا الطريق في عهد بيبرس.

أما البدو أو القبائل العربية التي سيطرت على طريق الحج فقد حرصت السلطات الإسلامية في مصر والشام على التعامل معهم من أجل ضمان أمن البحر الأحمر. فيرجع اهتمام الفاطميين بالحجاز قبل استيلائهم على مصر^(٧٩). وعقب قيام الدولة الفاطمية في مصر أعلنت الأسر التي حكمت

فى مكة المكرمة خضوعها وتمردت فى أوقات أخرى مستغلة الأحوال فى مصر مثلما حدث أثناء الشدة المستنصرية ٤٥٤هـ/١٠٦٢م^(٨٠). ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إننا نجد قاسم بن هاشم أمير مكة يرسل مراكب هاجمت التجار من عيذاب وذلك فى عام ٥١٢هـ/١١١٨م وعلم الأفضل ابن بدر الجمالى بذلك فقرر تأديبه ولكنه أرسل رسولا من جانبه فى عام ٥١٦هـ/١١٢٢م لكى يعتذر عما اقترفه فى حق التجار^(٨١). كما وردت إشارات عديدة عن خطر البدو أثناء موسم الحج. ومحاولات كف خطرهم بإقطاعهم القطائع^(٨٢).

وفى إطار حرص الأيوبيين على أمن البحر الأحمر وبعد أن سيطروا على أيلة، خرجت حملة تورانشاه إلى اليمن، فمر على مكة المكرمة حيث رجب به حاكمها عيسى بن فليته وذلك فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م. وكان ذلك بداية النفوذ الأيوبى بها حيث حرص صلاح الدين على عدم التدخل فى الشؤون الداخلية له واكتفى بإجراءات حققت العدالة والأمن له وللحجاج القادمين^(٨٣).

أما موقف عربان الحجاز من حملة أرناط التى هدت أمن البحر الأحمر فقد اختلفت المصادر حول ذلك. فقد أشار أبو شامة إلى أنهم التزموا بإحضار الصليبيين الذين نزلوا إلى الشعاب والجبال فى المنطقة عند رابغ وساحل الحوراء «فإن العربان اقتصوا آثارهم والتزموا بإحضارهم»^(٨٤) أما العليمى - من القرن العاشر الهجرى - فيتهمهم بالانضمام إلى الصليبيين «وانضم إليهم عدة من العربان المرتدة، ففرت العربان وارتقى الفرنج أمام رأس جبل صعب المرتقى»^(٨٥). وربما كانت هذه القبائل تنتسب إلى عرب زبيد الشام وينتسبون إلى مسرح من حرب وكان منهم الخمس وهم بطن من زبيد سكن الساحل قرب رابغ^(٨٦).

واستمر الحجاز يتأرجح ما بين الأيوبيين وبنى رسول الذين أقاموا لهم دولة فى اليمن فاستغل عربان الحجاز هذا الاضطراب وهددوا أمن البحر الأحمر من الناحيتين السياسية والاقتصادية أما فى الفترة المملوكية فقد نظر المماليك إلى الحجاز باعتباره مكملًا لاستراتيجيتهم بالنسبة للكرك واليمن، ولذا كان حرصهم على استتباب الأمن فيه خاصة بعد الاضطرابات السابقة فى العصر الأيوبي. ومن ناحية أخرى كان يبىرس يعد لفتح الطريق البرى عبر شبه جزيرة سيناء. وفى عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م وصلته كتب من خيرير يذل الطاعة والخدمة. وأرسل حملة بقيادة الأمير أمين الدين موسى بن التركمانى، وفى الوقت نفسه أرسل إلى النائب بالكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة من البحرية صحبته حيث تمكن من فتحها^(٨٧). وكان لذلك أثره فى إحكام سيطرته على قبائل هذه المنطقة. وخضع أمير المدينة المنورة لدفع العداد فى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م^(٨٨). كما وفد على السلطان بىبرس رسل من عرب زبيد وبلى^(٨٩) وفى عام ٦٦٦هـ/١٣٦٨م التزم بنو صخر وبنو لام وبنو عنترة وغيرهم من عربان الحجاز بدفع الزكاة من الغنم والإبل^(٩٠). وفى العام التالى استعد بىبرس سرًا لأداء فريضة الحج حتى لا يعطى أعداءه فرصة لاستغلال غيابه. فأرسل قواته إلى دمشق فى صحبة الأمير سيف الدين أقسنقر وتوجه إلى الكرك فى صورة المتصيد وأمر بإعداد المؤن والعربان لمصاحبته مع إخفاء خبره. وفى الوقت نفسه بلغت أنباء عن استعداد التتار لإرسال ركب إلى الحجاز «لكشف الطرقات والتلصص على تلك الجهات» وكان قصدهم استباحة دم الحجاج فى الحرم، ولكن عندما بلغتهم حركة السلطان «فرجعوا خائبين»^(٩١).

وبعد أدائه للفريضة رتب بىبرس أمور الحجاز، فجعل شمس الدين مروان نائبًا بمكة، وأحسن إلى أميرها وصاحب ينبع وزعماء الحجاز. وتعهد صاحب مكة بفتح بيت الله الحرام دون أن يأخذ أموالاً من أحد. وعدم

التعرض للحجاج أو التجار والخطبة والصكبة للسلطان مقابل عشرين ألف درهم كل سنة. فوافق الشريف نجم الدين أبي نمى على ذلك^(٩٢). كذلك استمر اهتمام قلاوون بأمر الحجاز. ففي عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م حضر إلى خدمته ملك أعراب الحجاز^(٩٣). وعندما خرج الأمير أبو نمى الحسيني صاحب مكة قبض عليه الأمير سيف الدين بلبان المعروف بطير الحنة وأرسله إلى السلطان^(٩٤) كما اهتم قلاوون في وصاياه إلى ابنه بالإشارة إلى العربان بأن يُرتبوا في الأماكن التي أعطيت لهم «وكل من جرت له عادة من العربان بحفظ مكان يرتب فيه ويلزم حفظه»^(٩٥).

ونظراً لارتباط اليمن بأمن البحر الأحمر، فقد اهتمت السلطات الإسلامية في مصر بعد سيطرتها عليه. فقد توثقت العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة الصليحية في عهد أبي كامل على بن محمد الصليحي (٤٢٩-٤٧٣هـ / ١٠٣٨-١٠٨٠م) وابنه المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة. وكان لذلك الأثر المباشر على ضمان المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. وأسهم الصليحيون في الحفاظ على أمنه^(٩٦). فلم يسمحوا لأية سفينة هندية أو صينية أو غيرها من السفن غير الإسلامية أن تبحر شمالاً فيما وراء ثغر عدن^(٩٧). كما قامت الدولة الفاطمية بإجراءات أخرى للحفاظ على أمن البحر الأحمر مما جعله بحراً إسلامياً خالصاً على الرغم من استيلاء الصليبيين على أيلة وجزيرة فرعون^(٩٨).

وعقب سنوات قليلة من قيام الدولة الأيوبية أرسل صلاح الدين أخاه المعظم تورانشاه في رجب ٥٦٨هـ/ فبراير ١١٧٤م لفتح اليمن حيث استمر تابعاً للأيوبيين حتى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م. وكان ذلك يعني «والكلمة هناك بمشيئة الله إلى الهند سارية» كما يقول في رسالته إلى الخليفة العباسي^(٩٩). ودون الدخول في أسباب فتح اليمن، فإن هذا أعطى الدولة الأيوبية السيطرة تماماً على هذا البحر وضمان أمنه بعد نجاحه أيضاً في استرداد أيلة.



ولم يهمل الأيوبيون أمر اليمن. فقد خرجت عدة حملات بقيادة الملك المسعود بن الكامل محمد. من بينها حملة عام ٦١٢هـ/١٢١٥م. وأخرى عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م لضبط الأوضاع في اليمن^(١٠٠). وعلى الرغم من قيام دولة بنى رسول في اليمن عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م فقد استمرت على السياسة الأيوبية في الحفاظ عليه بحرًا إسلاميًا خالصًا^(١٠١).

وربط المماليك بين الكرك والحجاز واليمن. فمئذ بداية حكم بيبرس أرسل إلى اليمن يعلمهم بتوليه الحكم^(١٠٢). ووردت هدايا صاحب اليمن في عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م حيث قبلها بيبرس^(١٠٣). واستمر قلاوون على السياسة نفسها في الاهتمام باليمن، وذلك لتنشيط تجارة البحر الأحمر وضمان أمنه، خاصة بعد محاولات الاختراق من الجنوب عبر مملكة الحبشة النصرانية وتكوين حملات مشتركة للقضاء على دولة المماليك^(١٠٤). وتبدلت الهدايا بين قلاوون والمظفر شمس الدين أبو المحاسن يوسف صاحب اليمن. والذي قام بدوره في مراقبة المدخل الجنوبي مراقبة جيدة حيث منع محاولات الاختراق. ونجحت الاستراتيجية المملوكية في الحفاظ على أمن البحر الأحمر بطول الساحل الشرقي.

أما الساحل الغربي للبحر الأحمر فقد لقي نفس القدر من اهتمام السلطات الإسلامية الحاكمة في مصر إن لم يكن قد فاق مثيله الشرقي. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب: من بينها أنه أصبح الطريق البديل للحج بدلا من الطريق البري عبر شبه جزيرة سيناء الذي تأثر بالشدة المستنصرية ثم الاحتلال الصليبي للقدس وأيلة، كما أن التجارة عصب الحياة الاقتصادية لمصر آنذاك كانت تأتي عبر هذا الساحل. وقد اهتم الفاطميون منذ البداية بضمان أمن هذا الساحل. فيشير ناصري خسرو إلى انتشار الأمن عند عيذاب مبيّنًا أن البعجه التزموا «فهم لا يسرقون ولا يغيرون»^(١٠٥) وفضل البحارة ميناء عيذاب، لعمق وغزارة الميناء وخلوه من الشعاب المرجانية التي طالما أطاحت

بكثير من السفن أثناء إبحارها فيه^(١٠٦). كما كان مرفأ الحجاج الذين يفدون إليه عبر الطريق البرى من قوص ويبحرون باتجاه ميناء جدة. وأتت إليه مراكب الهند والحبشة واليمن والحجاز. أما قوص فعلى الرغم من أنها لا تقع على ساحل البحر. فيقول العمرى «ولم تذكر قوص دون ما سواها فى الصعيد إلا لأنها هى مدينتها الحاضرة وبها يحط مصعداً ومنحدراً زمر الرفاق المسافرة»^(١٠٧) ووصلت حدودها إلى ساحل البحر المالح اليمنى وذلك فى العصر المملوكى كما أشار ابن شداد^(١٠٨). وأصبحت محل اهتمام السلطات الإسلامية، وكانت المركز الإدارى والعسكرى فى الجنوب. وعلى الرغم من حال الضعف التى مرت بها الدولة الفاطمية فى أواخر عهدها إلا أنها لم تكن مركزاً للثورات^(١٠٩). ويشير الإدفعوى إلى حالة الأمن بها بقوله «ومن محاسن (إقليم قوس) الجليلة كثرة الأمن لاسيما فى الوجه القبلى منه»^(١١٠) وعهد إلى قبيلة بلى حماية هذا الطريق ما بين عيذاب وقوص والتى أسهمت بدور رئيسى فى نقل الحجاج والتجارة عبره. ويؤكد ابن جبير حالة الأمن عبر هذا الطريق، ويدلل على ذلك بكثرة أحمال الفلفل والبهارات الملقاة على جانبيه ولا يقدم أحد على سرقته «على كثرة المار عليها من أطوار الناس»^(١١١) ولكن يبدو أن قلة المياه أحيانا كانت تؤدى إلى التشاحن بين قبائل البدو فى هذه المنطقة^(١١٢).

وقد أسهم عربان الصعيد بدور إيجابى إلى جانب أسد الدين شيركوه أثناء حملته فى مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ. فقد أشار أبو شامة إلى أنه رحل ومعه عدد من العربان عندما طلب منه صلاح الدين القدوم لنجدته حيث كان محاصراً من عمورى وشاور فى الإسكندرية^(١١٣). وعقب قيام الدولة الأيوبية أراد صلاح الدين البحث عن مكان آخر ويلجأ إليه إذا ما تعرض للخطر من جانب نور الدين محمود فأرسل أخاه تورانشاه إلى النوبة جنوباً لفتحها. وفى أثناء طريقه إليها هاجم أحد الثائرين فى بلاد قوص

«وأوقع به وبدد شمله»^(١١٤). واستمر اهتمام الأيوبيين بعد صلاح الدين بالمنطقة نظراً لأهميتها. فرتب الكامل محمد «خفراء لحراسة التجار والمترددین لعبور هذه الرمال الصعبة والبرارى المتوحشة فلا يروعهم أحد»^(١١٥) وكان لسطوة السلطات الأيوبية أثرها المباشر على خضوع عربان الصعيد. فقد جرت محاولة من جانب بعض الخارجين، وذلك فى أواخر الثلاثينيات من القرن الثالث عشر الميلادى، وبعد قيامهم بالقبض على والى قوص «إلا أنهم لم يتابعهم أحد على ذلك من العربان لخوفهم من السلطنة»^(١١٦). ويبدو أن العربان استغلوا الصراعات الدائرة بين أبناء البيت الأيوبي فاندلعت الحروب بينهم مما أدى إلى إرسال السلطان العادل سيف الدين أبو بكر عسكرياً إليهم حوالى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م بقيادة زين الدين بن أبى ذكرى وجماعة من الأمراء وما يزيد على الألف فارس. وتم إجبارهم على دفع مبلغ ضخيم من المال حمل إلى بيت المال، وذلك بعد أن أدت الصراعات إلى ارتفاع الأسعار والإضرار بأمن البحر الأحمر من جهة الجنوب^(١١٧).

وفى عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م خرج ما يزيد على عشرة آلاف من عربان الصعيد على الظاهر بيبرس «فإنهم قد طمعوا بتغيير الممالك وناقضوا وقتلوا والى قوص عز الدين الحواش»^(١١٨). ولم يكن بيبرس بالرجل الذى يترك مثل هذا الخطر يهدد مملكته. فأرسل الأمير عز الدين أفرم ومعه مائتا فارس «فحسم مادتهم وبدد شملهم» «وأراح المسلمين من شرهم»^(١١٩). وسرعان ما اتضح بعد نظر بيبرس فى القضاء على هذه الأخطار التى تهدد أمن البحر الأحمر. فيذكر ابن عبد الظاهر أنه فى نفس العام «توالت التجار من اليمن فى سنة واحدة مرتين وسبب ذلك عدل السلطان، وكان التجار قد سافروا فى غير أوان السفر، ووصلوا ناس بعد ناس، وهذا ما لا سمع بمثله»^(١٢٠). كما أنهم لم يجرؤوا على الاعتداء على أموال التجار الذين وصلوا بأموال عظيمة

فى برارى عىذاب «عندما هرب العربان قدام العساكر» (١٢١) واستطاع بيبرس بذلك أن يضمّن ولائهم من ناحية وضمان أمن البحر الأحمر من جهة أخرى. وفى عهد المنصور قلاوون استمر خضوعهم، بل إننا نجده يستخدمهم فى حملته ضد النوبة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م (١٢٢). ولم يقتصر دورهم على ضمان أمن هذه المنطقة بل أيضاً لعبوا دوراً اقتصادياً هاماً حيث كانوا ينقلوا الشبّة من الواحات «وتهبط به العرب إلى ساحل قوص» (١٢٣). وبذلك تمكن المماليك من ضمان أمن البحر الأحمر من جهة عربان الصعيد نظراً لما يمثلونه من أهمية أمنية واقتصادية لتجارة البحر الأحمر ويكونهم حلقة الوصل إلى النوبة والحبشة جنوباً.

على أية حال، لم يقف ضمان أمن البحر الأحمر عند قوص، بل حرصت السلطات الإسلامية - من الفاطميين حتى المماليك - على وقف أية محاولات لاختراق هذا الأمن من جهة مملكتى النوبة والحبشة النصرانية. وقد ربطت أساطير القرن الثانى عشر الميلادى بين ملك النوبة وبين مهاجمة مكة المكرمة والمدينة المنورة مدعية أنه ابن الكاهن يوحنا صاحب الأسطورة الشهيرة (١٢٤) واهتم الصليبيون بالنوبة ووضعها الباباوات ضمن دائرة اهتمامهم لتوحيد الكنائس تحت سيطرة روما. ولذا نجد حرص الأيوبيين بصفة خاصة عليها. وأرسل صلاح الدين حملتين الأولى فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م بقيادة تورانشاه و«أمنت بعده البلاد واطمأن أهلها» (١٢٥) غير أن قوص تعرضت للخطر فخرجت حملة ثانية بقيادة العادل سيف الدين فى عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م حيث «استأصل شأفتهم وأحمد ثأرتهم» (١٢٦).

وفى أواخر عهد الدولة الأيوبية وفى ظل الاستراتيجية الصليبية الرامية إلى الاستيلاء على مصر، بحث الصليبيون عن حليف من الجنوب لمهاجمة مصر معه. فدخلت النوبة فى بؤرة الاهتمام البابوى، فوردت ضمن المراسيم البابوية فى عامى ١٢٤٥، ١٢٥٣م. ووجهت إليها الدعوات للانضمام إلى

الكنيسة الغربية خاصة وأن كنيستها كانت تتبع بطريرك الإسكندرية (١٢٧).

وفى عهد دولة المماليك الأولى عاد التهديد النوبى لعذاب بصفة خاصة والتي حرص سلاطين المماليك على حمايتها من أية أخطار تتعرض لها لضمان أمن البحر الأحمر عصب الحياة الاقتصادية. وفى ٢١ محرم ٦٧١هـ / ١٨ أغسطس ١٢٧٢م قام داود ملك النوبة بمهاجمة عذاب ونهب تجار عدن ومصر وقتل خلقاً منهم وكذلك قاضيه وواليها وأسر ابن حلى المشرف على بضائع التجار. وعلى الفور أمر بيبرس بالرد على الغارة فخرج والى قوص بعد حوالى ثمانية أيام. أى فى صفر مما يدل على سرعة تحركه لضمان أمن البحر الأحمر. وتوغل فى بلاد النوبة «ودوخ بلادهم وفعل الأفاعيل التى شفى بها صدر الدولة. وأخذ بها ثأراً من قتل بسيف تلك الصولة» (١٢٨) وبعد ذلك بعدة سنوات عادة النوبة لتهديد قوص فخرجت حملة فى عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م بقيادة عز الدين أليك الأفرم وشمس الدين أقسنقر الفارقانى فهاجمتها وكسرت شوكة ملكها ولم يبق من جماعته إلا القليل (١٢٩) كذلك جرد المنصور قلاوون عسكرياً صحبه الأمير علم الدين سنجر المسرورى وعز الدين أيدمر السيفى والى قوص لغزو النوبة فى عام ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م بعد تكرار تهديدها لأمن البحر الأحمر (١٣٠). وقد نجح المماليك فى حماية هذا البحر من جهة الجنوب خاصة خطر النوبة وذلك لعلمهم بالمحاولات الصليبية المستمرة للبحث عن حليف من هذه الجهات لاختراق هذا البحر وتجارته التى كانت عصب الحياة الاقتصادية فى مصر، والتى اعتمد عليها المماليك - بعد الله عز وجل - فى جهادهم للصليبيين.

وعلى الرغم من أن الحبشة أصبحت أحد المحاور الرئيسية لدعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) وذلك لغلق البحر الأحمر من جهة الجنوب والقضاء على دولة المماليك التى نجحت فى طرد

الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، إلا أنها كان لها دوراً في تهديد أمن البحر الأحمر خلال عصر الحروب الصليبية. فقد هدد ملك الحبشة بهدم الكعبة المشرفة إذا تعرضت البيع - أى الكنائس - للخطر فى عهد بدر الجمالى^(١٣١). وقد أشار مؤرخو الحملة الصليبية الأولى إليها ضمن مؤلفاتهم. ولكن لم تكن معلومات واضحة، لنقص المعرفة الجغرافية آنذاك. ولكن زيارة الأثيوبيين للقدس ولقاءهم برجال الدين الغربيين دفع إلى التفكير لقيام مملكة نصرانية عند حدود آسيا وأفريقيا قد تكون عند الهند أو أثيوبيا^(١٣٢). ومع ظهور أسطورة الكاهن يوحنا مع بداية السبعينيات من القرن الثانى عشر الميلادى، عادت الحبشة للدخول فى بؤرة اهتمام الصليبيين خاصة مع وجود الأحباش فى القدس^(١٣٣). ولاشك أن صلاح الدين أدرك البعد الأمنى بالنسبة لدولته عامة وللبحر الأحمر خاصة من جهة الحبشة. فسمح لهم بالمرور عبر الطريق البرى للوصول إلى القدس. كما أعفاهم من ضرائب تدفع بها^(١٣٤). وربما يكونوا ممن سمح لهم بالإقامة فيه عقب استرداده فى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م^(١٣٥).

وفى ظل الاستراتيجية الصليبية الرامية إلى أن «مفتاح القدس موجود فى مصر على وجه الدقة»^(١٣٦) ازدادت أهمية الحبشة. وبحث الصليبيون عن ابن الكاهن يوحنا حيث عادت الأسطورة للظهور مرة أخرى أثناء الحملة الصليبية الخامسة مقترنة بأخرى ادعت أنه عندما تسقط مدينتين ساحليتين مصريتين هما الإسكندرية ودمياط فإنه سيلتقى ملكان أحدهما من الشرق والآخر من الغرب وذلك فى القدس^(١٣٧). وازداد يقين الصليبيين بهذه الأسطورة مع اجتياح جحافل جنكيز خان لآسيا فى طريقه إلى الغرب وعود فردريك الثانى بالحضور إلى دمياط والذى ظل الصليبيون يترقبون وصوله^(١٣٨). وعقب فشل الحملة الخامسة أرسل جاك دى فيتري مبعوثاً إلى الحبشة للبحث عن الملك المشار إليه فى الأسطورة، وذلك لكى يتم عقد

تحالف صليبي حبشى من الشمال والجنوب ضد الدولة الأيوبية (١٣٩). وعلى الرغم من عدم تحقيق هذه المحاولة لأية نتائج. فإن الحبشة ظلت تتردد فى المراسيم البابوية حيث أرسلت إليها مبعوثين من قبلها وتوضح رسالة البابا كليمنت الرابع المؤرخة فى ٨ فبراير ١٢٦٧م إلى أن مقدم الرهبان الدومنيكان أرسل مبعوثيه إلى أثيوبيا. وصحبهم أحد الرهبان الذى كان يعرف الطريق جيداً إلى هناك ولم يكن هذا عبر البحر الأحمر - والذى حافظ عليه المماليك بحراً إسلامياً - وإنما سلك طريقاً آخر يمر ببلاد التتار فى فارس ثم عبر الخليج العربى والهند ثم يبحر من أحد موانئها إلى شرق أفريقيا. وكان هذا هو خط السير الوحيد الذى سمح للاتين والأثيوبيين أن يبعدوا عن الصعاب التى تعترض طريقهم (١٤٠).

ولم تكن هذه المحاولات بعيدة عن إدراك المماليك. فقد عملوا على منع قيام أى تحالف من شأنه أن يهدد أمن البحر الأحمر. واستغلوا ارتباط الحبشة بمصر من النواحي التجارية والثقافية والأكثر من ذلك النواحي الدينية. ويشير العمرى لهذا الارتباط بقوله «لتمكن المترددين من عندهم من زيارة الأماكن المقدسة». وارتباط اليعاقبة - ومنهم الأحباش - بمصر «لمقام بطيركههم عنده، فإنهم لا ياب لهم بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو بروميه» (١٤١). كما أن علاقة مصر باليمن فى عهد دولة المماليك الأولى مكنها من إحكام المراقبة على الحبشة حيث لم يسمح لأى مبعوث حبشى بالمرور إلا بعد الكتابة إلى مصر بشأنه (١٤٢).

وثمة خطر آخر هدد أمن البحر الأحمر ونقصد به خطر حرامية البحر الذين استخدموا جزر دهلك وسواكن مكرماً لهم (١٤٣). وهدد هؤلاء السفن خاصة المنطقة ما بين عيذاب وسواكن. وقد اهتمت السلطات الفاطمية بالقضاء على هذا الخطر. وذكر كثير من المؤرخين بأن عدة هذا الأسطول كانت خمسة استناداً على رواية المقرئى فى ذلك (١٤٤). وبعد قراءة نص

آخر للمقریزی فی اتعاظ الحنفا یتضح أن الفاطمیین رصدوا سفناً مختلفة لحماية هذه المنطقة منها الشوانی والحراریق وذلك عندما هاجم شریف مكة قاسم بن هاشم سفن التجار فی عام ٥١٢هـ/١١١٨م (١٤٥). أما هذه السفن الخمس فقد أضافها الفاطمیین إلى جانب الأسطول السابق. وأن یکشف ما بساحل عیذاب من الشوانی والحراریق، فمهما كان یحتاج إلى إصلاح وممرمة ینجز الأمر فیه» «وتقدم إلى المستخدم بصناعة مصر بتقدیم خمس حراریق وتكملیلها لیسیروا (كذا) إلى الحجاز»، «فجهز إلى الأعمال القوصیة الاهتمام بالجلاب الدیوانیة وترمیم ما یحتاج إلى المرمة، وتجدید عوض ما تلف» (١٤٦). ومن ناحية أخرى نلاحظ أن مسئولیة هذا الأسطول عهد بها إلى والی قوص مما یدل على أهمية الربط بین قوص وأمن البحر الأحمر وهو ما سبق الإشارة إلیه.

وفی عهد الدولة الأیوبیة أسهم هذا الأسطول فی توفير الأمن الاقتصادي لهذا البحر وخاصة عند ساحله الشرقی، فیشير العماد الكاتب إلى أن صلاح الدین عندما أسقط المكوس المفروضة على الحجاج وعوض صاحب مكة بشمانية آلاف أردب قمح تحمل إلیه كل عام حملته الجلاب الثلاث (١٤٧). ولا یعنی ذلك نجاح السلطات الإسلامیة فی القضاء تماماً على خطر هؤلاء الحرامیة فیشير أحد خطابات الجنیزة إلى أن مراكب التجار لم تكن دائماً بمنأى من هذا الخطر (١٤٨). وربما كان ذلك دافعاً إلى موافقة الفاطمیین لكبیر التجار اليهود فی عدن على حماية سفنه التي یملکها أو یشرف علیها (١٤٩).

وفی بداية دولة الممالیک، عاد التهديد مرة أخرى لأمن البحر الأحمر من جانب جزیرتی دهلك وسواکن. فقد تعرضوا لأموال من یموت من التجار وذلك فی عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م. وفی البداية أرسل الظاهر بیبرس إلیهم بدر الدین ابن الدایة ینکر علیهم ذلك (١٥٠). ولكن عندما تكرر هذا

التهديد في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م سارع بيبرس بإرسال حملة بحرية قوية لتأديب صاحب سواكن. وخرج وإلى قوص على رأس هذه الحملة المؤلفة مما يزيد على أربعين مركباً «كباراً وصغاراً» وشحنت بالمقاتلة. كما خرجت خمسة كلالين موثقة من القصير. واستمرت هذه الحملة لمدة عشرة أيام تمكن بعدها قائدها علاء الدين من أن يقضى على هذا الخطر «وتمهدت البلاد» وعاد صاحبها للدخول في طاعة الدولة^(١٥١). ونلاحظ على رواية المصادر أن هناك مراكب صنعت لهذه الحملة. ومنها ما كان جاهزاً في القصير والتي ربما كونت جانباً من الأسطول الذي عهد إليه حماية هذه المنطقة. كما أنها تدل على مركز جديد من مراكز الحماية في البحر الأحمر وهو القصير. ويبدو أن هذه الحملة كانت من الكفاية بحيث لم يعد هؤلاء الحرامية إلى تهديد أمن البحر الأحمر فلم تشر المصادر إلى تهديدهم للتجار، وذلك نظراً للاستراتيجية الشاملة التي اتبعتها دولة المماليك بالنسبة للبحر الأحمر فحرصت على توفير الأمن له من جميع جهاته سواء مداخله الشمالية أو الجنوبية أو على طول ساحليه الشرقي والغربي، بل أيضاً في جزره.

وثمة نوع آخر من الحماية وفرتها السلطات الإسلامية لأمن البحر الأحمر. ونقصد بذلك الأمن الاقتصادي وهو لا يقل بحال عن الأمن العسكري فقد حرص الفاطميون والأيوبيون والمماليك على منع أية قوى غير إسلامية أن تبحر فيه. وعبثاً حاول الإيطاليون الحصول على امتيازات تجارية تقربهم إلى منافذ هذا البحر، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل^(١٥٢).

كما ألغى صلاح الدين الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج في جدة وعوض صاحب مكة بدلاً منها حتى يوفر الأمن للحجاج وكذلك للتجار^(١٥٣). كما وطد علاقته بزعيم اليهود في مصر موسى بن ميمون حتى يضمن التجار اليهود في اليمن جنوباً والذين كان لهم تجارة قوية في عدن على الرغم من أنه لم يسمح لهم بالتوغل فيه^(١٥٤). وقد أتت هذه السياسة

الأيوبية ثمارها ويؤكد ابن واصل وابن العميد ذلك حتى أن التجار شعروا بالأمان «فلا يخافون سارقاً ولا قاطع طريق» (١٥٥).

أما في العصر المملوكي فقد شجع بيبرس التجارة. فألغى تصقيع الأملاك الذي كان السلطان قطز قد فرضه. كما اشترط على الشريف نجم الدين أبي نمى «أن لا يتعرض إلى تاجر أو حاج بظلم» (١٥٦) وأغدق على أهل الحجاز وبدر وغيرهم حتى لا تؤثر اضطراباتهم على التجارة عبر البحر الأحمر (١٥٧) أما قلاوون فكان أكثر اهتماماً بتوفير هذا الأمن الاقتصادي للبحر الأحمر. فأبطل زكاة الدولة والتي كان كل تاجر يدفعها عند خروج الجنود للجهاد (١٥٨). كما أصدر مرسوماً عاماً لجميع التجار كي يحثهم ويشجعهم على القدوم بتجارتهم وأعطى لهم الامتيازات والأمان (١٥٩). ومن وصاياه لابنه «إطابة قلوب التجار واستمالة خواطهم ومعاملتهم بالعدل والإحسان والرفق والإنصاف: ليتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التـ مع اعتماد مصلحة الديوان المعمور» (١٦٠).

ولاشك أن المماليد حرصوا على توفير هذا الأمن الاقتصادي للبحر الأحمر، لعلمهم بمحاولات الحصار الاقتصادي لمصر من جانب الصليبيين وعلى الرغم من وضوح هذه السياسة في القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أن الجذور الأولى لها كانت أثناء القرن الثالث عشر الميلادي، فقد حاولت أرمينية القيام بهذا الدور. وكذلك الأمير الإنجليزي إدوارد الأول في حملته على الشام عام ١٢٧١م/٦٧٠هـ (١٦١) وقبل سقوط عكا بعام - أى في ١٢٩٠م/٦٨٩هـ - جرت محاولة صليبية لاختراق البحر الأحمر ولكن عبر طريق فارس - الخليج العربي - فوصلت أعداد من الجنوية إلى بغداد وتبعهم سبعمائة من الفريخ. ولكن المحاولة باءت بالفشل. وأخيراً كتب أحد الدعاة الصليبيين «إذا بنى البابا سفينتين في هذا البحر (الخليج العربي) فأى مكسب سيكون ولسلطان الإسكندرية أى خسارة ستكون» (١٦٢).

الهوامش

(١) ريمونداجيل: تاريخ الفرنج غزاة بيت المقدس، ترجمة د. حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) أشار المؤرخ المجهول وبطرس تيديوده إلى هذا الاجتماع دون أن يوردا لنا تفاصيله واكتفيا بالإشارة إلى أنه تم اختيار أسقف للرملة فقط. انظر: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وعلق عليه د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١١٤؛

Tudbodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere, trans by J. Hill and L.L. Hill, Philadelphia, 1974, p. 111.

وكذلك سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٤٠.

(٣) عن سقوط حيفا ودور البنادقة في ذلك انظر:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣، ص ٢٢٥؛
المقريزي، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمي أحمد،
القاهرة، ٧١-١٩٧٣، ج ٣، ص ٢٦، وكذلك:

Hagenmayer, Chronologie de la première croisade, in R.O.L. Vol. VII, Paris, 1900-1901, pp. 339-47.

Fulcher of Chartres, A History of the Expeditions to Jerusalem (٤)
(1095-1127) trans, by Frances Rita Ryan, ed., with an introduction by H.S.
Fink, Knouville, 1969, IV, pp. 146-47.

The Alexiad of Anna Commena, trans from the Greek by E.R. Sewter , (٥)
Penguin Books, 1982, pp. 355-57.

وعن تأثيرها على الطريق انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٦) ذكر وليم الصوري أن بلدوين هاجم قبيلة عربية في هذه المنطقة، ويذكر ألبرت اكس غارة أخرى على قافلة كانت تعبر هذه المنطقة واستولى بلدوين على أحمال ضخمة من السكر والفلفل والزيت والعسل حملها إلى القدس.

William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, tr. by Babcock and Krey, 2 vols. New York, 1943, 10-8, pp. 426-27; Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed., R.H.C.H - Occ., t. IV, Paris, 1879, p. 648, cf. also: J. Prawer, Crusader Institution , Oxford, 1980, pp. 473-74.

M. Benvenisti, The Crusaders in the Holy land, Jersualem, 1976, p. 319. (٧)

(٨) عن اتفاق بلدوين ودمشق انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٦٣-٢٦٤، وكذلك:

Prawer , Crusader Inst., pp. 474-75; Ricahrd, J., The Latin Kingdom of Jersualem, 2 vols. trans. from the original by Jeant Shirly, Amsterdam, 1979, p. 29.

(٩) لم توضح المصادر الصليبية هل بنى بلدوين قلعته فوق أنقاض الشويك القديمة أو أنه اتخذ موقعاً جديداً وكذلك اختلفت المراجع ما بين أنها بنيت على أنقاض الشويك أو بجوارها. للمزيد راجع:

Fulcher of Chartres, op.cit., p. 215, n.I; William of Tyre, op.cit., pp. 506-07; Cf. also: Benvensiti, op.cit., p. 319; Prawer, Crusader, Inst., p. 467.

Flucher of Chartres, op.cit., 11, LV. p. 215; William of Tyre, op.cit., 11, (١٠) 26, pp. 505-506; Cf. also, Prawer, Crusader Inst., p. 475.

حسين ربيع، البحر الأحمر في العصر الأيوبي - مقال في كتاب البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (مجموعة أبحاث) - القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٧.

(١١) خلط ألبرت أكس بين الحملتين مشيراً إلى خروج مائتي فارس وأربعمائة من المشاة مع بلدوين حيث تم بناء القلعة في ثمانية عشر يوماً، ثم تقدم مع ستين فارساً إلى البحر الأحمر، انظر: Albert d'Aix, op.cit., XII, c. 20, p. 699.

وتقع جزيرة فرعون على مسافة أربعة عشر كيلو متراً جنوب غرب أيلة وترك بلدوين حامية بها. انظر: Benvenisti, op.cit., p. 319.

(١٢) تأثر هذا الطريق أيضاً بالشدة المستنصرية التي ألت بمصر منذ عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، كما تركت تأثيرها على الأوضاع في بلاد الحجاز حيث خرج محمد بن جعفر بن أبي هاشم أمير مكة على الخلافة الفاطمية وأعلن تبعيته للخلافة العباسية. انظر:

حسين ربيع: البحر الأحمر، ص ١٢٢؛ عائشة بنت عبد الله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة ١٩٨٠، ص ٢٥-٢٦.

(١٣) أشار د. يوسف غوانمة إلى السيطرة الصليبية على تجارة البحر الأحمر ولو جزئياً، ثم عاد وتدارك ذلك بقوله إن ذلك لم يلحق إلا بالحجاج وهذا هو الصواب. انظر: إمارة الكرك الأيوبية، ط ثانية، الأردن ١٩٨٢، ص ٦٥.

Richard , The Latin Kingdom, p. 88. (١٤)

ولم يحدد لنا مصدره الذي استقى منه هذه المعلومة.

(١٥) استخدم بلدوين الطريق الشمالى المار بالعرش ثم يصل إلى الأفرع الشمالية لدلتا النيل واستخدمته أيضاً عدة حملات صليبية هاجمت مصر، وكذلك القوات الفاطمية التي كانت تخرج إلى عسقلان بركا. وأشار وليم الصورى إلى دور قبائل البدو فى هذه المنطقة حيث أخذ معه مرشدين متمرسين. كما ذكر ألبرت أنهم قدموا له الماء والطعام لتجنب خطره. وقدر عدد قوات بلدوين بمائتين وستة عشر فارساً وأربعمائة من المشاة.

William of Tyre, op.cit, 11-13, p. 515; Albert d'Aix, op.cit., p. 705.

وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٢٩. أما العرش فيشير ياقوت أن أهلها من جذام وهناك بشرى أبى إسحاق على مسافة ستة أميال منها وكانت تمر عليها القوافل. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، أجزاء، بيروت، ١٩٨٠، ج٤، ص ١١٤.

(١٦) أشار ألبرت إكس إلى هذه الرواية، بينما لم يوردها فوشيه الذى لم يكن مصاحباً للحملة. وربما كانت صحيحة نظراً لحرص هؤلاء الرهبان على علاقتهم بالسلطات الإسلامية سواء الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية والتي حرصت من جانبها على توفير الأمان لهم وحمايتهم من اعتداءات البدو. للمزيد انظر: جوزيف نسيم يوسف، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبي، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، العدد ١٨ سنة ١٩٦٤، ص ١٨٢ وما بعدها.

(١٧) كان جانباً من هذه القبائل يعتنق النصرانية وقد هجر بلدوين الأول قسمًا منها إلى القدس وذلك فى عام ١١١٦م/٥١٠هـ وبعد حملاته على هذه الجهات، كما حصلوا على امتيازات منه مثل المساكن وقطع من الأرض لزراعتها انظر:

William of Tyre, op.cit., XI, 27, pp. 507-08, Cf. Also: Prawer, Crusader Inst., pp. 92-93.

Prawer, Crusader Ins. p. 472.

(١٨)

William of Tyre, op.cit., II, 15/22, pp. 127-128; Cf. also: Deschamps, p. (١٩)

Les chateaux des croises en terre Sainte: La defense du royaume de Jerusalem, 2 vols., Paris, 1934-9, pp. 38-39.

(٢٠) أشرنا إلى تشييد قلعة وادى موسى فى عام ١١١٧م/٥١١هـ وذكرها وليم الصورى فى عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ حيث دعا البدو فى هذه المنطقة السلاجقة للاستيلاء عليها. وتقابلها سلا Celle أو الصلت ثم تافيللا ويلاحظ أنها تقع بطول الطريق المؤدى إلى أيلة. انظر عن موقعها خريطة رقم (١).

(٢١) بالإضافة إلى الطريق الساحلى عبر شبه جزيرة سيناء «كان هناك الطريق المدرية - الذى سعى بذلك لأن جانباً منه كان قريباً من النيل فسمى بذلك أى قطع الطين اليابس، كما كان هناك الطريق البدوية أو الفوقانية بعيداً عن الطريق الشمالى وعبرته القوافل بعيداً عن تهديد الصليبيين وكان يقطع فى ثمانية أيام، كما سلكه المتهربون من التجار بعيداً عن دفع الحقوق السلطانية عند الفرما. كما وردت إشارة إلى طريق البرية وهو الذى سلكه صلاح الدين أثناء عودته بعد هزيمة تل الصافية فى ١١٧٧ م/ ٥٧٣ هـ. للمزيد انظر: سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ج ٨، ق ١، حيدر آباد - الدكن، ١٩٥١-١٩٥٢، ص ٣٤٣؛ أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، ٢ ج فى مجلد واحد، ج ٢، ص ٢٨ ك ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٨، ح (٤)؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢٢) ابن أبيك، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢٣) انشئت قلاع أخرى مثل بير سبع واللد والرملة والداروم ونقلت أسر ومزارعون للإقامة حولها وإمدادها بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات للمزيد راجع:

William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 80-81, 130-132; Cf. also: Benvenisti, op.cit., pp. 114-117; Prawer, Crusader Inst., pp. 473-78; Mayer, H.E., The Double County of Jaffa and Ascalon, One Fief or Two? in Crusade and Settlement, Cardiff 1985, pp. 181-187.

(٢٤) للمزيد راجع: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٨٠؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٩٩ وما بعدها، وكذلك:

Schlumberger, G., Campanages du roi Amaury I de Jerusalem en Egypte au XII Siècle, Paris, 1906, pp. 117-119, 136-140; Omran, M.S., King Amalric and the Siege of Alexandria, 1167, in Crusade and Settlement, Cardiff, 1985, pp. 191-196.

(٢٥) مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٩١.

Prawer, Crusader Inst., p. 479.

(٢٦)

(٢٧) أشار سبط ابن الجوزى إلى إغارة صلاح الدين على غزة وعسقلان والرملة، كما حدد

ابن الأثير استرداد أيلة في العشر الأول من ربيع الآخر/ ١٢ - ٢١ ديسمبر ١١٧٠م،
للمزيد انظر:

مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٢٨٣ الكامل، ج٩، ص ١١٠، وكذلك يوسف
درويش، إمارة الكرك، ص ٦٢، راجع أيضاً:

Richard, The Latin Kingdom, pp. 50-51.

(٢٨) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢٤٢، وردت هكذا في النص وصحتها موثلاً (١).

(٢٩) نفسه، ص ٢٤١-٢٤٣.

(٣٠) نفسه، ص ٢٤٢.

Prawer, Crusader Inst., p. 480.

(٣١)

(٣٢) عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامى، الجزء الثالث، تحقيق د. مصطفى الحيارى،

عمان ١٩٨٧، ص ٦٦-٦٧، أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢٧٦ وعن صدر انظر:
ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٣٩٧.

(٣٣) المقرئى، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، صورة بالأوفست عن طبعة بولاق،
١٢٧٠هـ، ص ٢١١.

(٣٤) أشار الأصفهاني فى رواية أخرى إلى خروج وإلى الشرقية لردهم. أما الداروم فتقع على
بعد ٥ أميال من غزة. وكانت تتحكم فى فرض الضرائب سنوياً على سكان القرى
المجاورة وكذلك على المسافرين عبر هذه الطريق. وذكر ياقوت أن فاران كورة من كور
مصر القبلية.

William of Tyre, op.cit., 20/19, p. 371-72.

ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٦٢، ابن شاهنشاه الأيوبي، مضممار الحقائق وسر
الخلايق، تحقيق: د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٥٠-١٥١ وحدد الغارة فى
٢٤ محرم/ ١٩ مايو ١١٨٣ م. عماد الدين الأصفهاني، البرق، ج٥، ص ١٤١،
ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٢٥.

Chronique d'Ernoul et Bernard le Trésorier, ed. L. de Mas Latrie (Paris (٣٥)
1971), p. 68.

(٣٦) لم تذكر المصادر صراحة خروج أرناط إلى تيماء وإنما أشارت إلى عزمه على ذلك. أما
أرنول فقد أشار إلى نهب أرناط لقافلة إسلامية متجهة من دمشق إلى مكة. للمزيد انظر:
Ernoul, op.cit., pp. 54-56.

ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٥٢-١٥٣، أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ٢٣-٢٤.

(٣٧) عماد الدين الأصفهاني الكاتب، البرق الشامي، ج٥، تحقيق وتقديم الدكتور فالح صالح حسين، عمان، ط أولى، ١٩٨٧، ص ٧٣.

Ernoul, op.cit., pp. 69-70.

(٣٩) الخطط، ص ٢١١.

(٤٠) مفرداها جلبة وتجمع أيضا جلب وجلبات. واستخدمت بصفة خاصة في البحر الأحمر. وأورد ابن جبير وصفاً دقيقاً لها، وأشار ابن بطوطة إلى حملها للجمال أيضاً أثناء عبورها مما يدل على ضخامتها واستخدمت في نقل الحجاج أيضاً فيما بين عيذاب وجدة. وهي (٣٨) لا يستعمل فيها مسمار وتربط عيدان النخيل بخيوط من قشر جوز النارجيل وتدهن بدهن الخروع أو القرش وذلك حتى تصير لينة. وللمزيد راجع: درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص ٢٧-٢٩.

Ernoul, op.cit., p. 69.

(٤٢) هناك أنواع عديدة من الشينى - مثل الغراب والطريدة والجفنة والحراقة وهي جميعاً من سفن البحر المتوسط باستثناء الحراقة التي أشير إلى استخدامها في البحر الأحمر ولكنها لم تكن تبني من عيدان النخيل ولم تكن شائعة الاستخدام. وفي الواقع أن الصليبيين لم يكن لديهم الخبرة في أعمال البحر اعتماداً على المدن الإيطالية التي قامت بدور الوسيط (٤١) بينهم وبين أوروبا. ولم يكن لمملكة بيت المقدس أسطول بحرى مما يؤكد ما توصلنا إليه عن دور بدو هذه المنطقة وعلاقتهم ببناء هذه السفن. وعن أنواع السفن السابقة انظر: درويش النخيلي، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٧، ٨٤، ٨٩، ١٠٦.

(٤٣) الروضتين، ج٢، ص ٧٢.

(٤٤) أكد سبط بن الجوزى إحضار أرناط للأخشاب معه وقيام الصناع بصناعتها عند أيلة: انظر: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٣٦٩.

(٤٥) أشار أرنول صراحة إلى السفن الخمس. ولم تحدد المصادر العربية إلا سفينتين عند جزيرة فرعون، أما باقى الأسطول فلم تحدد لنا عدده. ويشير براور فقط إلى ثلاثة اثنتان حاصرتا الجزيرة وأبحرت الثالثة دون أن يحدد لنا مصدره فى ذلك. انظر:

Ernoul, op.cit., p. 69, Cf. also: Prawer, The Latin Kingdom, p. 482.

(٤٦) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ٣٦؛ اتفق سبط ابن الجوزى والعماد الكاتب فى عدد الأسرى بأنهم مائة وسبعين أسيراً، وأرسل اثنان منهم إلى منى حيث نحرهما ومنهم من أرسل إلى المدينة المنورة وكذلك شاهد ابن جبير هؤلاء الأسرى فى أثناء زيارته

للإسكندرية. أما العليمى فيشير إلى أنه تم اختيار اثنين من أعيان الفرنج ونحرا فى منى ويشير شامبرجيه إلى قرار الباقيين شمالا إلى الكرك عبر الصحراء. ولم يعط لنا أرنول أية تفاصيل عن الحملة سواء فى البحر الأحمر أو عند نزولها إلى ساحل الحجاز. انظر: ملحق رقم (١). وكذلك: سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ق ١، ص ٣٦٩، العماد الأصفهاني، البرق، ج٥، ص ٧٥؛ العليمى (مجير الدين)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ج فى مجلد واحد، عمان ١٩٧٣، ص ٢٨٠-٢٨١.

Schulmberger, G., Reanud de Chatilion, Prince d'Antioche Seigneur de le Terre d'Outre Jourdain, Paris, 1898, pp. 204-210.

(٤٧) كذلك أشار د. يوسف غوانمة إلى مشاركة الداوية بثلاثمائة فارس مع أرنط وهو ما لم يشر إليه أرنول - المصدر الصليبي الوحيد عن الحملة - كما أن الداوية لم يملكتوا قلاعاً على هذا الطرق تؤهلهم للمشاركة فى هذه الحملة. للمزيد انظر: يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ص ١٢٨-١٣٢؛ صبحى لبيب، التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، الجمعية التاريخية المصرية، ١٩٥٣، ص ٨-٢١١.

Schulmberger, op.cit., pp. 206-208; La Mont J., Feudal Moarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291, Massachusetts, 1939, pp. 140-41.

(٤٨) العليمى، الأنس الجليل، ص ٢٨٩-٢٨١.

(٤٩) يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ١٢٨-١٢٩.

(٥٠) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٩٨.

(٥١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، تحقيق دوروتيا كرافولسكى، ط. أولى، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢١٢-٢١٣.

(٥٢) الروضتين، ج٢، ص ١٣٤.

(٥٣) عن حملات صلاح الدين على الكرك انظر:

Schulmberger, op.cit., p. 210 ff.

Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, trans. by John J. Gavian, Philadelphia, 1948, pp. 45-46.

وللمزيد من عروض الصلح أثناء الحملة الصليبية الخامسة انظر: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى برين على مصر، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ٣٢٢-٣٢٣؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ١٦٧-١٧١.

- (٥٥) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار الحسيني، ط أولى، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٨٠؛ المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الأول، ٣ أجزاء، نشر وتعليق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٤٢، ج١، ص ٣٢٨.
- (٥٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر د. عبد العزيز الخويطر، ط أولى، الرياض ١٩٧٦، ص ٢٢٠.
- (٥٧) نفسه، ص ١٠١.
- (٥٨) نفسه، ص ٣٥١.
- (٥٩) ييبرس الدادوار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة عطاء، شركة المدينة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٣٧-٢٣٨.
- (٦٠) أشارت المصادر الصليبية إلى أسماء بعض القبائل فى هذه الفترة المبكرة مثل قبيلة المناسة وقبيلة سمعان، كما سرد وليم الصورى علاقة بلدوين بأحد زعماء القبائل فى المنطقة، ومن ناحية أخرى أطلق على البدو لفظ سedar انظر:
- William of Tyre, op.cit., pp. 355-57, 412-13; Cf. also, Prawer, Crusader Inst., pp. 471-72.
- وعن علاقة بلدوين بالبدو انظر: محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٦٧ ح (١).
- (٦١) المقرئى، البيان والإعراب بمن حل مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١، ص ٣-٤. وأشار إلى أنهم بطن درما وزريق.
- (٦٢) تاريخ دمشق، ص ٥٣٩-٥٤٠.
- William of Tyre, op.cit., II, 118-119, 231-32.
- (٦٤) ابن جببر، رحلة ابن جببر، بدون تاريخ، بيروت، ص ٥٧.
- (٦٥) الروضتين، ج٢، ص ٧٢.
- (٦٦) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ق ١، ص ٢٩٣.
- (٦٧) العماد الكاتب، البرق، ج٣، ص ١٠٢.
- William of Tyre, op.cit., II, XXI, 23, pp. 430-31. (٦٨)
- ويؤكد العماد الكاتب وأبو شامة أن أعدادا كبيرة من قوات صلاح الدين ضلت الطريق بل إن الأدلاء خرجوا للبحث عن صلاح الدين نفسه، انظر: البرق، ج٣، ص ٤١.

- (٦٩) القلقشندي، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ ج، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠، ج١٣، ص ٨٩.
- (٧٠) المكين جرجس ابن العميد، أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن فى B.E.O، جزء ١٥، ص ٨٩.
- (٧١) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١-٣، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠، ج٤-٥ تحقيق الدكتور محمد حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧، ج٥، ص ١٥٧.
- (٧٢) ابن لقلق (كيرلس الثالث)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المجلد الرابع، نشر د. أنطون خاطر، القاهرة ١٩٧٤، ص ٩١-٩٢.
- (٧٣) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٢ ج، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٧-١٩٨٨، ج١، ص ٨٩.
- (٧٤) شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرة، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ص ٧٤.
- (٧٥) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٦٤-١٦٥؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فيسبادن، ١٩٨٣، ص ٣٣٤-٣٣٥؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٩٨؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٤٨٠-٤٨١.
- (٧٦) يرجع اهتمام بيبرس بالبريد لضمان وصول الأخبار إليه فى أسرع وقت لكى يلم بأحوال البلاد، انظر بيبرس المنصورى، التحف المملوكية فى الدولة التركية، نشر د. عبد الحميد صالح، بيروت ١٩٨٧، ص ١١٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٥٠؛ شافع بن على الفضل المأثور، ورقة ٩٦ و ٩٦ ظ.
- (٧٧) شافع بن على، حسن المناقب، ص ٧٧.
- (٧٨) التحف المملوكية، ص ١١٥-١١٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٥٠.
- (٧٩) تدخل المعز لدين الله الفاطمى لكى يصلح بين بنى الحسن وبنى جعفر أثناء الصراع الدائر بينهما وذلك فى عام ٣٤٨هـ/٩٥٩م، انظر : عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ١٩-٢٠.
- (٨٠) توقفت المساعدات الفاطمية للحجاز أثناء هذه الشدة مما أدى إلى خروج محمد بن جعفر بن أبى هاشم على الخلافة الفاطمية وإعلان ولائه للعباسيين. انظر: حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١٢٦؛ عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ٢٥-٢٦.

(٨١) المقرئى، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج٣، ص ٥٨-٥٩؛ درويش

النخلى، السفن الإسلامية، ص ٣٣.

(٨٢) أقطع نور الدين القطائع للعرب فى الحجاز حتى يكفوا عن اعتدائهم على الحجاج،

وكذلك فعل الحافظ بن عساكر أما الوزير جمال الدين وزير الموصل فقد بنى سوراً

حول المدينة المنورة - على أفضل ساكنيها الصلّام والسلام - لكى يحميها من غارات

هذه القبائل. انظر: النويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٨، ق ١، ص ٢٠٥،

١٠٣٠٦، ٢٤٨

(٨٣) عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ٣٨.

(٨٤) الروضتين، ج٢، ص ٣٧.

(٨٥) الأنس الجليل، ص ٢٨١.

(٨٦) عاتق بن غيث البلادى، معجم قبائل الحجاز، مكة ١٩٨٢، ص ١٣٣، ١٨٠.

(٨٧) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٢٠.

(٨٨) شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٦٨؛ ابن عبد الظاهر، الروض، ٢٧٦، أما العداد

فهو زكاة مفروض سنوياً على قطعان القبائل التركمانية والعربية، المقرئى، السلوك، ص

٤٨٠-٤٨١.

(٨٩) بلى من أشهر بطون قضاة وهاجر عدد كبير منهم إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر

عند شمال شرقى السودان. ومنهم من هاجر إلى الشام ومصر. وعمل جانب منهم على

درك الحج. فمنهم أهل حمل ودرك كالجعافرة ومنهم أهل حمل فقط. أما الرسل

الذين وفدوا على يبرس فهم مالك بن بدر الزبيدى وغانم بن سند الزبيدى وشبل بن

عراوة البلدى وقيل البلوى، للمزيد راجع: ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٥؛ ابن

شداد، سيرة الظاهر بيبرس، ص ٣٢٩-٣٣٠، وكذلك: عاتق بن غيث، معجم قبائل

الحجاز، ص ٤٣-٤٤ وعن أصول القبائل العربية التى هاجرت إلى الشام انظر: محمد

محمد مرسى الشيخ، القبائل العربية فى بلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٠،

ص ٣٧-٢٢.

(٩٠) بنو صخر بطن من جذام كانوا يقطنون جهات العلا بالحجاز ثم نزحوا إلى بلاد الكرك

ولما ضايقتهما بشائرها انتقلت إلى البلقاء فضايقتها عدوان فارثلت إلى جهات غزة.

وحدث أيضاً بينها وبين ثعلب صدام فى أواخر العهد الأيوبرى. أما بنو لام فهم بطن من

طلى والتى كانت ديارها تمتد إلى تيماء، ونزلوا حول المدينة المنورة، وبنو عتتر من جذام

وكانت منازلهم البلقاء ومنهم بالحجاز. انظر: عاتق بن غيث، معجم قبائل الحجاز، ص

٢٤٤-٢٤٥، ٤٨٦.

- (٩١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥٦.
- (٩٢) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥١-٣٥٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٤٦-٤٧؛ بيبس المنصورى، التحف الملوكة، ص ٨٨.
- (٩٣) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٢٤٤.
- (٩٤) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٦٥.
- (٩٥) شافع بن على، الفضل المأثور والسلطان الملك المنصور، البودليان باكسفورد رقم ٤٢٤ ميكروفيلم، ٨٠ ظ.
- (٩٦) أرسلت الدولة الفاطمية حملة بقيادة الصليحي عام ٤٥٤هـ/١٠٦٣م للقضاء على تمرد محمد بن جعفر بن أبى هاشم، انظر: عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٠٧-١٠٨.
- (٩٧) حسنين ربيع، وثائق الجيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى، ضمن دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ١٣٤.
- Ashtor, E., Levant Trade in the Later Middle Ages, Princeton, New Jersey, (٩٨) 1983, pp. 270-71.
- (٩٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٨٦، كما أورد أبو شامة روايات المؤرخين المختلفة حول أسباب فتح اليمن. أما السبط فقد أشار إلى استئذان صلاح الدين فى فتحه لليمن. وأشار أرنول باختصار إلى فتح صلاح الدين لليمن مما يدل على علم الصليبيين بذلك. انظر: الروضتين، ج١، ص ٢١٦-٢١٧؛ مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٢٩٩؛ راجع أيضاً: Ernoul, op.cit., p. 54.
- وكذلك محمد عبد العال، الأيوبيون فى اليمن، مع مدخل فى تاريخ اليمن الإسلامى إلى عصرهم، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٧٠-٧١.
- (١٠٠) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٢٧، وعن الاضطرابات فى اليمن قبل حملات الملك المسعود، انظر نفسه، ج٣، ص ١٣٥-١٣٨.
- (١٠١) حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١٢٢، وتجدر الإشارة إلى أنه أعدت حملة أيوبية لاسترداد اليمن فيما بعد عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ وكانت حملة ضخمة مكونة من ألفى فارس وأربعين مركباً. ولكن حدث ما عطل الحملة ولم يخرج سوى ثلاثمائة أو

- أربعمائة فارس بهدف إبعادهم إلى مكة. انظر: ابن لقلق، تاريخ بطاركة الكنيسة، ص ١٠٦-١٠٧.
- (١٠٢) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٨٨.
- (١٠٣) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٨٢.
- (١٠٤) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٣٥، وكذلك: سعيد عاشور، مركز مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى، مقال في كتاب دراسات وبحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٣٥.
- (١٠٥) ناصري خسرو علوي، سفر نامه - نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٤، ص ٧٢.
- (١٠٦) حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١١٨.
- (١٠٧) مسالك الأبصار، ص ١٤٧، ١٤٩.
- (١٠٨) تاريخ الملك الظاهر بيبرس، ص ٣٣٥.
- (١٠٩) Gracin, Un Centre Muslman, Qus, IFAO, Caire, 1976, p. 99.
- (١١٠) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٨.
- (١١١) ابن جبير، الرحلة، ص ٦٣.
- (١١٢) نفسه.
- (١١٣) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ١٦٩، وكذلك: حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ص ١٢٠-١٢٣.
- (١١٤) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢٣٥.
- (١١٥) ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص ١٤٤.
- (١١٦) كيرلس الثالث (ابن لقلق)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، ص ١١٥.
- (١١٧) نفسه، ص ٨٤-١٠٨.
- (١١٨) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٢٨؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٩٢؛ المقریزی، السلوك، ج١، ص ٤٧١.
- (١١٩) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٣٣١.
- (١٢٠) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٢٨؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٢٨ وحدد شافع عدد الفرسان بمائتي فارس.

- (١٢١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٣٢.
- (١٢٢) بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٢٤٣.
- (١٢٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٥.
- (١٢٤) Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, pp. 49-50.
- (١٢٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٢٠؛ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- (١٢٦) نفسه، ص ٢٣٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٣٢.
- (١٢٧) Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 190.
- (١٢٨) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٤١٦؛ ابن شداد، سيرة الملك الظاهر، ص ٥٣.
- (١٢٩) بيبرس المنصوري، التحف الملوكية، ص ٨٢-٨٣؛ ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص ٧٧-٧٨؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٥٨-١٥٩ ويضيف شافع أن من أسباب مهاجمة النوبة فساد ملكها وعتوه وغارته على بلاد عدن.
- (١٣٠) بيبرس المنصوري، التحف الملوكية، ص ١١٨؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٢٤٣.
- (١٣١) زكي سلام شافعي، أهل الذمة، ص ٣١٠.
- (١٣٢) أشار فوشيه أوف شارتر وجيبرت دي نوجان وبلدريك أوف دول وألبرت أوف اكس ووليم الصوري في مؤلفاتهم إلى أثيوبيا مما يدل على معرفة مسبقة بها. أما عن المعلومات الجغرافية آنذاك فقد كانت مشوشة. فعلى سبيل المثال يشير أوليفر أوف بادربورن إلى أن أثيوبيا كانت بعد المنيا وهي متسعة ويسكنها عدد كبير من النصاري.
- انظر:
- Oliver of Paderborn, op.cit., p. 77, cf. also: John Kirtland Wright, The Geographical - lore of the time of the crusades, California 1965, pp. 114-115; Anna - Dorothee, Die Nathiones Christianorum orientalium im verstandnis der Latinshcen Historiographie, Wien, 1973, p. 264.
- Richard, J. Les premiers missionnaires Latin en Ethiopie (XII XIV siecles), (١٣٣) Variorum London 1976, p. 393; Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, pp. 350-51.
- (١٣٤) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، ص ٣٠٠.

(١٣٥) أشار ابن الأثير إلى سماح صلاح الدين ببقاء النصارى الشرقيين فى القدس عقب استرداده لها، انظر: الكامل، ج٩، ص ١٨٦.

(١٣٦) ميخائيل زابروف، الصليبيون فى الشرق، موسكو ١٩٨٦، ص ٣١٠.

Richard , The Latin Kingdom, p. 223. (١٣٧)

Ibid. (١٣٨)

كان أول ظهور لأسطورة الكاهن يوحنا فى حولية أوتو أوف فريزينج فى عام ١١٤٥م. أما خطاب الكاهن يوحنا المؤرخ فى عام ١١٧٧م والموجه إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (١١٢٣-١١٨٠م) فقد عثر على ما لا يقل عن ثمانين مخطوطة له وجهت بعضها إلى عدد من ملوك وأمراء الغرب الأوروبى. أما ما ورد فيه من أحداث فهى مستقاة من قصص الإسكندر والقديس توماس فى الهند ومن روايات شرقية أخرى. للمزيد انظر:

Richard, Les Premier Missionnaires, p. 323; John-Kirtland, op.cit., p. 114;

Anna - Dorothee, op.cit., p. 266.

وكذلك محمود سعيد عمران، الحملة الخامسة، ص ٢٣٦، ح ١.

(١٣٩) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة، ص ٣٠٠؛

Richard , Les Premiers Missionnaires, p. 324.

(١٤٠) وكانت هذه السفن تتجه إلى سومطرة ومقديشيو وزنجبار، انظر:

Ibid., pp. 324-26.

(١٤١) يقصد بذلك بطريك الإسكندرية. وتوجد مكاتبات عديدة بين ملك الحبشة «يكونوا

أملاك» والظاهر بيبرس، ثم بين ابنه يجيباميون والمنصور قلاوون، انظر: العمرى، مسالك

الأبصار، ص ١٣٥-١٣٨؛ ابن عبد الظاهر، تشرىف الأيام والعصور، ص ١٧٠-١٧٣.

(١٤٢) ابن عبد الظاهر، تشرىف الأيام، ص ٢٦٧.

(١٤٣) استخدم د. عطية القوصى لفظة المتجرمة. أما حرامية البحر والكرسالية فقد استخدمته

المصادر المملوكية للإشارة إلى هؤلاء القراصنة. انظر: ابن عبد الظاهر، تشرىف الأيام،

ص ١٦١، ١٦٥، ٢٠٦، وكذلك: عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر، ١٣،

١٤، وكذلك:

P.M. Holt, The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States, SOAS, Vol. XLIII, London, 1980, pp. 67-76.

(١٤٤) صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢٤، وكذلك : عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٢.
راجع أيضاً:

Ashtor, Levant Trade, p. 271.

(١٤٥) ج٣، ص ٥٨-٥٩. كذلك أورد د. درويش النخيلي نصاً من مخطوط اتعاظ الحنفا، انظر السفن الإسلامية، ص ٢٨، ٣٣.

(١٤٦) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥٨-٥٩.

(١٤٧) العماد الأصفهاني، البرق، ج٣، ص ١٠٥-١٠٦. وأشار إلى مقدم الجلاب الثلاث مما يدل على أنها سفناً تابعة للأسطول الأيوبي. راجع أيضاً: سعيد عاشور، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٤١-١٤٢.

(١٤٨) عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٦، حسنين ربيع، وثائق الجيزة، ص ١٣٧-١٣٨.

(١٤٩) عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٩.

(١٥٠) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٨٧؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٥٠٦.

(١٥١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٤٨؛ شافع، حسن المناقب، ص ١٠٦-١٠٧،

العينى، عقد الجمان، ج١، ص ٤٢٨؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٥٥٠، وقد

انفرد ابن عبد الظاهر بتحديد نوع السفن التى أبحرت من القصير بأنها «كلالين»

وربما تكون الكلك الذى أشار إليه د. درويش النخيلي وهى نوع من السفن الصغيرة

والتي ربما استخدمت كسفن إنقاذ. ويشير ياقوت الحموى إلى أهمية القصير فهو «مرفأ

سفن اليمن» ومرسى المراكب وهو أقرب موضع فى بحر القلزم إلى قوص». انظر:

السفن الإسلامية، ص ١٣٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(١٥٢) أوشك البيازنة على الحصول على فندق لهم بالقاهرة فى عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ.

ولكن لم يتم تنفيذ ذلك الاتفاق فقد خيرهم الفاطميون بين تعويضهم بفندق آخر فى

الإسكندرية أو الحصول على فندق فى القاهرة ولم يسمح لهم صلاح الدين بذلك فى

القاهرة حيث أشارت الوثيقة إلى فندق فى الإسكندرية فقط. انظر: صبحى لبيب، التجار

الكارمية، ص ٨-٩؛ جوزيف نسيم، علاقات مصر بالممالك الإيطالية فى ضوء وثائق

صبح الأعشى، مقال فى كتاب دراسات تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور

الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٦١-١٢٣.

Röhrich, R., Regesta regni Hierosolymitani, 2 vols. Innsbruck, 1893-1904,

no. 450.

- (١٥٣) انظر هامش ١٤٧.
- (١٥٤) زكى سلام، أهل الذمة، ص ١٩٠؛ سعيد عاشور، اليهود فى العصور الوسطى، ص ٩١.
- (١٥٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥٧؛ ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص ١٤.
- (١٥٦) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥٢.
- (١٥٧) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٢-٣٠٣.
- (١٥٨) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص ١٠٤؛ العيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٣٠.
- (١٥٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٢٩-٣٤٢.
- (١٦٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٦ ظ، وانظر ملحق رقم (٢).
- (١٦١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٢٠٢ وما بعدها.
- (١٦٢) Richard J., About an account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem States, Speculum XXVII, 1952, p. 174.
- (١٦٣) ميخائيل زابوروف، الصليبيون، ص ٣٠٧.

الملاحق والخرائط

الملحق الأول
النص الفرنسي القديم

- p. 69 Sour le rive de celle mer fist une fois 1; princes Renaus .
- p. 70 faire v. galies, Quant; 1 les ot failes, si les fist metre/ en mer,
et si fist entrer chevaliers et siergans et viandes asses pour
cierkier et pour savoir quels gens manoiient sour cele mer
d'autre part.11 se partirent d'ileuc, quant il se furent
apparellié, et se mirent cil haute mer'n'ainc puis k'il se
partirent de la, on n'oi parler, ne sot on k'il devinrent.

* Ernoul, op.cit., pp. 69-70.

«الترجمة»

غارة رينالد دى شاتيون على البحر الأحمر عام ١١٨٢م/٥٧٨هـ^(١).

نقلا عن : Ernoul, op.cit., pp. 69-70

وعلى شاطئ هذا البحر (الأحمر) أمر الأمير رينو بصنع خمس شوانى Galies^(٢). وعندما تم الانتهاء منها أنزلت إلى البحر وشحنت بالفرسان والجنود واللحوم (الأطعمة) الكافية وذلك لكي تبهر فى هذا البحر وتعرف أى نوع من الشعوب يسكن على شواطئه. وأبحرت (هذه السفن) بعد أن تجهزت متجهة إلى عرض البحر^(٣) وبعد رحيلها لم يسمع عنها شيء ولم يعرف أحد مصيرها^(٤).

(١) أتوجه بخالص شكرى إلى الأستاذ حسن عصمت المترجم بالإدارة العامة لجامعة الإسكندرية على مساعدته لى عند ترجمة هذا النص. وتجدر الإشارة إلى أن نفس النص ورد فى مجموعة P.P.T.S. Vol. VI, p. 56. ولكنى فضلت الرجوع إلى النص الأصيل الذى كان أكثر دقة فى تحديد نوع السفن المستخدم.

(٢) تعنى الشينى وهو نوع من السفن المستخدم فى البحر المتوسط وكذلك استخدمت فى النيل أثناء الحملتين الخامسة والسابعة على مصر. وكانت تسير بالمقاتلة والمجاديف. وتراوحت حمولتها ما بين مائة وخمسين وألفاً من المحاربين. كما جهزت بأسلحة ومعدات قتالية مثل أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ومخازن للقمح وصهاريج للماء الحلو. انظر: درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص ٨٣-٨٥. ولاشك أن هذا النوع كان بحاجة إلى دار صناعة متخصصة وصناع على درجة كبيرة من المهارة وهذا كله لم يكن يتوفر لأرنوط، ويدعم ما ذهبنا إليه من أن السفن المستخدمة كانت من نوع الجلاب المعروف فى البحر الأحمر.

(٣) أشارت المصادر العربية إلى قيام سفينتين منها بمحاصرة جزيرة فرعون. بينما لم تحدد لنا عدد السفن الباقية التى أبحرت. وطبقاً لرواية أرنول تكون ثلاث سفن.

(٤) يتضح غموض رواية أرنول بشأن بقية أحداث الحملة والتى اعتمدنا على مصادرنا العربية بشأنها.

الملحق الثاني

من وصايا السلطان قلاوون إلى ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

نقلا عن : شافع بن عليّ، الفضل المأثور، مخطوط بمكتبة البودليان بانجلترا.

ذكر نص بعض ما كتب له من التذاكر ورقة ٨٣ و

من ذلك ويخط الصاحب محيي الدين بن عبد الظاهر وهو

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه تذكرة مباركة نافعة بما تأمله المقام العالى السلطاني الملكي الصالحى العلاى أعزه الله نصره ملاحظاً ويكون راجعاً إليه ومستمدّاً عنه وتمسكاً به ومراقباً له ومستكثراً منه

وبالله تعالى التوفيق ورقة ٨٣ ظ

فصل ورقة ٨٦ و

ويؤكد على والى الشرقية وعلى والى العرب فى حفظ المحارص والمياه من جهة البرية. الكرك وغيره من تلك الجهة ويوصى مقدمى العائد^(١) وغيرهم على حفظ نوبتهم بحيث لا يفوتهم الطاءير إذا طار إلى تلك الجهات بالجملة الكافية ويحفظ جهة السويس^(٢) وما العنج^(٣) والطرق

(١) عملت هذه القبائل على طريق الحج عند أيلة. وكانت ضمن قبائل جرم وثعلبة وبنو مهدي وبنو عقبة. وهى التى عهد إليها بيبرس بالمسؤوليات التى أشرنا إليها من قبل. المقرئى، البيان والإعراب، ص ٧٢-١١٨.

(٢) أشار ياقوت الحموى إلى أن السويس صار ميناء أهل مصر فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. أما برج السويس فقد ذكر أنه يسع عشرين فارساً. جـ ١، ص ٤٨، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٣) لم أستدل من المصادر على موقع هذا الماء.

البديرية^(١) ومن وجد على غير الطريق الجادة رايحاً أو واصلاً أمسك ويطالع به ويوصى إلى الشرقية فى إنفاذ الحمام إلى برج السويس صحبة من جرت العادة بتجريدهم فيه ويزيد عدتهم فى هذا الوقت به ويؤكد عليهم فى الحفظ التام والاجترار. ويؤكد على وإلى الشرقية وعلى وإلى الحسيرية^(٢) فى إقامة الخفرا فى الأماكن المعروفة بهم خلف قلعة الجبل المحروسة وخلف الجبل إلى جهة السويس ورقة ٨٦ ظ

وإلى جهة أطفيح^(٣) ومن جهة شرونة^(٤) من الأعمال البهنسائية^(٥) بحيث أن هذه الجهات لا يسكنها أحد وتكون محفوظة محروسة محتزراً عليها محفوظة بالخفراء ويدرك مقدموها أمرها حتى أنه إن حصل خلل والعياذ بالله كان دركها لازماً لهم وكانت أرواحهم قبالة ذلك.

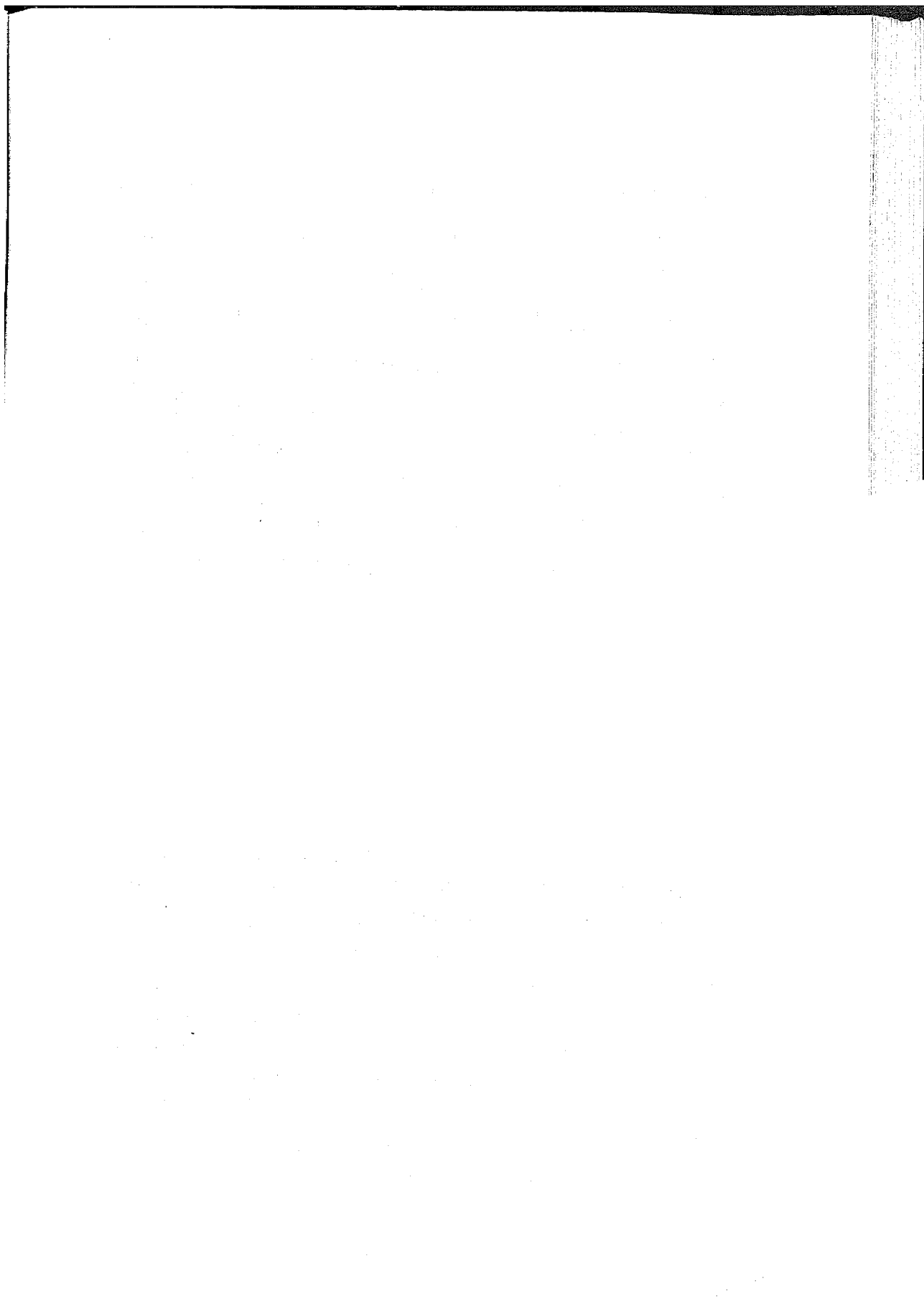
(١) عن الطريق البديرية راجع هامش (٢١)

(٢) غير واضحة فى النص وربما تدل على الجيزة التى كانت إحدى الكور الرئيسية فى العصر المملوكى . انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٠٠؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١. أما الشرقية فقد كانت متصلة ببر الشام والقلزم والحجاز كما أشار العمرى. وأسهمت أيضاً فى العصر الأيوبي فى الدفاع عن مصر كما حدث فى إغارة إفريخ الداروم على الفرما. انظر هامش (٣٤)

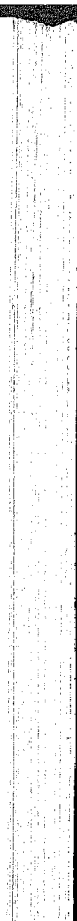
(٣) بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر، وهو شرقى النيل، انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج١، ص ٢١٨؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١.

(٤) قرية بالصعيد الأدنى شرقى النيل، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٣٤٠.

(٥) البهنسائية: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غرب النيل وتضاف إليها كورة كبيرة. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٥١٦-٥١٧؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١.



دراسة لوصايا المنصور قلاوون
من خلال مخطوط الفضل المأثور
لشافع بن علي الكاتب



حرص المنصور قلاوون على أن ينتقل الحكم لأبنائه من بعده وإقامة أسرة حاكمة وذلك على غير عادة المماليك. فعهد بالحكم من بعده لابنه علاء الدين على وتلقب بالملك الصالح، ثم بعد وفاته قلد ابنه الأشرف صلاح الدين خليل حكم البلاد. ولكي يضمن نجاحهما في الحكم ترك لهما مجموعة من التذاكر قام بإنشائها خيرة كتاب الإنشاء في ذلك العصر وهم : محبى الدين بن عبد الظاهر، وابنه فتح الدين كاتب السر في عهد قلاوون، وشافع بن على، وأورد شافع هذه المجموعة من الوصايا ضمن مخطوطته «الفضل المأثور سيرة السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبى الفتح قلاوون خلد الله سلطانه». ومن هنا وقع اختيارى على دراسة هذا الموضوع وجعلت عنوانه «دراسة لوصايا المنصور قلاوون من خلال مخطوط الفضل المأثور لشافع بن على»، تتبعها دراسة لشافع بن على ودوره من خلال المخطوط نفسه ومن المصادر الأخرى المعاصرة والمتأخرة زمنيًا. ثم أشرت إلى أهمية المخطوط وما ورد فيه من معلومات تاريخية وأهميتها. واعتمدت في هذه الدراسة على تذكرة شافع بن على بصفة رئيسية مع عقد مقارنة بينها وبين التذاكر الأخرى لمحبى الدين بن عبد الظاهر وفتح الدين بن محبى الدين وأحمد بن المكرم. كذلك تناولت ما ورد في تقليدى العهد لعلاء الدين على والأشرف صلاح الدين خليل من وصايا، وهما من إنشاء محبى الدين بن عبد الظاهر، وكذلك وصية موجزة أوردها بيبيرس الدوادر للمنصور قلاوون وهو على فراش الموت لابنه الأشرف خليل. وقد تضمنت هذه التذاكر مجموعة شاملة من الوصايا فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والإدارية والعسكرية. ثم اختتمت هذه الدراسة بالإشارة إلى الأثر الذى تركته على الأشرف خليل وهل التزم بها أو خالفها.

أما المراجع الحديثة التى تناولت دراسة عصر قلاوون فلم يتناول أى منها

دراسة هذه الوصايا باستثناء الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد في مؤلفه عن المنصور قلاوون حيث أشار إليها معتمداً على تقليدى عهد علاء الدين على والأشرف صلاح الدين خليل. ولاشك أن هذه المؤلفات قد أفادتني في الإطار العام لعصر قلاوون بالإضافة إلى شرح المصطلحات التي وردت ضمن هذه التذاكر.

والله أسأل التوفيق والسداد؛

تعتمد هذه الدراسة لمجموعة وصايا المنصور قلاوون بصفة أساسية على مصدر هام من مصادر عصر قلاوون لا يزال مخطوطاً وعنوانه «الفضل المأثور سيرة السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبى الفتح قلاوون خلد الله سلطانه» لمؤلفه شافع بن على الكاتب^(١) وقبل تناولنا لأهمية هذا المخطوط نتوقف للإشارة إلى المؤلف ودوره فى هذه الفترة الهامة. فعلى الرغم من ترجمة حياته التى أوردتها لنا بعض المصادر، فهى لم تعط لنا تفاصيل عن دوره خلال عهد الظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد بركة ثم فى عهد المنصور قلاوون بصفة خاصة حيث سجل لنا تاريخه الذى اعتمدنا عليه بصفة رئيسية فى هذه الدراسة.

ولد ناصر الدين شافع بن على بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنانى العسقلانى المصرى فى أواخر عام ٦٤٩هـ^(٢)، ويذكر عن نفسه أنه حضر ليقراً عقد الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس على ابنه المنصور قلاوون فى عام ٦٧٤هـ لضعف عينى خاله محبى الدين بن عبد الظاهر ظناً أن السلطان يخرج سحرًا. ولكنه خرج فى النهار فقراه محبى الدين^(٣). ثم يشير إلى حادثة أخرى عن دوره فى عام ٦٧٦هـ وذلك عندما توفى الملك الظاهر بيبرس وكان معه أثناء ذلك ويقول شافع أنه قام بكتابة خبر وفاة بيبرس وأورد نص هذا الكتاب الذى لم يرد فى أى من المصادر الأخرى مما يدل على انفراده بذلك^(٤).

أما فى عهد السلطان الملك السعيد بركة فيذكر شافع أنه كان يعتمد عليه «وعول علىّ فى سر المكاتبات وجهرها على صغر سنى وكبر قدر وسن من فى الديوان»^(٥).

أما علاقته بالمنصور قلاوون فترجع إلى قبل توليه حكم مصر. ففى أثناء قدوم الملك السعيد بركة من دمشق إلى قلعة الجبل فى عام ٦٧٨هـ أمره الأمير عز الدين أيدمر الدوادار بأن يكتب إلى الأمير جمال الدين أقش

الجحججى نائب مصياف بإنفاذ أربعين من الفداوية ليسيرهم للتخلص من قلاوون ومن معه من الأمراء الذين وقفوا ضد الملك السعيد، فرفض شافع «فعر عليه امتناعى وتغيرت أوضاعه»^(٦) وعندما علم بأنه سوف يخبر السلطان فرّ هارباً إلى قلاوون وسأله عمن كتب إلى نائب مصياف فأخبره أنه خط أيدمر فشكره هو والأمراء^(٧) ويؤكد صدق رواية شافع هذه ما أورده المقرئ من أن قلاوون أظهر للملك السعيد هذه الكتب التى طلب فيها جماعة الفداوية ورفض فك الحصار^(٨) ثم يذكر شافع رواية أخرى عن علاقته بقلاوون وذلك عندما أحضره قبل أن يتولى السلطة وأمره بكتابة أسماء الملوك لكى يختار منها واحداً فكتبها ومن بينها المنصور فعلم عليه^(٩). وهكذا أخذت صلة شافع بن على تتوثق شيئاً فشيئاً مع المنصور قلاوون فسطر هذا المؤلف عن حياة قلاوون ويذكر أن سبب تأليفه هو :

«وكننت قد باشرت خدمته كاتب إنشاء سفراً وحضراً... وكتبت عنه سرّاً وجهرّاً وشهدت وقائعه برّاً وبحراً واطلعت على ما لم يطلع عليه غيرى بمشافهته وعلمت من أحواله ما لم يعلم إلا كاتب سره بوساطة مشاركته وحررت نسخ الأيمان له وعليه وأوضحت من شكوكها مبهمها فأوجب على ذلك أن أسطر محاسن أيامه الزاهرة وأن أثبتها لتغدو على ألسنة الأقلام على الدوام سايرة...»^(١٠).

وبمجرد نجاح قلاوون فى الوصول إلى حكم دولة المماليك أخذ شافع بن على يسهم بدور هام فى هذه الفترة التى يعتبرها كثير من المؤرخين أهم فترات تاريخ المماليك. فقد شارك مع محبى الدين وابنه فتح الدين فى كتابة الرسائل إلى أنحاء الشرق والغرب بتولى قلاوون العرش^(١١). وشارك أيضاً فى تخليف الأمراء لقلاوون^(١٢). وكذلك شارك فى التحليف لعلاء الدين على ولقبه الملك الصالح وذلك عندما فوض إليه والده فى ١٧ جمادى الآخرة ٦٧٩هـ السلطنة وولاية العهد^(١٣).

وبالإضافة إلى شخصية شافع بن على وحبه لعمله كما يذكر «عجب من سرعته وأثنى على همته - يقصد فتح الدين كاتب سر قلاوون - ولا أقول همتي تضاهل عن علو رتبته»^(١٤) وأورد شافع هذه الرواية عندما انتهى السلطان قلاوون من أمره بكتابة رسالة فوجد شافع قد أنجزها بمجرد انتهاء كلامه. فبالإضافة إلى ذلك نجد أن صلة قرابته بآل عبد الظاهر كان لها أثر هام في وجوده في بلاط قلاوون. ويحدد لنا شافع هنا صراحة قرابته بمحيى الدين فيقول: «وكان كاتب الصداق صاحب محيى الدين بن عبد الظاهر خالى» «وفى أثناء ذلك نادى السلطان كبيرنا الخال محيى الدين»^(١٥).

وشارك شافع في كثير من الأحداث في عهد قلاوون وسجلها لنا عن قرب مما يجعل لروايته أهمية خاصة بين مصادر عصر قلاوون. فقد خرج معه إلى بلاد الشام في عام ٦٨٠ هـ وسجل العديد من المراسلات وقام بكتابتها بنفسه ومنها على سبيل المثال لا الحصر: رسالة قلاوون إلى سيف الدين بلبان الطباقى نائب طرابلس بعد إخفاقه فى الإغارة على حصن المرقب^(١٦)، ومنها مراسلات قلاوون إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، والملك المسعود خضر، وعرب بنى عقبة وغيرهم^(١٧). ومنشور إقطاع لسنقر الأشقر^(١٨). أما المعاهدات والهدن فقد سجل شافع منها عدداً كبيراً بالإضافة إلى نسخه لها ودوره فى مناقشة بنودها مع ممثلى الصليبيين فقد كتب هدنة قلاوون مع الاسبتارية فى المحرم ٦٨٠ هـ / ٢٦ أبريل ١٢٨١ م^(١٩). وكذلك الهدنة مع السلطات فى عكا فى ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ / ٣ يونيو ١٢٨٣ م^(٢٠)، وناقش هدنتى طرابلس عكا مع ممثلى الصليبيين وأورد لنا تفاصيل أغفلتها المصادر الأخرى.

وهكذا فقد سجل لنا شافع بن على الكثير من أحداث عصر قلاوون وجاءت روايته ومادته التاريخية من الطراز الأول. أما فيما يتعلق بما ذكره الكتبى أنه قد أصيب بسهم أقده بصره فى وقعة حمص فى عام ٦٨٠ هـ

فهذه الرواية غير صحيحة^(٢١). والدليل على ذلك مشاركته فى كثير من الأحداث بعد هذه الواقعة - من بينها أنه حضر حفر ترعة الطبرية فى عام ٦٨٢هـ^(٢٢) كما أنه كتب نسخة الرد على خطاب السلطان أحمد أغا خان التتار الذى أرسله إلى قلاوون «فعمدنا إلى نسخته ونسختى فكتبنا منهما ما وقع الاتفاق عليه^(٢٣). وعن هدنة عكا فى ٦٨٢هـ يقول «وكتبت الهدنة ييدى»^(٢٤) وهذه الروايات وغيرها تخالف ما يذكره الكتبى من أنه أصيب بالعمى فى ٦٨٠هـ وأنه اعتكف فى بيته بعد ذلك.

وثمة أمر آخر يدعونا للتوقف عنده وهو هل يعتبر الفضل المأثور اختصاراً لسيرة قلاوون فى تشريف الأيام والعصور كما يذكر بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى^(٢٥). وبعد عقد المقارنة بينهما يتضح اختلافهما فى تناول الأحداث وأصالة المادة التاريخية التى أوردها شافع. فهو ليس اختصاراً مثل مؤلفه حسن المناقب السرية. وإنما تسجيلاً لعهد قلاوون كما أشار فى بداية مؤلفه. ومن ناحية استخدام المصادر الأخرى له، فربما كان لنسخته الوحيدة أثر فى ذلك، بالإضافة إلى أن مؤلفات محبى الدين بن عبد الظاهر قد أغنت المؤرخين الآخرين عن الرجوع إلى شافع. وبالرغم من ذلك فقد استخدمه المقرئى فى خططه، وكذلك القلقشندى فى صبح الأعشى^(٢٦). ويشير أبو المحاسن أنه كان «إماماً أديباً فاضلاً ناظماً ناثراً جماعاً للكتب، خلف ثمانى عشرة خزانة كتب نفائس أدبية وغيرها»^(٢٧). ويبدو أن دوره قد تضاعف بعد وفاة فتح الدين فى رمضان ٦٩١هـ، ثم والده محبى الدين بن عبد الظاهر فى العام التالى. فقد استصغر الملك الأشرف القاضى علاء الدين بن فتح الدين الذى كان فى العشرين من عمره فرتب القاضى تاج الدين أبا العباس أحمد بن سعيد بن شمس الدين بن الأثير^(٢٨). وهكذا زال نفوذ آل عبد الظاهر ومعهم شافع بن على ليعكف على كتابة مؤلفاته ومن بينها حسن المناقب السرية والفضل المأثور حتى توفى فى عام ٧٣٠هـ^(٢٩).

والى جانب الفضل المأثور اعتمدت فى دراسة هذه الوصايا على مصادر أخرى معاصرة ومتأخرة أوردت مجموعة من الوصايا فى عهد قلاوون، فقد ورد فى تقليدى العهد لكل من الملك الصالح علاء الدين على، والملك الأشرف صلاح الدين خليل مجموعة من الوصايا أوردتها بيبرس الدوادار فى زبدة الفكرة، وفى القلقشندى^(٣٠). كذلك وردت وصية مختصرة لدى بيبرس الدوادار عن قلاوون وهو على فراش الموت وجهها مباشرة لابنه الأشرف خليل^(٣١). هذا بالإضافة إلى مصادر العصر المملوكى التى تناولت شرح المصطلحات الواردة فى مجموعة التذاكر وخاصة العمرى سواء فى التعريف بالمصطلح الشريف، أو فى مسالك الأبصار وذلك لمعاصرته لهذه الفترة الزمنية موضوع الدراسة، وإلى جانب ذلك كان للمراجع الحديثة أثرها الهام فى إثراء هذه الدراسة بكثير من الآراء القيمة.

فقد اهتم المؤرخون فى عصر سلاطين المماليك اهتماماً خاصاً بالوصايا، وأفردوا لها صفحات كثيرة فى مؤلفاتهم. ومن بينهم ابن فضل الله العمرى فى كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»^(٣٢) فيقول: «وهذا باب كبير، وللقلم فيه سبح طويل، ولو تكلفنا استيعاب الوصايا لألزمنا تكليف ما لا يطاق، وإنما نقدم منها المهم، ونأتى بالجوامع كالتبصرة للناظر، والتنبيه للغافل، ومن كان ذا خاطر تفجرت له ينابيعه، وجرت له شعابه»^(٣٣). وعلى الرغم من أن الكتابة بهذه الوصايا قد توقفت فى زمن القلقشندى المتوفى فى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م إلا أنه أشار إلى أهميتها، وإلى أهمية كاتبها حتى أنه أسماها «القلم الأكبر» لأنه بصدد أن يعلم كل واحد من أرباب الولايات ما يلزمه فى ولايته^(٣٤).

وعلى الرغم من أن العمرى أورد جملة من الوصايا التى تذكر فى العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم إلا أنه لم يشر إلى ما يرد فى التذاكر^(٣٥) وهى جمع تذكيرة التى عرفها بأنها ما يكتب بمهمات الديار

المصرية وأحوالها ومصالحها، وما يترتب فيها، وما يمشى على حكمه بمصر والقاهرة المحروستين، وسائر أعمال الديار المصرية، وما تبرز به المراسيم الشريفة فى أمورها وقضاياها، واستخراج أموالها وحمولها، وعمل سورها وحفائرها، وما يتجدد فى ذلك، وما يجرى هذا المجرى من سائر التعلقات، وتصدر بذلك التذكرة^(٣٦). واشترط القلقشندى أن تكون على درجة من الفصاحة والبلاغة على حد الرسائل، فيعلو بذلك شأنها^(٣٧).

وتشترك الوصايا جميعاً على الرغم من اختلاف موضوعاتها فى الوصية بتقوى الله عز وجل فهى الأس الذى يبنى عليه. والركن الذى يستند إليه^(٣٨). ولا يشترط أن تكون مفصلة لأنه يجب على الموصى إليه بأن «يفتح مغلق كل فتح منه بخير إقليد»^(٣٩) «وفى الولد أعز الله سلطانه من الألمعية ما يفرع أصولها ويوصل فروعها وينتزع من مطاوى مفهومها ما يحسن إلى المصلحة نزوعها وشامل ما تضمنته وينسج على منواله وينتج من مقدماته ما يناسب معنى تفصيله وإجماله»^(٤٠) «وتم أمور غير ما ذكرناه وفصول غير ما أردناه ينتفع عنها وتتولد منها وكم أنتج القليل من كثير واليسير من جم غفير، وإذا أمعن الولد النظر فيما نصصناه وتدبر ما أملناه نشأ له عن ذلك أحوال فأحوال وتفصيل وإجمال ونحن واثقون منه بأنه سيكون عند ما توسمناه»^(٤١).

ويرجع اهتمام سلاطين المماليك بهذه الوصايا إلى عهد الظاهر بيبرس الذى ضمن تقليد عهده لابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد مجموعة من الوصايا والتى على الرغم من أنها لم تكن مفصلة فقد أشار أنه سوف يستمر فى تزويده «بما سينشأ معه تواءماً»^(٤٢). ويذكر ابن واصل جزء من وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه الملك السعيد عندما شعر بالموت يوصيه بأن يقبض على زمام الأمور بقبضة من حديد وأن يضرب عنق كل من يشوش عليه ملكه إذا تيقن من ذلك^(٤٣).

ويعتبر السلطان المنصور سيف الدين قلاوون أكثر سلاطين المماليك اهتماماً بالوصايا، فقد تضمن تقليد العهد لأبيه علاء الدين على المقلب بالملك الصالح، والأشرف صلاح الدين خليل مجموعة كبيرة منها تدور حول إدارة أمور البلاد وسياستها الداخلية والخارجية وهما من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر^(٤٤). ولم يكتف قلاوون بما ورد في التقليدين السابقين، بل أورد لنا شافع بن علي مجموعة أخرى من الوصايا ضمن التذاكر التي كتبها كل من محيي الدين وابنه فتح الدين وشافع بن علي نفسه وذلك بتكليف من السلطان^(٤٥). ولا شك أن قلاوون كان يهدف من وراء ذلك إعداد ابنه الملك الصالح لتولي مهام البلاد أثناء غيابه أو بعد وفاته. فقد حرص على أن يؤسس بيتاً حاكماً يحمل اسمه من بعده على الرغم من أن ذلك كان يخالف المبدأ الذي سار عليه المماليك فيما يتعلق بمبدأ الخشداشية أي الزمالة، وبغضهم لمبدأ ورثة العرش^(٤٦).

وقد تضمنت التذاكر العديد من الإشارات لذلك. فيقول محيي الدين في تذكرته «ويتقدم إليه بأن يجعلها نصب عينيه وأن يراجعها في كل أمر يعزم عليه»^(٤٧) «ويكون راجعاً إليه ومستمداً عنه ومتمسكاً به ومراقباً له ومستكثرًا منه»^(٤٨) ويشير فتح الدين أنه عليه «أن يطالعها مطالعة إذا تلحظها يحفظها وإذا نقلها عقلها وإذا غاب عنه فهم اذكرته» «وقد جعلناه بين يديه نوراً يسعى وحكماً يرعى»^(٤٩) أما شافع بن علي فيؤكد عليه أن يجعلها «نصب عينيه فهي أوامر ولا يخرج عنها في دقيق ولا جليل مدة الغيبة»^(٥٠).

وعلى الرغم من حرص قلاوون على إعداد ابنه الأكبر علاء الدين على لتولي مهام الحكم من بعده وأن يخلفه على عرش البلاد، فإن القدر لم يبلغه ذلك فقد توفي في أثناء حياة والده بعد ثمان سنوات قضائها في الحكم معه وذلك في عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م. فتولى أخاه الأشرف خليل من بعده

وكتب له القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر تقليداً بذلك والذى تضمن العديد من الوصايا^(٥١). ويذكر ييبرس الدوادار أن السلطان عندما حضرته الوفاة استدعاه إلى خيمته وأوصاه بأن «يحفظ ممالكه ويحافظ عليهم ويبالغ فى الإحسان إليهم، ويستمر بهم على إقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام ويهتم بمصالحهم كل الاهتمام»^(٥٢) ولاشك أن ذلك يرجع إلى ما كان يعرفه قلاوون عن ابنه من حدة النفس وما فيه من «وهج واستهتار بالأمور واستخفاف بأكابر الأمراء وكان لا يفكر ما يفكره الملوك من العواقب»^(٥٣) ويؤكد شافع بن على أن قلاوون أكد عليه أثناء سلطنة أخيه علاء الدين أن «يلزم معه الأدب سرّاً وجهراً»^(٥٤) ولم يكن أمام قلاوون إلا توجيه هذه الوصايا لابنه الأشرف خليل حتى يتمكن من المحافظة على ما كان يصبو إليه وهو استمرار بيته فى الحكم. ونجح بالفعل فى ذلك. كما أن الظروف ساعدت الأشرف خليل فى ذلك حيث تطلب الأمر تولى سلطان جديد لإكمال مشروع طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة وهو الذى كان قد أعد له قلاوون ولكن عاجلته منيته قبل اتمامه^(٥٥).

اشتملت التذاكر على العديد من الوصايا التى أوصى بها قلاوون عند خروجه للغزاة، وركز شافع بن على فى تذكرته على المعتقلين بالقلعة من الأمراء ذوى الفتن، والمسجونين الآخرين. فأكد على ولى عهده مباشرته بالليل والنهار ومراقبة المتمردين عليهم لمنع أية مؤامرات. ولكنه فى نفس الوقت أمره بتوفير ما يرتب لهم من طعام وشراب وتفقد مرضاهم «المتحقق مرضه» وذلك عن طريق أطباء الخدمة. وأمر بتوفير ما يحتاجون إليه من كسوة «بل تفاض عليهم فى أوانها»^(٥٦) أما محبى الدين فقد أكد فى تذكرته فيما يتعلق بهذا الأمر بحفظ المعتقلين والأسارى مؤكداً عليه ضبط أمرهم والاحتراز على الحبوس وعلى الدروب والأبواب^(٥٧).

أما الفصل التالى فقد أكد فيه شافع على ضرورة حماية القلعة وأبوابها

وضرورة ملازمة المكلفين بهذا الأمر لوظائفهم وأن «يكونوا على بصيرة من أمرهم واحتراز من ذوى المكر» (٥٨) كما أكد على عدم فتح باب القلعة إلى جهة القرافة «لا يفتح مدة غيبتنا ولا يزال مغلقاً في وجه ذوى القرب إلى حين أوبتنا» (٥٩) .

أما محبى الدين فقد ركز في تذكرته فيما يتعلق بالقلعة على ملازمة المجريدين بالقلعة لنوبتهم وعدم إخلال أحد منهم بواجباته (٦٠) . ومراعاة الأمراء والمقدمين والبحرية لأبوابها كما جرت العادة بذلك (٦١) . كذلك يعتمد تجريد جماعة من الجند حولها ومن جهة الجبل ومن جهة القرافة وعند دار العدل ويحضرون في كل عشية ويسيتون بخيولهم وغلمانهم طائفين وحافظين لجهة الثغرة (٦٢) . وشدد فتح الدين في تذكرته على حماية القلعة في عدة فصول منها. فقد أمر قلاوون ابنه بضرورة مراعاة كل فرد لنوبته ومعاقبة كل من يخل بذلك سواء بالقول أو بالفعل . فإذا انقضى السماط ووقت الخدمة يخرج الجميع ولا يتأخر أحد ممن ليست له عادة بملازمة وظائف الخدمة، وكذلك لا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج في غير وقته المعتاد (٦٣) . ولا يقدم أحده قصة من يده ولا يتحدث أحد فيما لا يعنيه أو يقف في مكان غير المحدد له . «ولتكن عينه لذلك مراقبة وفكره في هذه المهمات صابية» (٦٤) .

أما حراسة القلعة من الداخل فقد أشار فتح الدين إلى ملازمة صبيان قاعة الأعمدة للباب الجوانى أو باب الرحبة بالنوبة على العادة في الليل والنهار . أما باب القلعة البرانى فتلازمه المقدمون ومضافوهم من المماليك السلطانية (٦٥) كما أكد على إغلاق أبواب القلعة وقت العادة وأن يقوم والى القلعة بإحضار المفاتيح إلى والى القلعة والذي يقوم بدوره بتسليم المفاتيح معاً لمن كانت تسلم له في العادة باب أمر بعدم فتح أبواب السر أبداً إلا لمهم كبير يقتضى ذلك» (٦٦) .

وفى ثالث فصول تذكرة شافع تناول مجموعة من الوصايا لمعالجة بعض الأمراض الاجتماعية التى تفشت فى ذلك العصر ووسائل علاجها والعقوبات التى تطبق على مخالفيها. فقد أمر قلاوون بمنع من يمشى فى الليل بغير حاجة وأكد على إرسال من يطوف بالمدينتين وما هو مضاف إليهما من ظواهر لمراقبة ذلك خاصة فى الليالى غير القمرية^(٦٧). أما باقى الولايات فقد أمر مشايخها بإخراج الخفراء من الأوقات المختلفة لحراسة الطرق وتزويدهم ببيوت من الشعر للمبيت بها أثناء الليل^(٦٨). كذلك حذره من ذوى الجرائم والمتجرمة وذوى العدوان وضرورة منعهم، وأمر بإغلاق قاعات الفتوة الموجودة بالحسينية والتى كان يأوى إليها من يظن فى نفسه القوة^(٦٩). وأمره أيضاً بمنع جلوس المنجمين فى الطرقات وأخذ عريشهم وسماطيهم وردعهم^(٧٠). ويختتم شافع هذا الفصل بأن ينادى الولد فى البلدين وظواهرهما بأن من سوف يسلك شيئاً من هذه المسالك سوف يعاقب بالصلب والضرب وما أشبه ذلك^(٧١). كما تناولت الوصايا منع الخمر وتداولها وتعفية رسوم المنكرات وإقامة الحدود الشرعية على كل من يوجد سكراناً أو فى حالة منكرة^(٧٢) أما ذوى الدعارة فقد أمر قلاوون بمنعهم من الاجتماع فى أماكن العبث والفساد وتأديب بنات الخطأ^(٧٣) كذلك أمر قلاوون بتعفية رسوم المنكرات^(٧٤).

أما فى الفصل الخاص بالقضاء فقد أمر قلاوون قضاته بتحرى الدقة فى أحكامهم وقبول النقض والإبرام وعدم اتخاذ حجاب أو بوابين يمنعون أحداً من الدخول عليهم. وعليهم مباشرة عملهم طرفى كل نهار حتى أيام الجمع للفصل فى القضايا الشرعية بالعزم الصادق. كما يجب عليهم ملازمة دار العدل وعدم التأخر عنها إلا لعذر شرعى. كما طالبهم بترك ما بينهم من التنافس وأن يكونوا يداً واحدة كما يقتضيه حسن التجالس^(٧٥). أما تذكرة فتح الدين فيؤكد عليه ضرورة مراعاة العدالة لأن به «دامت

الدول» «وأمنت البلاد والعباد» (٧٦) وأكد عليه أن يراعى الجميع ولا يحكم للشاكي على المشكى إلا بحضور المتشاكين. وأن يعرض القضايا الشرعية على القضاة المختصين بذلك. ومن قتل يقتل ومن سرق يقطع وكل ذلك بالحق والشرع الشريفين. وأكد فتح الدين فى تذكرته على أمر هام آخر وهو تطبيق الأحكام. «فما جعل السلطان إلا لينصر الضعيف على ظالمه ويقوى يد المسكين الذى لا قدرة له على تخاصمه» (٧٧).

وينتقل شافع بعد ذلك إلى فصل تضمن العديد من الوصايا بشأن النواحي الاقتصادية. فقد طلب قلاوون من ولى عهده إرسال كتبه إلى ولاته بالتشديد عليهم بالعدل والإحسان (٧٨) واعتماد ما يقتضى للبلاد بال عمران وللرعية بحسن الاستبيان. والرفق بالفلاحين وتفقد أحوالهم فى كل حين، وأن لا يمكن منهم عسوف ظالم «ليتضافروا على عمارة البلاد إذا هم لهم كالمعالم بل المعالم» (٧٩). ثم يؤكد على ضرورة تفقده للجسور والترع (٨٠) والعدل فى رى البلاد بحيث تحسم مادة النزاع (٨١).

أما محبى الدين فقد ركز على ضرورة الاهتمام بالجسور والترع من حفظها وضبطها ومبيت الرجال عليها وتوفير ما تحتاج إليه من الآلات لضبط أى خلل يحدث. وخص بالذكر جسور الجيزية، فأمر بترتيب الحمام الرسايلى عند مباشرتها لتدارك أى خلل يحدث فيها، وأن يرسل أمير كبير لتدارك هذا الأمر (٨٢). كذلك ربط بين منسوب المياه فى النيل وبين فتح الجسور حتى لا يؤثر ذلك على أراضى أخرى فتبور. «ولا يكسر جسر إلا بأمر الوالى فى تلك الجهة واتفاق منه بحضور أكابر البلاد ومشايخها وخولتها والإشهاد عليها» (٨٣).

كما طالبه بالاجتهاد فى رى البلاد محذراً أن تبور منهم قسبة أو تهمل قوانين الرى، أو محاباة أحد فى ذلك «وتكون المساواة شاملة والمعونة تامة» (٨٤) كذلك أكد عليه بضرورة إخراج التقاوى المرصدة لتخضير البلاد،

وتحميل الولاية مسئولية بوار أى قطعة أرض منها، بل جعل «أرواحهم وأموالهم» قبالة ذلك^(٨٥). وأكد على وإلى البحيرة ملازمة البحر المنصوري المعروف بالطيرة والمطالعة بما يتجدد فيه من منفعة وبركة ونمو^(٨٦).

وعلى الرغم من أن التذاكر لم تفرد فصلاً خاصاً بالتجارة، إلا أنها أشارت إليها ضمن الفصل الخاص بالاهتمام بالشغور خاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط^(٨٧).

فقد أوصى قلاوون بضرورة إطابة قلوب التجار وحسن معاملتهم بالعدل والإحسان وذلك لكى «يتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار»^(٨٨) وأكد شافع على ذلك أيضاً «بما يشيع خبره ويحمد أثره ويتلى على رؤوس الأشهاد سوره»^(٨٩) ومن ناحية أخرى حرص قلاوون على تأمين التجارة المارة عبر بلاده فى الليل والنهار وتأسيس الطرقات وإجابة المستصرخ وإمساك المفسد^(٩٠). وشدد على الاهتمام بالطرق البدرية أو الفوقانية وهى المؤدية إلى بلاد الشام^(٩١) كما حرص على توفير الأمن وإبعاد الخطر الذى يهدد التجارة من جهة العربان أو الأكراد أو الشهرزورية محذراً من اجتماعهم فى مكان واحد أو حملهم السلاح^(٩٢).

وتتضمن التذاكر الكتابة إلى الأمير «شرف الدين عيسى بن مهنا» أمير آل فضل بحفظ «المعابر من كل عابر وصياتتها حتى من الطير الطائر»^(٩٣) كما أكد على الولاية بأن السفارة لا يسافرون إلا بالنهار وأنهم لا يغزرون بنفوسهم ولا بأحوالهم^(٩٤). أما فيما يتعلق باستخدام السلطان أو ما يسمى بالخاص الشريف فقد شددت التذاكر على التحذير من بيعه لأى من الأمراء. كما أكد عليه بدفع ثمن ما يتم شراؤه من الممالك أو غيرهم وعدم تأخير دفع حقوق هؤلاء التجار، وذلك لكى يكون ذلك أدعى إلى رجوعهم مرة أخرى^(٩٥).

أما الفصل الخاص بالبريد فقد أوصى قلاوون ابنه بسرعة المطالعة على ما يصل إليه وتفهم معانيه والوقوف عند أوامره ونواهيه والمجاوبة عنه في وقته وساعته. كما طالبه ألا يهمل فصل ولا أصل ولا فرع^(٩٦). وفي فصل آخر يؤكد عليه أن يهتم بخيل البريد «ولا تخل المراكز منها ولا طرفة عين، وأن تكون من الخيل السريعة»^(٩٧).

وأوصى محبى الدين في تذكرته باستخدام الحمام الرسائلى وانتقاء الطيور الجيدة مؤكداً على أن يصل الخبر من «غزة لا بل من الشام» فى يوم^(٩٨) كما أوصى والى الشرقية على إنفاذ الحمام إلى برج السويس صحبة من جرت العادة بتجريدهم فيه ويزيد عدتهم فى هذا الوقت ويؤكد عليهم فى الحفظ التام والاحتراز^(٩٩).

وفى فصل آخر أوصى قلاوون ابنه بأن يكون مستعداً لإرسال العسكر المقيم عنده ومن تأخر عن الخروج بسبب مرض وذلك بحيث إذا «دعت الحاجة والعياذ بالله إلى طلبهم أسرعوا فى الحضور وبادروا إلى ما دعوا إليه من غير فتور»^(١٠٠) وأكد أيضاً على ضرورة مراعاة حقوق الأمراء والجند أثناء غيابهم فى الحرب، وذلك حتى لا يؤثر عليهم ذلك ويشغلهم عن الجهاد «وتحسم هذه المادة ويسد أبواب المماطلة عنهم»^(١٠١) كذلك أوصاه بمضاعفة حسن السياسة مع الأمراء والجند والإقبال عليهم صغيرهم وكبيرهم ومعاملتهم بما يستميل به قلوبهم ويوفر الملاحظة من نصيبهم^(١٠٢).

وفى فصل خاص أفرد شافع مجموعة من الوصايا بشأن تحذير قلاوون لابنه بأنه لا يكثّر من الركوب والاحتراز من يقرب منه ولا يسمح لأحد بذلك إلا إذا كان واثقاً منه ويجب أن يكون موكبه محفوظاً بالسكينة والوقار، ولا يزيد فى ركوبه على المعتاد ولا يسلك أماكن غير مألوقة. وعليه أن

يتحقق مما يرفع إليه ويكتشف ظلامته بنفسه ولا يعتمد على ذوى التسويف (١٠٣).

وشدد قلاوون فى تذاكره على الاهتمام بالثغور، خاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط مؤكداً على ضرورة تأمينها خاصة من خطر الفرنج وكرسالتهم وكذلك من خطر الروم والعرب (١٠٤). فأكد عليه ضرورة التيقظ لأى خطر يهددها، ومن السفن الكامنة وكذلك من الأسرى الفرنج المأسورين بهما (١٠٥). وأكد أيضاً على مراقبة فنادق الفرنج وحفظ مفاتيحها فى الليل وفى وقت صلاة الجمعة والأمكنة المجاورة لها (١٠٦). كذلك طالبه بحفظ وضبط الموانئ الأخرى مثل رشيد وقطيا وتنيس ونستروه ومراقبة كل من يدخلها أو يخرج منها (١٠٧). أما وظيفة ثغرى الإسكندرية ودمياط وهى «وعلى هذين الثغرين وظيفة موظفة ولوازم كل منهما بها مكلفة من أموال وأقمشة برسم الخزانة الشريفة» فلا يهمل الولد أمرها فى أدائها وبروز مراسمه بطلبها فى أحيانها من غير إزعاج الرعية ولا مصادرة بطلب ما لا يجب (١٠٨).

ويربط شافع فى فصل آخر من تذكرته بين وظيفة ثغرى الإسكندرية ودمياط فى توفير الأقمشة للسلطان وبين ضرورة الاهتمام بدار الطراز وضرورة حمل ما تحتاج إليه من أموال وخلافه لكى تقوم بدورها «فليتقدم الولد عز الله سلطانه فى كل وقت بتفقد أحوالها الموصلة بالأموال التى هى أحوى لها والرفق بها» «وتواصل من حللها بما هو المعلم وتسطر بأقلام أخلتها من القابنا الشريفة كل محكم» (١٠٩).

وفى فصل خاص عن خزائن السلاح يوصى قلاوون بضرورة ملاحظة مجدداتها وتزويدها بالسلاح بحيث «تغدو أجزاءها شاكية السلاح» ويجب أن يوفر ما تحتاج إليه من أموال وعدم البخل فى ذلك وتزويدها به بصفة دائمة (١١٠) ويذكره فى آخر فصول التذكرة بضرورة الاهتمام بدار الضرب

مذكراً إياه بأن الملك هو «السكة والخطبة» وأمره ألا يعطل «قلم درهمها ودينارها ولا يغب فيها باسمنا الشريف» «وأن يتجنب إتيان الزايف» (١١١) ويختتم شافع تذكرته بما هو نصه:

«وإذا أمعن الولد النظر فيما نصفاه وتدبر ما أملناه نشأ له عن ذلك أحوال فأحوال وتفصيل وإجمال ونحن واثقون منه بأنه سيكون عند ما توسمناه وأنه غنى عن ما رسمناه حين رسمنا وإنما الله سبحانه وتعالى يقول وهو أصدق القائلين «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (١١٢)

وبعد دراستنا لهذه المجموعة من الوصايا التي تناولت شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والإدارية في فترة هامة من فترات التاريخ المملوكي يبرز تساؤل هام نختم به هذه الدراسة وهو هل تركت أثراً على الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون؟.

على الرغم من قصر عهد الأشرف خليل (ذو القعدة ٦٨٩هـ - المحرم ٦٩٣هـ) إلا أن المصادر أشارت إلى عمله بهذه الوصايا في جوانب وإهماله لها في جوانب أخرى. فقد تركت وصية والده له بالاحتراز عند ركوبه أثرها عليه فنجح في التخلص من أول مؤامرة دبرها له حسام الدين طرنتاي أثناء ركوبه (١١٣). أما علاقته مع الرعية فقد استهل الأشرف عهده بإبطال عدة حوادث وهي المكوس التي لا تستند على قانون شرعى وسامح فيما تأخر من البواقي وأكثر من تفرقة الأموال على الفقراء، كما أبطل من دمشق مكساً كان يؤخذ في باب الجابية وكتب بخطه «ولنكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ونستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة» (١١٤).

وقد استطاع الأشرف أن يحكم قبضته على زمام الأمور بسرعة عقب وفاة والده فلم «يختلف فيه اثنان ولا تحركت شفة ولا لسان» (١١٥). وعلى الرغم من وصية والده له بأن يحسن علاقته مع الأمراء فقد ابتدأ عهده

بالقبض على حسام الدين طرنتاي وقتله وزين الدين كتبغا وأفرج عنه (١١٦). كذلك قام بالقبض على شمس الدين سنقر الأشقر وجرمك الناصري وأعدمهما (١١٧)، وكان ذلك من بين الأمور التي عدها عليه بدر الدين بيدرا استهتاره بالأمراء مماليك أبيه، ونفور الأمراء منه لقتله عدداً منهم (١١٨). وعلى الرغم من نصيحة والده بأن يستمع إلى الشكاوى بنفسه ولا يعتمد على ذوى التسويف، إلا أنه كان يستمع إلى وزيره شمس الدين بن السلعوس مما أدى إلى زوال ملكه (١١٩).

أما عن علاقته مع الصليبيين فى بلاد الشام فقد سار على نهج والده الذى رفض ما قدمه له الصليبيون من أعذار بشأن نقضهم للهدنة فى عكا (١٢٠). ولما استقر له الملك «وخلا وجهه ممن كان يقصد مناوأته» (١٢١) صرف اهتمامه نحو غزو عكا وطرد بقايا الصليبيين من الأراضى المقدسة. ويؤكد بيبرس الدوادار ذلك - وكان أحد المشاركين فى هذه الحروب - بقوله - وفيها عزم السلطان على المسير إلى عكا وإنزالها والجد فى قتالها «متحملاً لما عزم والده عليه من أخذها واستئصالها» (١٢٢) أما شافع بن على فيشير إلى ذلك ضمن قصيدة له مهنئاً بفتح عكا:

وعنى بوصية والده فيها فنفعها

ومازال بيره أعنى (١٢٣)

وعلى الرغم من هذه الجملة من الوصايا فإن الأشرف تعاظم فى أواخر أيامه وصار لا يكتب اسمه وإنما يكتب «خ» إشارة إلى أول حروف اسمه، ومنع أن يكتب لأحد «الزعيمى» وقال «من زعيم الجيوش غيرى» (١٢٤) وكان لإهماله نصيحة والده بالاحتراز عند الركوب وعدم الخروج على غير العادة ولا يسلك أماكن غير مألوقة سبباً فى مقتله - بالإضافة إلى الأسباب السابقة التى أشرنا إليها. فانتهاز بيدرا ذلك بعد أن وصلت الأنباء عن خروجه

بمفرده ولم يكن معه سوى شهاب الدين أحمد بن الأشل فانتهاز جماعة
الأمراء التي اتفقت على قتله هذه الفرصة وباغتوه فتمكنوا منه وقتل في ١٢
محرم ٦٩٣ هـ (١٢٥).

الهوامش

- (١) توجد نسخة وحيدة للمخطوط بمكتبة البودليان بأكسفورد رقم ٤٢٤ (ميكرو فيلم) وكذلك انظر: بروكلمان (كارل)، تاريخ الأدب العربى، نقله إلى العربية د. السيد يعقوب بكر، مراجعة د. رمضان عبد التواب، ج٦، القاهرة، ج٦، القاهرة، ط٢، بدون تاريخ، ص ٢٠.
- (٢) انظر مقدمة شافع بن على «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر د. عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الرياض بدون تاريخ، ص ١٤.
- (٣) شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٥٩، وأشار ابن شداد إلى أن محبى الدين هو الذى قرأه، وكذلك النويرى، وأنعم بيبرس عليه بمائة دينار، انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعثناء أحمد حطيط، فيسبادن ١٩٨٣، ص ١٣٥، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٣٠، تحقيق د. محمد عبد الهادى شعيرة، ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٩٠، ص ٢٢٣.
- (٤) ذكر النويرى أن الكتاب بخط بليك، أما ابن شداد فذكر أنها بيد بليك. ولكنهما لم يذكرنا نص الكتاب. انظر: شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٦٧-١٧٠ ك ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٢٤، النويرى، نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٣٦٩.
- (٥) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٢٤ ظ - وكان شافع آنذاك فى حوالى الثامنة والعشرين من عمره لأن الملك السعيد حكم فى الفترة من (٦٧٦-٦٧٨ هـ).
- (٦) شافع بن على الفضل المأثور، ورقة ٢٤ ظ، ٢٥ و. وعن هذه الأحداث انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٥١-١٥٣. ويذكر العمرى أن هؤلاء الفداوية كانوا يتبعون من يملك مصر «ولصاحب مصر بتشييع هؤلاء مزية، يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل من هؤلاء إليه من يقتله ولا يبالى أن يقتل معه». مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دروثيرا كرافولسكى، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٢٤ ظ.

- (٨) المقرئى، السلوك، ج١، ص ٦٥٤.
- (٩) ذكر شافع أن ذلك الأمر ظل سرًا وأنه أخفاه عمن معه حتى تم خلع العادل بدر الدين سلامش وفى ذلك تأكيد لموقف قلاوون من أنه كان يسعى للحصول على السلطنة على الرغم من تظاهره برفضها. وعن آراء المصادر فى ذلك انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٥٤، والمقرئى، السلوك، ج١، ص ٦٥٨، وعن اختياره لهذا اللقب رواية أخرى - انظر: ابن الوردى (زين الدين عمر) تنمة المختصر فى أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدرائى، المجلد الثانى، بيروت ١٩٧٠، ص ٣٢٩.
- (١٠) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٣و- ظ.
- (١١) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٢٧ظ.
- (١٢) نفسه، ورقة ٢٢ ظ.
- (١٣) نفسه، ورقة ١١٩ ظ، وانظر أيضًا: القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد)، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠، ج١٠، ص ١٧٣ وما بعدها.
- (١٤) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٤٠ظ، وعن عمل فتح الدين أثناء عهد بيبرس، انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣٩.
- (١٥) فى حسن المناقب السرية لم يحدد شافع درجة قرابته بابن عبد الظاهر واكتفى بالإشارة إلى أنه قريبه - أما هنا فيحددها كما ذكر فى العبارات أعلاه. انظر: حسن المناقب، ص ١٣٢، الفضل المأثور، ورقة ٢٧ظ.
- (١٦) شافع بن على، الفضل المأثور، ١٠٤و، وكذلك بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٧١-١٧٢؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٣١ و ص ٦٩-٧٠.
- (١٧) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٤٠و-ظ، وكذلك بيبرس المنصورى (الدوادار)، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، نشر: د. عبد الحميد صالح، بيروت ١٩٨٧، ص ٩٨؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٦٩١-٦٩٢.
- (١٨) شافع بن على، الفضل المأثور، ٦٤و- ٦٥ظ. وتجدد الإشارة إلى أن نص المنشور الذى كتبه شافع لم يشر فيه إلى لقب الملك وإنما لقب «الأمير» راجع: محبى

الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٨٧، نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٢٤.

(١٩) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٨٢؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٩٣.

(٢٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ١٢٨ ظ، حسن المناقب السرية، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢١) على الرغم من أن حسن المناقب السرية يتناول اختصاراً لتاريخ الظاهر بيبرس، فإن شافع بن على أورد بضع صفحات في أثناء حديثه عن طرابلس وعكا وذلك في عهد قلاوون وهي بحاجة للمناقشة مع ما أورده في الفضل المأثور، انظر: حسن المناقب، ص ١٣٢-١٣٦، ١٣٧-١٤٠.

(٢٢) فوات الوفيات، ٢ ج، القاهرة، ١٩٧١، ج ١، ص ٢٣٤، أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف (بن تغرى بردى)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ ج، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩-١٩٧٢، ج ٩، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢٣) يذكر شافع أنه كان كاتباً للدرج أثناء ذلك. وعن حفر هذه التربة انظر: محمد حمزة إسماعيل الحداد، السلطان المنصور قلاوون، القاهرة ١٩٩٣، ص ٦٥-٦٧.

(٢٤) ذكرت بعض المصادر أن الخطاب كان من إنشاء محبى الدين والأصوب هو فتح الدين ابنه، وكاتب السر آنذاك، أما القلقشندى فقد أورد نص الرسالة ونسبها إلى شافع بن على على الرغم من أنه لم ينسبها إلى نفسه. وبعد عقدى لمقارنة بين نسخة الخطاب لدى شافع ونسخة القلقشندى وجدت اختلافاً بينهما فى بعض العبارات ولا ندرى هل اعتمد القلقشندى على نسخة أخرى للفضل المأثور فقدت، أم أنه تصرف فى العبارات. للمزيد انظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٠ ح (٥)، مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بولشيه، ٢ ج، باريس ١٩١١-١٩١٢، ج ٢، ص ٣٤٦. وفى حاشية رقم ١٢ إشارة إلى فتح الدين وهو الأصوب.

- (٢٥) ج٦، ص ٢٠، ج(١).
- (٢٦) الخطط، ج٢، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ صبح الأعشى، ج٧، ص ٢٣٧.
- (٢٧) النجوم، ج٩، ص ٢٨٣.
- (٢٨) بيبرس الدوادار، زبدة الفكر، ص ٢٦٩-٢٧٠، ٢٧٣. وعن تولى فتح الدين كاتباً للسر وتطور هذه الوظيفة انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج٧، ص ٣٣٢-٣٤٣.
- (٢٩) هناك رأى آخر عن وفاته عام ٧٣٣هـ. انظر مقدمة حسن المناقب السرية، ص ١٤.
- (٣٠) زبدة الفكرة، ص ١٦٧-١٧٠، صبح الأعشى، ج١٠، ص ١٦٦-١٦٧.
- (٣١) زبدة الفكرة، ص ٢٥٣.
- (٣٢) ابن فضل الله العمرى شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠-٧٤٩هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، عنى بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨، ص ١٢٩-١٨٥.
- (٣٣) نفسه، ص ١٢٩.
- (٣٤) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج١١، ص ٩١ وما بعدها.
- (٣٥) التعريف، ص ١٢٩ وما بعدها، وأوضح لنا ما يصدر من الوصايا فى كل واحدة منها. فالعهود لا تكون إلا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك. والتقاليد لا تكون إلا لكفلاء المملكة وقد يكون لأكابر قضاة القضاة. أما التفاويض فهى لعامة القضاة، والتواقيع فهى لجمهور من عانى الكتابة فى زمان العمرى ومنها لعامة أرباب الوظائف والمراسيم ما يكتب فى صغائر الأمور. وللعمرى فى ذلك رأى أورده ضمن هذا الفصل الخاص بالوصايا.
- (٣٦) القلقشندى، صبح، ج١٣، ص ٧٩-٩١.
- (٣٧) نفسه، ج١٣، ص ١٠٣، ويقارن بين تذكرتين أحدهما للقاضى الفاضل والأخرى لمحبى الدين بن عبد الظاهر، حيث «أهمل فى الثانية مراعاة الفصاحة والبلاغة جملة، بل لم تراعى فى الأخيرة منهما قوانين النحر».

(٣٨) راجع: وصايا العمرى فى التعريف، وكذلك القلقشندى، صبح، ج ١٣، ص ٩١ وما بعدها.

(٣٩) القلقشندى، صبح، ج ١٠، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٨ ظ، ٩٠ و.

(٤١) نفسه، ورقة ٩٩ ظ.

(٤٢) كتب هذا التقليد محبى الدين بن عبد الظاهر وذلك فى شوال ٦٦٢ هـ، وأورده نقلا عنه كل من شافع بن على ويبرس الدوادار والقلقشندى، انظر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٢٠٤-٢٠٩.

(٤٣) «ولما أحس «الملك الظاهر» بالموت رحمه الله كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد وهو بمصر، ومن جملتها، إنك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك، وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله، ولا تستشر (فى الأصل تستشير) أحداً فى هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك» المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول والثانى تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ج ١، ص ٦٤١، وتجدر الإشارة إلى أن محبى الدين بن عبد الظاهر وشافع بن على وابن شداد لم يشيروا إلى هذه الوصية ضمن مؤلفاتهم عن الظاهر بيبرس.

(٤٤) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة محمد عطا، شركة المدينة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٦٧-١٧٠، القلقشندى، صبح، ج ١٠، ص ١٦٦-١٧٣.

(٤٥) «فإذا لم يبق إلا الركوب من قلعتة تقدم أمره بكتابة تذكرة بتفصيل ما أجمله من وصيته ويشملها بخطه الشريف» شافع. الفضل المأثور، ورقة ٨٣.

(٤٦) محمد الحداد، فلاوون، ص ٣٨-٣٩.

(٤٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٣ و.

(٤٨) نفسه، ورقة ٨٣ ظ.

(٤٩) نفسه، ورقة ٨٩.

(٥٠) نفسه، ورقة ٩٣.

(٥١) لم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلى الرواية الخاصة بتوقف قلاوون عن التوقيع على تقليد العهد خاصة محيي الدين بن عبد الظاهر وشافع بن على وببيرس الدوادار ولم يشر إليها إلا النويرى الكندى المتوفى عام ٧٣٢هـ. ويذكر النويرى نفسه أن السلطان فوض ولاية العهد لولده الأشرف صلاح الدين وكتب بذلك إلى الشام وسائر البلاد وخطب له بولاية العهد بعد أبيه على عادة أخيه الملك الصالح. وهذه جميعاً لا تصدر إلا بعد توقيع السلطان عليها. انظر: النويرى الكندى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج١، ٣١، تحقيق د. السيد الباز العرينى ومراجعة د. عبد العزيز الأهوانى، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٦٠، ١٧٨.

(٥٢) زبدة الفكرة، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٥٣) على إبراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥٠؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧١.

(٥٤) الفضل المائور، ورقة ٨٢ ظ.

(٥٥) يذكر بيبيرس الدوادار أن الأشرف تمكن من إحكام قبضته على الأمور، خاصة بعد نجاحه فى التغلب على مؤامرة حسام الدين طرنطاي لقتله، بحيث «لم يختلف فيه اثنان ولا تحركت شفة ولا لسان»، انظر: زبدة الفكرة، ص ٢٥٣.

(٥٦) اهتم المنصور قلاوون اهتماماً خاصاً بالسجون. فقد عمّر الحب الذى فى القلعة فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٣م لكى يجلس فيه الأمراء - وكان «مهولاً» مظلماً كثير الوطاويط كربه الرائحة يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه». ومن أماكن الحبوس أيضاً خزانة البنود وخزانة شمائل. أما أحمد بن المكرم فقد زاد فى تذكروته فى فصل الحبوس بضرورة خلق الأسارى من الفرغ لحاهم وتعهده ذلك دائماً. وعدم استخدام أى شخص غريب أو فيه ريبة ومضاعفة الحراسة على هذه الحبوس. للمزيد انظر:

المقريزى، السلوك، ج١، ص ١٣٣، ح (١)، العينى (بدر الدين محمود)، عقد

الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٨، ج٢، ص ١١٠، ح(٢)؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٩٧؛ محمد الخداد، قلاوون، ص ٨٠، ح(١).

(٥٧) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٤و- ظ.

(٥٨) نفسه، ورقة ٩٤و- ظ.

(٥٩) يذكر القلقشندي عن باب القرافة أنه «وهو أقل أبوابها سالكا وأعزها استطرًا» ويشير كرزويل أنه كان نادر الاستخدام ومن الصعب جدًا الوصول إليه. انظر: صبح، ج٣، ص ٣٧٤؛ كرزويل وصف قلعة الجبل، ص ٩٨.

(٦٠) لها معان عديدة ولكنها تدل هنا على فرق الجند المكلفة بحراسة القلعة. وتدل أيضًا على الفرق المخصصة لحراسة شخص السلطان وهي خمس نوبات يجرى تغييرها في الظهر والعصر والعشاء ومنتصف الليل وعند الصباح. انظر: العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوريتا كرافولسكى، ص ١٠٣-١٠٤؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٤٦١ ح(١)، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم بمصر، ج٢، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٥٣-٥٤.

(٦١) للمزيد عن ذلك راجع: السيد الباز العرينى، المماليك، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٤ وما بعدها.

(٦٢) أطلق على هؤلاء تسمية «المجردون» وهم الحرس الليلي المكلف بالحراسة خارج القلعة. وأضاف أحمد بن المكرم في تذكرته تجريدتهم جهة المدينتين مصر والقاهرة وخارج الحسينية وعدم إهمال ذلك ليلة واحدة وعدم مفارقتهم مراكزهم إلا عند السفر وكامل الضوء، انظر القلقشندي، صبح، ج٣، ص ٩٤.

(٦٣) السماط، المائدة السلطانية أو ما ييسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكلين. وعن عددها وما يقدمه السلطان فيها لمماليكه وغيرهم انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠٤؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١١٦-١١٧.

(٦٤) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٣ و. ويتولى الداودار الكبير رفع القصص إلى السلطان أو نائبه ويتولى أيضاً الحصول على التوقيع عليها. والقصة هي طلب الجندي الحصول على إقطاع أو إعلانه بخروجه عن إقطاع بيده أو طلب بإعادته إلى إقطاع خرج عنه. انظر:

السيد الباز العرينى، الممالك، ص ١٤٩، ١٨٩-١٩٠. وكذلك راجع: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠١-١٠٢.

(٦٥) باب الرحبة هو المؤدى إلى الرحبة الفسيحة التى فى صدرها الإيوان الكبير الذى أعده قلاوون لجلوسه فى أيام المواكب وإقامة دار العدل التى أنشأها بدلا من دار بيبرس. للمزيد انظر: العمرى، مالك الأبصار، ص ١٤١-١٤٢. كذلك محمد الحداد، قلاوون، ص ٨١ ح (١).

(٦٦) ذكر العمرى أن باب القلة كان فى وسط الدوركة التى كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، ويدخل منه فى دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن وإلى المسجد الجامع وسمى بذلك لوجود قلة عنده بناها الظاهر بيبرس، للمزيد انظر:

العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٤١-١٤٢؛ محمد الحداد، قلاوون، ص ٨٢-٨٣.

أما باب السر فيختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة - كالوزير وكاتب السر ونحوهما ويتوصل إليه من الصوة وينتهى مدخله من مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أمام المواكب. انظر: القلقشندى، صبح، ج ٣، ص ٣٧٤، كرىزويل، وصف قلعة الحجل، ص ٦٩.

(٦٧) كان هناك والى مخصص للطواف فى الشوارع والحارات لحراستها وتأمينها وكان يرافقه المقدم أحد رجال الشرطة. وفى تذكرة أحمد بن المكرم أمر قلاوون بمنع خروج النساء ليلا. انظر: السلوك، ج ١، ص ٦٧٣، ج ١؛ القلقشندى، صبح، ج ١٣، ص ٩٢.

(٦٨) ظهر بعض الأشخاص فى بداية حكم قلاوون عاثوا فساداً فى القاهرة ومصر وذاع صيتهم حتى أن الناس خشوهم وقاموا بدفع أموال وغيرها لهم اتقاء لشهرهم. وعندما بلغ قلاوون ذلك أحضر والى مصر والقاهرة وأغلظ إليهما فى

القول حتى تم القبض عليهم وهؤلاء الأشخاص هم الجاموس والمحجوب والكريدى وتم تسميرهم والطواف بهم فى شوارع القاهرة حتى ماتوا. انظر: محبى الدين بن عبد الظاهر، تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل ومراجعة د. محمد على النجار. القاهرة، ١٩٦١، ص ٧٩-٨٩.

(٦٩) لم أعثر على شرح لهذه القاعات فى المصادر المتاحة، وأمر قلاوون بهدمها، «ومن ظفر به فليمثل به غاية التمثيل» شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥ و.

(٧٠) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥ ظ، ويعطى لنا هذا انطباعاً بأن قلاوون لم يكن مثل بقية سلاطين الممالك الذين ولعوا بالنجوم وبأصحاب التقاويم فالظاهر يبرس اعتقد فيما يقوله هؤلاء المنجمون وترى بعض الروايات سبب وفاته وبين تصديقه لما قاله له أصحاب التقاويم من أنه يموت بدمشق فى عام ٦٧٦ هـ ملك من الملوك بالسلم فحصل عنده من ذلك أمر عظيم. انظر:

Ayyabids, Mamlukes and Crusaders, Selections from the Tarih al Adu'al Wa'l Muluk of Ibn al Furat, Text and Trans. by M.C. Lyons Rily Smith, 2 Vols., Cambridge, 1971, pp. 212-213.

وانظر: وصية منجم فى العمرى، التعريف، ص ١٨٠، وفى عام ٧٣٣ هـ قام الناصر محمد بمنع المنجمين وضربهم لإفسادهم حال النساء. انظر: سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٤١.

(٧١) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥ ظ. وتجدد الإشارة إلى قيام قلاوون بتطبيق الحد على أحد القتلة وتم إعدام آخر شنفًا. وراجع أيضاً ما تم تطبيقه من عقوبات على الكريدى والمحجوب والجاموس. كذلك تم عقاب ثلاثة شاركوا فى عملية تزوير لتوقيع السلطان. فأمر بقطع لسان الجندى وتجريسه، وتسمير النصرانى واليهودى. ثم عاد ورسم قلاوون باستفتاء الفقهاء فى القضية فأفتوا بتأديبهم وجسهم وتعزيرهم التعزير الشرعى فأمر بتطبيق ذلك عليهم. ويشير العمرى أنه كان على متولى الشرطة أن يكتب مطالعة جامعة للسلطان يخبره فيها ما يقع من قتل أو حريق كبير وما شابه ذلك. انظر: ابن عبد الظاهر، تشرىف الأيام، ص ٨٩-١٢٢؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠٦.

(٧٢) يذكر المقرئى أنه قد رسم بتضمين الخمر، فظهر وكشر السكارى وزال الاعتراض عليهم ولكن لم يقم ذلك سوى أيام قلائل وأبطلت ومنع التظاهر بشيء من المنكرات، وكان هذا المرسوم قد صدر فى ٢٥ ربيع أول ٦٨٠ هـ وتم إبطالها وإراقة الخمر. ولاشك أن إباحة الخمر وحظرها كان يثير جدلاً كبيراً فى تلك الفترة. فقد كانت الدولة المملوكية تجبى من ذلك أرباحاً طائلة فيذكر ابن شداد أن جملة ما كان يتحصل زمن بيبرس منها فى أعمال مصر ألف دينار يومياً كما أن وجود الأجانب خاصة فى الإسكندرية كان عاملاً آخر فى هذا الجدل وأوردت د. حياة ناصر الحجى دراسة عن ذلك وما أحدثه قرار منع الخمر من رد فعل. انظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ ٣١، ص ٨٠؛ المقرئى، السلوك، جـ ١، ص ٦٦٨؛ ابن شداد. (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم)، تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط - فيسبادن، ١٩٨٣، ص ٢٩٩-٣٠٠، حياة نصار الحجى، أحوال العامة فى حكم المماليك (٦٧٨-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢ م) دراسة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الكويت، ١٩٨٤، ص ٧٢-٧٨.

(٧٣) وردت مسميات أخرى على هذه الفئة من النساء فى مصادر العصر المملوكى من بينها الخواطى وهى جمع خاطية أى المرأة الداعرة، وتسمى محظية وتجمع على محظيات، كما أطلق عليهن ابن شداد لفظ المومسات. وكان لهن ضامنة تسمى ضامنة المغانى. ويذكر أحمد بن المكرم فى تذكرته ضرورة منع أحد من الاجتماع فى هذه الأماكن ليلاً أو نهاراً، بل إنه أشار أيضاً إلى عدم اجتماع النساء والرجال فى ليالى الجمع بالقرافتين للحد من هذه الناحية الاجتماعية السيئة وكان الظاهر بيبرس قد حارب هذه الظاهرة من قبل وذلك بتطهير الثغر من الخواطى والقرنجيات. وكذلك بسلب جميع أموال المفسدات حتى يتزوجن. وأبطل المقرر من هذه الجهة وعرضهم مالا حلالاً. انظر: ابن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ٣٠٠؛ المقرئى، السلوك، ص ٥٠٠، ٥٥٣-٥٥٤، وكذلك: سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٧؛ قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٣٩-١٤٠.

(٧٤) من المنكرات التى كانت منتشرة أيضاً تعاطى الحشيش والأفيون بخلاف أنواع

الخمور المختلفة. فأصدر بيبرس أمراً بمنعها وتأديب آكلها وأبطل ضمان الحشيشية بل أنه أمر بمنع كل مسكر وأخذ خطوط ولاته على ألا يمكنوا أحداً من تعاطيه البتة وساد المنع بين أمرائه ورعيته. وفي عام ٦٨٧هـ تم ضبط نصراني وامرأة مسلمة يشربان الخمر في رمضان، فأمر نائب السلطنة في دمشق بحرق النصراني وقطع بعض أنف المرأة وشفع فيها فأطلقت. انظر: ابن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ٢٩٩-٣٠٠؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٦، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٢٩-٢٣٣؛ عبد النعمان ماجد، نظم، ص ١٢٢-١٢٣، وعن المرأة والنصراني انظر:

النويري، نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٥٨-١٥٩. وللعمرى رأى في ذم الحشيش، انظر: التعريف، ص ٢٨٨، ح (٥٠).

(٧٥) كان السلطان يجلس بنفسه في دار العدل في يوم الاثنين من كل أسبوع عدا شهر رمضان. فإذا قعد للمظالم كان يجلس على يمينه قضاة المذاهب الأربعة أولهم الشافعي من الحنفي ثم المالكي وأخيراً الحنبلي. وكان السلطان يراجعهم إذا احتاج الأمر للمراجعة. وعلى الرغم من أن قاضي الشافعية كان أعلاهم إلا أن هذه الإشارة تدل على ضرورة تعاونهم وعدم التنافس بينهم. وأشار العمرى في التعريف إلى مجموعة من الوصايا للقاضي عامة. ثم خص قاضي كل مذهب بوصية خاصة به. وفي تقليد عهده للأشرف خليل أكد عليه مراعاة العدل فهو «معمربوت الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال...» وأمره أيضاً بإقامة حدود الله وعدم تجاوز حدوده في القصاص. وهناك عقوبات أخرى طبقت مثل التشهير والتجريس والعصر بالمعصرة والتسمير وغيرها. عن ذلك انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠١-١٠٢؛ التعريف، ص ١٥٤-١٦٠؛ القلقشندي، صبح، ج ١٠، ص ١٦٧-١٦٨؛ وكذلك: سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٩٨-٩٩.

(٧٦) شافع بن علي، الفضل المأثور، ٨٩ ط، ٩٠ و. وعن قيام الظاهر بيبرس بجعل قاضي لكل مذهب ودوافعه في ذلك انظر:

J.S. Nielsen, Sultan al Zahir Baybars and the Oppoinment of Four Chief Qadis (6563/1265) in Studia Islamica, Paris, 1984, pp. 167-176.

وكذلك شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٠٣.

(٧٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٠ ر.

(٧٨) ذكر محبى الدين بن عبد الظاهر فى تقليد الأشرف بولاية العهد نفس العبارة بعد أن تحدث عن العدل «وأقرنه بالفضل» «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الآية. القلقشندى، صبح، جـ ١٠، ص ١٧٠.

(٧٩) لم يقتصر اهتمام قلاوون بالفلاحين على هذا الجانب، بل أكد فى فصل آخر بالاستكثار من الغلال «من غير إجحاف ولا طلب ما لا يستحق بيت المال». وعرف القلقشندى ما يتحصل من الغلال بأنه المال الخارجى وهو على ضربين شرعى وغير شرعى، ويذكر أنه فى زمانه كان أكثر خراج الوجه القبلى من الغلال وهى القمح والشعير والحمص والفل والعدس وغيرها. ويعبر فى عرف الدواوين فيما عدا القمح والشعير والحمص بالحبوب. وفى الغالب يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ما بين أردبين إلى ثلاثة بكيل تلك الناحية، وربما زاد عن ذلك أو نقص. وفى الغالب أيضاً يؤخذ على كل أردب درهم أو درهمان. وكان لانخفاض النيل فى العصر المملوكى أثر كبير على إعادة تحقيق خراج الديار المصرية. وجرت محاولات كثيرة لضبط هذه الأمور. للمزيد انظر: القلقشندى، صبح، جـ ٣، ص ٤٥٢-٤٥٤؛ السيد الباز العرينى، المماليك، ص ١٧٣ وما بعدها.

(٨٠) كان هناك كاشف للجسور فى العصر المملوكى ويسمى بالأمير كاشف الجسور فى العمل الفلانى، وكان يعاونه عدد من الخولة والمهندسين فى مراقبة الجسور. وكان أحمد بن المكرم أكثر تحديداً فى مسئولية الولاية عن الجسور حيث ذكر فى تذكرته بأن تؤخذ خطوطهم «بأن الجسور قد اتقن عملها على الوضع المرسوم به، وأنها اتقنت ولم يبق فيها خلل، ولا ما يخشون عاقبته ولا ما يخافون دركه، وأنها عملت على ما رسم» القلقشندى، صبح، جـ ١٣، ص ٩٥؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٧٦.

(٨١) قدم محبى الدين بن عبد الظاهر تفاصيل أكثر فى تذكرته فيما يتعلق بهذه النواحي الاقتصادية حيث أفرد لها ثلاثة فصول انظر ما يلى.

(٨٢) كانت الجسور على نوعين: السلطانية وهى التى يعم نفعها كافة البلاد ويصرف عليها مما يجبى من أموال الأعمال الشرقية والغربية. والثانى هى الجسور البلدية

وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم.

انظر: القلقشندي، صبح، ج-٣، ص ٤٤٨-٤٤٩؛ محمد جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون فى مصر (الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص)، القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٨١-٢٨٧.

(٨٣) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٧ ط.

(٨٤) نفسه، ورقة ٨٨ و.

(٨٥) نفسه، ورقة ٨٨ ط.

(٨٦) أوردتها شافع هكذا - وهى ترعة الطيرية أو الطبرية التى قام قلاوون بحفرها ومعه الأمراء والملك المنصور صاحب حماة حيث تم إنجازها فى عشرة أيام وذلك فى عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م وتركت أثراً هاماً على هذه النواحي فى بلاد البحيرة وتتضمن التذكرة هنا ضرورة مراعاتها والاهتمام بها - كما تدل على أنها كتبت بعد حفر الترعة للمزيد انظر: محمد الحداد، قلاوون، ص ٦٥-٦٧.

(٨٧) أفرد أحمد بن المكرم فصلاً للشغور المحروسة، وكذلك محبى الدين بن عبد الظاهر، أما فتح الدين فقد اختصر شافع تذكرته ولم يوردها كاملة.

(٨٨) نصت الهدن والمعاهدات التى عقدها قلاوون مع مختلف القوى الصليبية فى الأراضى المقدسة مثل الداوية وبوهمنه السابع صاحب طرابلس ومع السلطات فى عكا ومع صاحبة صور، على شروط عديدة لتأمين التجارة وعبروها الأراضى المملوكية. انظر: جوزيف نسيم يوسف، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٠٣-١١٠.

(٨٩) الفضل المأثور، ورقة ٩٨ و.

(٩٠) نفسه، ورقة ٨٥ و.

(٩١) عبرت القوافل هذا الطريق بعيداً عن تهديد الصليبيين وكان يقطع فى ثمانية أيام، كما سلكه المتهربون من التجار بعيداً عن دفع الحقوق السلطانية عند القرما. انظر: حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، أبريل ١٩٩٢، ص ٨٦.

(٩٢) حذر قلاوون والى البحيرة بحفظ الطرقات والمنازل من جهة برقة وضبطها من كل «متسلك أو متسحب أو نازح». كما حذر ولاية البهنساوية والفيوم ومن تسلل أحد من الأكراد والشهزورية وهذه العبارة تدل على ظهور خطرهم مرة أخرى على الرغم من قيام بيبرس بتشريعهم بعد مؤامرتهم ضده. أما خطر العربان فقد نجح الظاهر بيبرس فى القضاء عليهم. واستمر قلاوون فى إخضاعهم محذراً من حملهم للسلاح وضرورة أخذه منهم وإرساله إلى خزائن السلاح. عن ذلك راجع: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١، ١٦٣، التعريف، ص ١٠٩، ص ٥٨-٥٩، ١٤٨، ١٤٩، السيد الباز العرينى، الممالك، ص ٧٢-٧٣؛ حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر، ص ٦٨-٦٩.

(٩٣) عن آل فضل وفروعها انظر: العمرى، التعريف، ص ١١١-١١٢؛ القلقشندى، صبح، ج ٤، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٩٤) حدد ابن المكرم وقت السفر ما بين طلوع الشمس إلى غروبها. انظر: القلقشندى، صبح، ج ١٣، ص ٩٥.

(٩٥) حرص سلاطين الممالك على تشجيع التجار الذين يحضرون الممالك والخيول وذلك بمنحهم خلع وامتيازات مثل الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والمساحات نظير كل ما يباع عليه من الرقيق للممالك والجوارى مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوق أخرى تطلق. وللمزيد انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٣٥-١٣٦؛ التعريف، ص ١٣٤. وكذلك السيد الباز العرينى، الممالك، ص ٧٣-٧٧.

(٩٦) عن البريد ووصوله من وإلى السلطان وكيفية عرضه وقيام كاتب السر بقراءته وأخذ الأمر من السلطان، انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠٥-١٠٦.

(٩٧) أكد قلاوون على والى الشرقية والعرب بالاهتمام بإعداد الخيول الجيدة بحيث لا يكون بها أية عيوب، وكذلك بالأا يفارق صاحب النوبة مكان نوبته حتى يحضر صاحب النوبة الأخرى ويتسلمها. ومن يخالف ذلك يؤدب ويغرم. وكانت بلبيس هى آخر المراكز التى لخييل السلطان أما بعدها فكانت مقررة على عربان ذوى إقطاعات عليها خيول تحضر فى هلال كل شهر، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم، ولذا يسمون خييل الشهارة. ويدخل هؤلاء ضمن طبقة أجناد الحلقة.

وكان يبهرس أول من اهتم بضرورة سرعة وصول الأخبار إليه - انظر: العمرى، التعريف، ٢٣٩، ٢٤٥-٢٤٦، ومسالك الأبصار، ص ١٣٦، وكذلك المقرئى، السلوك، ج١، ص ٤٤١-٤٤٧؛ السيد الباز العرينى، الممالك، ص ١٨٦؛ عبد المنعم ماجد، نظم، ص ٣٦-٣٨. وعن صفات الخيل الجيدة انظر: العمرى، التعريف، ص ٢٨٩، وما بعدها.

(٩٨) اهتم سلاطين الممالك اهتماماً خاصاً بسرعة وصول الأخبار إليهم - وصنف القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر كتاباً أسماه «تائم الحمام». ويذكر العمرى أن أول من اعتنى به نور الدين محمود بن زنكى ويؤكد كرىزويل ذلك من أنه عثر على إشارة فى أحد المصادر عن اهتمامه بذلك. كما ذكر أن هناك برجاً فى القلعة يسمى برج المطار كان له ارتباط باستخدام الحمام وكانت القاهرة مركزاً خرجت منه الرسائل المعلقة فى الحمام إلى كل من الإسكندرية ودمياط والسويس وبلبيس متصلاً بالشام. وتسمى الحمامة التى تحمل البطاقة باسم الحمام البطائقى وكانت هذه البطاقة تعطر لنقل الأخبار السارة، أما الطائر الملطخ بالسواد أو المسود فكان لنقل الأخبار السيئة. عن ذلك راجع: العمرى، التعريف، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ مفضل ابن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه، ص ٢٤٠-٣٣١؛ المقرئى، السلوك، ج١، ص ٦٩٧، ح (١).

(٩٩) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٥ ظ.

(١٠٠) نفسه، ورقة ٩٦ ظ.

(١٠١) القلقشندى، صبح، ج١٣، ص ٩٧.

(١٠٢) أكد قلاوون على ابنه الأشرف خليل وهو على فراش الموت الاهتمام بالأمراء وحسن معاملتهم. انظر: بيبهرس الدوادار، زبدة، ص ٢٥٣. وعن اهتمام قلاوون بمماليكه وما جمعه منهم انظر: محمد الحداد، قلاوون، ص ٤١-٤٥.

(١٠٣) عن موكبه انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١١٦، ويشير العمرى أنه كان ينبى عن السلطان فى قراءة القصص وسماع الشكوى. إذا احتاج لأمر السلطان فكان يعلم بذلك عند اجتماعه به، أو يرسل من يعلمه ويأخذ أمره. ولا شك أن قلاوون كان يعلم جيداً المؤامرات التى تدبر أثناء المراكب وأثناء الصيد

فجاءت نصائحه لابنه لتجنب ذلك. وعن مثال ذلك ما حدث أثناء مقتل قطز. عن هذه الروايات انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٣٢ ح (١١).

(١٠٤) أوردت المصادر المملوكية لفظي حرامية البحر والكرسالية للإشارة إلى القراصنة. انظر: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ١٦١، ١٦٥، ٢٠٦؛

P.M. Holt, The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States, SOAS, Vol. XIII, London, 1980, pp. 67-76.

(١٠٥) أشار أحمد بن المكرم في تذكرته إلى ضرورة الاحتياط على الأسرى من الفرغ وضرورة خلق لحاهم وتعهد ذلك دائماً. القلقشندي، صبح، ج ١٣، ص ٩٣.

(١٠٦) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٦و.

(١٠٧) يذكر العمرى أن قطيا تقع على الجفار الذى هو طريق الشام وجعلت لأخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم ومنها يطالع بكل وارد وصادر. وجعل بها جماعة من العربان حتى لا يمر أحد ليلا. انظر: التعريف، ص ٢٤٦ ح (٥)؛ القلقشندي، صبح، ج ٣، ص ٤٠٤.

(١٠٨) عن أقمشة الإسكندرية، انظر: العمرى، مسالك الأصار، ص ٨٤-٨٥، ١٥٠، ١٥٧-١٥٨، وكانت هناك خزانة خاصة يحمل إليها ما يعمل بدار الطراز فى الإسكندرية ودمياط وغيرها. وتسمى خزانة الكسوة، انظر: القلقشندي، صبح، ج ٣، ص ٤٧٦.

(١٠٩) أورد العمرى وصفاً للملابس والخلع التى تصنع فى دار الطراز، وللمزيد راجع: مسالك الأبصار، ص ١٣٠-١٣٤. وكذلك السيد الباز العرينى، الماليك، ص ١٥٣-١٥٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٨ وما بعدها؛ عبد النعم ماجد، نظم، ص ٦٦-٦٨؛ جوزيف نسيم، دراسات، ص ١٠٢.

(١١٠) كانت إمرة سلاح لمقدم السلاح دارية، ومن وظائفه حمل سلاح السلطان فى الجامع الجامعة، وهو المتحدث فى السلاح خانة وما يستعمل لها، وما يقدم إليها ويطلق منها، وهو من أمراء المثين. وعن أنواع السلاح فى عصر العمرى انظر:

التعريف، ص ٢٦٤-٢٧٣؛ مسالك الأبصار، ص ١١٨؛ السيد الباز العرينى،
الممالك، ص ١١٠-١١١. وعن الزردخانه انظر: بيبرس الدوادار، زبدة، ص
٩٨ ح (٨).

(١١١) أشار العمرى فى وصية محتسب كيف يتم اختبار النقود لمعرفة ما فيها من
نسبة الفضة أو ما يسمى بالروياص. وأوصى بأن يقوم المحتسب بعمل ذلك بنفسه
وأن يقيم الرقباء على دار الضرب حتى لا يخرج شئ من الزائف خارجها. كما
أورد القلقشندى ما كان يتم التعامل به من تعاملات فى تلك الفترة. للمزيد
انظر: العمرى، التعريف، ص ١٦٣، مسالك الأبصار، ص ٨٠-٨١؛
القلقشندى، صبح، ج ٣، ص ٤٤٠-٤٤٥؛ ٤٦٥-٤٦٧.

(١١٢) سورة الذاريات، آية : ٥.

(١١٣) كانت هناك أسباب أخرى لسوء العلاقة بينهما خاصة فى عهد قلاوون منها
أن حسام الدين كان يرجع الملك الصالح على أخيه الأشرف، كما أغرى
قلاوون على شمس الدين السلجوسى ناظر ديوان الأشرف حتى ضربه وصرفه.
انظر: النويرى، نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٧٩-١٨٠؛ بيبرس الدوادار، زبدة،
ص ٢٥٥؛ المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٧٥٦-٧٥٧.

(١١٤) المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٧٥٩؛ النويرى، نهاية الأرب، ج ٣١،
ص ١٩٧.

(١١٥) بيبرس الدوادار، زبدة، ص ٢٥٣.

(١١٦) نفسه، ص ٢٥٥.

(١١٧) النويرى، نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٢٤٥.

(١١٨) المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٧٩٢.

(١١٩) على إبراهيم حسن، دراسات فى تاريخ الممالك البحرية، ص ٥٠؛ سعيد
عاشور، العصر المملوكى، ص ٧١-٧٢.

(١٢٠) انفراد شافع بن على برواية مفصلة عن مناقشة هدنة عكا وتحديداتها خاصة وأن
لديه نسختها كما ذكر. انظر: الفضل المائور، ورقة ١٢٨ ر- ظ.

- (١٢١) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)، تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، ص ١١٠.
- (١٢٢) زبدة الفكرة، ص ٢٥٩
- (١٢٣) شافع بن علي، الفضل المأثور، ورقة ١٣١ ظ.
- (١٢٤) المقرئ، السلوك، ج١، ص ٧٩١.
- (١٢٥) النويري، نهاية الأرب، ج١، ص ٢٥٩-٢٦٢.

1. The first part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the atom. It is shown that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics, and that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics.

2. The second part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the atom. It is shown that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics, and that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics.

3. The third part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the atom. It is shown that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics, and that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics.

4. The fourth part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the atom. It is shown that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics, and that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics.

أثر العوامل الجغرافية علي الحروب الصليبية
منذ الحملة الأولى حتى معركة حطين
(١٠٩٧-١١٨٧م / ٤٩٠-٥٨٣هـ)

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is illegible due to fading and the quality of the scan.

مقدمة

لا تزال الحروب الصليبية معينا لا ينضب بالنسبة للباحثين فيها. وهذه الدراسة التي أقدمها للقارئ الكريم تتناول تفسير أحداثها من زاوية جديدة ونظرة جغرافية لوقائع هذه الحروب التي وقعت فوق أرض بلاد الشام ومصر ووسط مناخها مما كان له أكبر الأثر وانعكس بصورة مباشرة عليها. وقد حاول كلا الجانبين أن يستغل هذه العوامل الجغرافية لصالحه. وبالفعل وضعت الخطط والتكتيكات العسكرية اعتماداً على الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة واستغلت الطبوغرافية في نصب الكثير من الكمائن والتي كان لها أكبر الأثر أيضاً في إلحاق الهزيمة بالعدو. أما المناخ - والذي كان العدو الرئيسي للصليبيين - فقد ترك تأثيره على مجريات المعارك واستطاع المسلمون في كثير من الأحيان أن يستغلوه في معاركهم. أما سلاح المياه أو التعطيش فقد كان أشد تأثيراً فاستسلمت القلاع وتساقطت القوات في ميدان المعارك وهي تلهث وراء نقطة من المياه عندما كان المسلمون يستخدمون هذا السلاح اعتماداً على معرفتهم بطبيعة البلاد.

ومن ناحية أخرى فإن المسلمين حرصوا على القتال في فصل الصيف مستغلين عنصراً هاماً من عناصر المناخ - هو الحرارة. فقد انعكست بصورة مباشرة على المقاتلين الجدد من الغرب الأوروبي أثناء المعارك، كما كان لها تأثيرها على الأسلحة أيضاً، وعلى مدى نشاط المقاتلين.

كما أن تضاريس بلاد الشام كان لها دور في هذه الحروب. فقد رسم الصليبيون استراتيجيتهم على هذه الناحية الجغرافية. فتم بناء القلاع والحصون عند المناطق الواقعة مع حدود المسلمين، ثم في مرحلة تالية رسموا سياستهم على أن يجعلوا من بعض الظواهر الطبيعية حدوداً لهم. مثل الصحراء في بعض مناطق الحدود لمملكة بيت المقدس والأنهار في مناطق

أخرى. وأدى ذلك إلى قيام سلسلة من المعارك لتحقيق هذه الاستراتيجية والتي ثبت بعد ذلك فشلها عندما نجح صلاح الدين الأيوبي في توحيد مصر والشام مما كان بداية النهاية لهذا الكيان الصليبي.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الموضوع، فلم أعثر بين دراسات تاريخ الحروب الصليبية على دراسة تناولته من قبل، وما ورد في بعض ثناياه تناولته بعض الدراسات المتعلقة بالنواحى العسكرية. وقد اخترت له تلك الفترة الزمنية المحددة باعتبار أن معركة حطين تمثل نهاية لهذه الاستراتيجية الصليبية التي استندت على العوامل الجغرافية، وبات على الصليبيين بعدها أن يعيدوا التفكير في وضع سياسة جديدة تستند على امتداد دولتهم الاسمية الجديدة التي خلفتها الحملة الصليبية الثالثة.

ويعتمد أسلوب الدراسة على تناول أهم وقائع هذه الحروب وكيف انعكست العوامل الجغرافية على مجرياتها مع توضيح كيف تمكن أيًا من جانبي الصراع أن يستغل هذه النواحى لصالحه. وقد اعتمدت في ذلك على دراسة وتحليل مختلف الروايات سواء في المصادر العربية أو الأجنبية. وثمة ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا وهي أن القادة المسلمين كثيراً ما استلهموا هذه التكتيكات من سرايا وغزوات الرسول ﷺ بنصيحة الحباب بن المنذر في غزوة بدر بشأن ضرورة تأمين الماء للمسلمين ومنعه عن الكفار. كما أشار الله عز وجل إلى أثر المطر أيضاً في هذه المعركة. كما اهتم الرسول ﷺ. بالموقع كما في غزوة أحد وغيرها من الغزوات.

وفي النهاية فإننا لا نستطيع أن ننكر أهمية العامل البشرى وسط هذه العوامل الجغرافية فعندما وضع المسلمون خلافتهم جانباً وتوحدت كلمتهم وارتفعت راية الجهاد لطرد أعداء الدين جاء نصر الله وتحقق وعده للمؤمنين ﴿ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوى عزيز﴾ (الحج، من الآية: ٤٠)

تميز سطح بلاد الشام بتنوع مظاهره بين السهول الساحلية والمرتفعات الجبلية والهضاب التي تخترقها الكثير من الأودية والسهول النهرية. أما السهول الساحلية فتتمتد من خليج الإسكندرونة شمالاً حتى رفح جنوباً. ويتسع هذا السهل في بعض أجزائه، بينما تشرف الجبال على البحر الأحمر مباشرة في مناطق أخرى. كما يكثر فيه التواءات الطبيعية والصخور الضاربة مما يسهل قيام العديد من الموانئ على امتداده. وعبر هذه السهول ارتبطت بلاد الشام بمصر، كما أنها أيضاً اتصلت بالداخل عبر عدد من الممرات والأودية النهرية.

كذلك امتدت سلسلة من المرتفعات من الشمال إلى الجنوب عرفت باسم جبال أمانوس في الشمال والوسطى باسم جبال العلويين والجنوبية هي جبال لبنان. أما في الجزء الجنوبي في فلسطين فقد كانت هضاباً أقرب منها إلى الجبال. ويوجد منخفض أوسط عبارة عن منطقة ضيقة من الأراضي المنخفضة وهي امتداد طبيعي للشق الذي يجري فيه نهر الأردن وتشمل سهل العمق ووادي نهر العاصي ثم سهل البقاع والهضبة التي ينبع منها نهر الأردن ويجري فيها عدة أنهار هامة مثل نهر العاصي والليطاني وغيرهما. وكذلك فإن مرتفعات فلسطين تعتبر امتداداً لهذه المرتفعات الشمالية وتميل إلى الهضاب مثل الجليل والسامرة والخليل ويهوذا. كذلك فقد أحاطت الصحراء مناطق الشام وهي مستوية وتكثر بها التلال الرملية.

وكان لهذا التباين في التضاريس أثره على اختلاف المناخ من منطقة لأخرى. ففي المناطق الساحلية تسقط الأمطار بغزارة وتغطي الثلوج قمم الجبال. أما فصل الصيف فيتميز مناخ السهل الساحلي بالحرارة والرطوبة وتأخذ الحرارة في الشدة كلما اتجهنا شرقاً حتى يصبح صحراويًا في المناطق الداخلية^(١).

عقب دعوة البابا «أوربان» الثانى للقيام بالحملة الصليبية الأولى سارع آلاف من المعدومين والفقراء فى أوروبا للخروج إلى بيت المقدس يدفعهم فى ذلك الطمع الدنيوى بامتلاك الضياع فى فلسطين - تلك الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً - وعبر الألفى ومائتى ميل التى قطعها هؤلاء عبر أوروبا حتى وصلوا إلى اسيا الصغرى ظهرت لهم حقيقة هذا السراب الذى كان يشهدونه وذلك عندما أجهز عليهم السلاجقة بعد أن منعوا عنهم الماء واشتد بهم الظمأ وراحوا ضحية الجهل بجغرافية أسيا الصغرى^(٢).

أما عن قادة الحملة النظامية فقد حرصوا عند عبورهم لآسيا على تلافى أخطاء الحملة الشعبية. وعلى الرغم من ذلك ووجود الأدلاء معهم عانوا الأمرين خاصة عند عبورهم للمنطقة بين «ضورليوم» و«هرقلة». وذلك فى يونيو ١٠٩٧م / رجب ٤٩٠هـ فقد كانت تعانى من نقص المياه بالإضافة إلى الحرارة الشديدة. فهلكت أعداد كبيرة منهم قدرها بعض المؤرخين بخمسمائة شخص^(٣).

وصلت الحملة أمام أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م / ذى القعدة ٤٩٠هـ، فاقترح بعض الأمراء تأجيل الحصار بسبب قرب الشتاء - خاصة بعد أن أرهقهم حر الصيف^(٤) - غير أنه تم رفض النصيحة السابقة وبدأ الحصار من أكتوبر ١٠٩٧ إلى يونيو ١٠٩٨م / ذى القعدة ٤٩٠هـ - ٤٩١هـ. وأثناء ذلك واجه الصليبيون البرد ووابل الأمطار وتمزقت خيامهم وتعفنت بقية المؤن. ولم يجد كثير من الناس الغطاء الذى يقيهم برودة هذا المناخ القارس أمام أنطاكية^(٥).

وعقب محاولات مستميتة نجح الصليبيون فى الاستيلاء على أنطاكية فى ٣ يونيو ١٠٩٨م / أول رجب ٤٩١هـ. وحاول «كربوغا» حاكم الموصل استرداد المدينة حيث قامت عدة معارك بين الجانبين استخدمت فيها طبيعة

المنطقة. فقد أضرمت السلاجقة النيران فى الأعشاب الجافة مما أدى إلى تصاعد الدخان الكثيف مع ما أثارته الخيول من غبار فى المنطقة وأعطى للسلاجقة ستاراً كثيفاً للانسحاب^(٦).

فشلت محاولة الاسترداد، وعقد الصليبيون اجتماعاً للتشاور فيما يتم عمله فى هذه المرحلة القادمة. وقد ظهر بصورة واضحة أثر العوامل الجغرافية فى هذا النقاش. فقد فضل الكثيرون الانتظار حتى يتم تحسن المناخ وذلك بسبب الحرارة الشديدة التى لا تحتمل وكذلك ندرة الأمطار فى هذه الفترة وكان لهذا رأى أثره المباشر على تأجيل رحيل الحملة حتى نوفمبر ١٠٩٨م / ذو الحجة ٤٩١هـ^(٧).

غير أن هذه النصيحة لم يتم تنفيذها، وظل الصليبيون حتى يناير ١٠٩٩م / صفر ٤٩٢هـ حيث بدأ قسم مهم فى التحرك، ثم تحرك البقية فى فبراير ١٠٩٩م / ربيع أول ٤٩٢هـ وقد أوقعهم ذلك فى خطأ استراتيجى. فقد وصلوا أمام بيت المقدس فى يونيو ١٠٩٩م / رجب ٤٩٢هـ. واستخدم الأهالى ما فى وسعهم من أجل مقاومة هذا الحصار الصليبي لمدينتهم خاصة بعد حالة الانقسام التى كان يعانى منها المسلمون آنذاك - فبدأوا باستخدام سلاح التعطيش. فقاموا بطمر ينباع الواقعة فى طريق الصليبيين وتدمير صهاريج المياه وإلقاء الحيوانات الميتة فى بعض الآبار^(٨). وقد نجح الأهالى فى استخدام هذا السلاح. ويعترف المؤرخون الغربيون بمدى المعاناة التى واجهت الصليبيين بسبب العطش، بخلاف من لقى حتفه أثناء التدافع الجنونى للحصول على المياه - بعد أن دلهم عليها بعض الخونة مما أدى إلى هلاك الكثيرين.

وكان الضعفاء يزحفون على الأرض بجوار النبع بأفواه فاغرة، وقد أحرسهم جفاف ألسنتهم وامتدت أيديهم التماساً للمياه من الذين هم أكثر حظاً^(٩). وزادت معاناة الصليبيين مع حرارة الصيف اللافة فى هذا الوقت

من العام. ويشير «وليم الصوري» لذلك بقوله «مع الطقس الثقيل الوطأة، وحرارة شهر يونيو الشديدة». كما ساعد الغبار أيضاً على شدة المعاناة مما سبب لهم «جفافاً للفم والصدر»^(١٠).

أدرك الصليبيون بعد فترة المعاناة السابقة أن هناك منطقة بالقرب من سور المدينة يستوى فيها السطح مما يسهل معه تحريك آلات الحصار عندها. فتحركت القوات الصليبية متجهة إلى المنطقة. وفي ١٧ يوليو ١٠٩٩م / ٢٦ شعبان ٤٩٢هـ تمكنت من الاستيلاء على المدينة بعد هذه المعاناة الشديدة والتي نجح فيها الأهالي في الدفاع عن مدينتهم مستغلين هذه العوامل الجغرافية التي توفرت لهم^(١١).

حققت الحملة الصليبية الأولى الهدف الذي خرجت من أجله وهو الاستيلاء على بيت المقدس. وتأسست في بلاد الشام إمارتين هما الرها وأنطاكية، بالإضافة إلى بيت المقدس. وعلى الرغم من حالة المسلمين آنذاك من الفرقة والضعف والانقسام، فإن العوامل الجغرافية وقفت ضد هؤلاء الغزاة، وكان المناخ هو عدوهم الرئيسي. فاشتدت معاناتهم من الأمطار أثناء المعارك، وكذلك من الحرارة أثناء تقدمهم إلى بيت المقدس وكذلك من العطش.

امتدت أملاك الصليبيين في الجنوب إلى الرملة واللد وطبرية ونابلس وبالإضافة إلى بيت المقدس عند وفاة «جودفري» أول حاكم صليبي لها في ١٨ يوليو ١١٠٠م / ٧ شعبان ٤٩٣هـ. وكذلك يافا، ثم سقطت حيفا في أغسطس ١١٠٠م / شوال ٤٩٣هـ. وعندما مر «بلدوين» شقيق «جودفري» بالمنطقة بين بيروت وجبيل واجهته صعوبات شديدة بسبب طوبوغرافيتها. فقد نجا بصعوبة بالغة من الكمين الذي نصبه له السلاجقة فيها مستغلين معرفتهم الجغرافية بها. كذلك عانى من العطش الشديد وأيضاً الحرارة حسب رواية «وليم الصوري» وربما يكون مبالغاً في ذلك لأنه مر بالمنطقة

فى شهر سبتمبر وعادة يكون المناخ معتدلا فى هذه المنطقة الساحلية فى هذا الوقت^(١٢). ويشير مؤرخ آخر هو «ألبرت أكس» إلى أنه جرت محاولة استكشافية لحصار «أرسوف» ولكن هذا الحصار باء بالفشل بسبب عدم اختيار الوقت المناسب، فقد جرت المحاولة فى شهر ديسمبر وواجه الصليبيون الصقيع والبرد فعادوا إلى بيت المقدس. كما فشلت الكمائن الصليبية ضد المدينة^(١٣).

أصبح الصليبيون فى حاجة ماسة إلى مزيد من الرجال لمواجهة النقص الذى حدث عقب عودة الكثيرين منهم إلى أوروبا عقب الحملة الأولى. وخرجت جموع غفيرة - خاصة من فرنسا - متجهة إلى بلاد الشام وذلك فى عام ١١٠١م / ٤٩٤هـ غير أن السلاجقة استوعبوا درس الحملة النظامية السابقة. وبدلاً من أن تسلك هذه الجموع أقصر الطرق عبر آسيا الصغرى للوصول إلى بلاد الشام، قررت التوجه إلى «كبادوكيا» للانتقام من أسر بوهمند وهكذا نبش الصليبيون قبورهم بأيديهم. فقد دل ذلك على جهلهم بأبسط العوامل الجغرافية. فقد اندفعوا فى هذه المنطقة الجبلية وحل بهم التعب والإرهاق نتيجة العطش وما إن رأوا أحد الأنهار حتى اندفعوا لكى يرووا عطشهم بعد أن كاد الظمأ يسبب لهم الجنون. وأدرك السلاجقة ذلك - بسبب معرفتهم بطبيعة بلادهم الجغرافية فكمنوا لهم عند ذلك النهر. ثم انقضوا على هذه الجموع الصليبية حيث اضطرب نظامهم وانتشر الذعر بينهم نتيجة لهذه المفاجأة^(١٤).

وقد أحسن السلاجقة استخدام طبوغرافية المنطقة فى القضاء على هذه الحملة الصليبية. كما أن المسئولية تقع أيضاً على الصليبيين حينما لم يقدروا طبيعة هذه المنطقة فوقعوا فى الكمين الذى نصب لهم. وبهذه الهزيمة فى آسيا الصغرى أصبح هذا الطريق مغلقاً أمام الجيوش الصليبية القادمة من أوروبا وصار اعتمادهم بعد ذلك على الطريق البحرى مما أدى

إلى تغير فى الاستراتيجية الصليبية فى المرحلة القادمة وهى الاستيلاء على المدن الساحلية خاصة وأنهم حتى هذه المرحلة لم يكن بأيديهم فى الجنوب سوى يافا وحيفا.

لم يأس المسلمون عقب استيلاء الصليبيين على مدينتى «أرسوف» و«قيسارية» فى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ، بل حاولوا استغلال الإمكانيات الطبيعية فى المنطقة لمقاومة الصليبيين فعند وادى فلاح حيث تكثر الأشجار مكونة ما يشبه الغابات استطاع أهالى المنطقة أن يكمنوا للبلدوين الأول ملك بيت المقدس فى يوليو ١١٠٣م/شوال ٤٩٦هـ وأصيب الملك إصابة خطيرة كادت تودى بحياته^(١٥). كذلك استغل الأهالى الكهوف والمغارات، الموجودة فى المنطقة ما بين الرملة وبيت المقدس فى مهاجمة الصليبيين الداهبين إلى هناك^(١٦).

ازداد الخطر الصليبي أيضاً فى شمال بلاد الشام عقب تأسيس إمارتى الرها وأنطاكية، وتعرضت حران لهذا الخطر، فخرج شمس الدولة جكرمش أتايك الموصل ومعين الدولة سكرمان الأرتقى صاحب ماردن من أجل وقف هذا الخطر. وجرت المعركة بالقرب من نهر البليخ الذى يفصل بين الرها وحران فأدرك السلاجقة أهمية هذا العامل الجغرافى الذى توفر لهم. فقاموا بتقسيم قواتهم إلى قسمين، أحدهما مهمته مواجهة الصليبيين والآخر إدخال المؤن إلى المدينة المحاصرة. وفى نفس الوقت وضعت الخطط اعتماداً على الطبيعة الجغرافية للمنطقة. فأظهر السلاجقة الهزيمة عند بداية اللقاء فخرج الصليبيون وراءهم دون أن يدركوا أن هناك كميناً قد أعد لهم. وبينما كان الصليبيون يعبرون نهر البليخ فاجأهم السلاجقة فاضطرب النظام وعرفت أعداد كبيرة منهم فى النهر أثناء العبور وحلت بهم الهزيمة ووقع «بلدوين» الثانى أمير الرها وعدد آخر من الصليبيين أسرى، ولاد الباقون بالفرار بعد صعوبة بالغة^(١٧).

وفى ١١٠٨ م/ ٥٠٢ هـ أرسل صاحب عرقة يطلب من «طغتكين» أتاكك دمشق أن ينقذ قلعته ذات الموقعت الاستراتيجية الهام والتي كانت بمثابة البوابة الرئيسية لطرابلس وتسبب المطر والثلوج التي تساقطت ما يقرب من شهرين فى تأخر وصول النجدة إليها مما أدى فى النهاية إلى سقوطها فى قبضة «وليم جوردان» (١٨).

بتولى شرف الدولة مودود حركة الجهاد ضد الصليبيين فى هذه المرحلة الهامة التى كان يمر بها شمال الشام، كان عليه أن يحافظ على بعض المكاسب التى أحرزت فى هذه الفترة السابقة مثل هزيمة صليبية عام ١١٠١ م/ ٤٩٤ هـ فى اسيا الصغرى، وعند حران فى عام ١١٠٤ م/ ٤٩٧ هـ. وبدأ جهاده ضد الصليبيين عندما خرج بقواته فى عام ١١١٠ م/ ٥٠٤ هـ بحملة ضخمة متجهاً إلى الرها. فى الوقت نفسه جمع الصليبيون قواتهم من الرها وأنطاكية وطرابلس - تلك الإمارة الناشئة - ومعهم «بلدوين» الأول ملك بيت المقدس. وبدأ «مودود» حرباً اقتصادية فعمل على حرمان الفرنج من المؤن وبدأ الطعام يشح تماماً كما يذكر وليم الصورى (١٩). وحرص أيضاً على استدراج الصليبيين إلى حران كما حدث فى معركة البليخ السابقة، غير أن الصليبيين أدركوا الخطة هذه المرة فعادوا إلى الفرات، واتفقوا على تزويد الرها بما أمكنهم من المؤن وإجلاء بعض سكان المدن الأخرى الواقعة فى المنطقة من «الأرمن واليعاقبة» ولكنهم ما لبثوا أن وقعوا فى عائق طبيعى تمثل فى عبورهم لنهر الفرات. وبينما كانوا مشغولين بذلك انقض عليهم السلاجقة فالحقوا بهم القتل، ولم يستطع الصليبيون الذين على الجانب الآخر أن يقدموا المساعدة لزملائهم إذا لم تتوفر القوارب الكافية للعودة لمواجهة قوات «مودود» (٢٠). ومرة أخرى استطاع السلاجقة استغلال طبوغرافية المنطقة لصالحهم وأنزلوا الهزيمة بالصليبيين. وثمة عامل جغرافى آخر ظهر فى المعركة وهو أن الحرارة أثرت على القوات الصليبية وقد انفرد المؤرخ «ألبرت اكس» بهذه الرواية (٢١).

وفى حملته الثانية فى عام ١١١١ م / ٥٠٥ هـ حاول مودود أن يستخدم سلاح المياه، فعند حصاره لتل باشر قام بطمر آبارها ومنع المؤن عنها. غير أن هذا الحصار لم يأت بالثمار المرجوة فقد قاوم الصليبيون هذا الحصار. ولاشك أن ذلك كان راجعاً إلى اعتمادها فى الشرب على مياه نهر الساجور، كما أن صاحبها أحمد بك الكردي لعب دوراً فى فك الحصار (٢٢).

عاود الصليبيون هجماتهم فى الجنوب للاستيلاء على ما تبقى من المدن الساحلية وفى ٢٩ نوفمبر ١١١١ م / ٢٥ جمادى الأولى ٥٠٥ هـ شرعوا فى حصار مدينة صور. فأرسل واليها «أنوشكين» الأفضل يطلب النجدة من «طغتكين» أتابك دمشق فى الوقت الذى استمر فيه الحصار الصليبي فى فصل الشتاء. «وهجم الشتاء فلم يضر بالإفرنج لأنهم كانوا نزولا فى أرض رملة صلبة، والأتراك بالضد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدة عظيمة» (٢٣). وذلك بسبب - كما يقول سبط ابن الجوزى - «والمسلمون فى أرض وعرة» (٢٤).

تقدم الصليبيون بعد أن نجحوا فى تخريب الاستحكامات الدفاعية للمدينة باتجاه السور وتم بناء برجين لهذا الغرض، حيث دفعوا أحدهما إلى السور. وعندما رأى المدافعون - تقدم البرج قاموا بإلقاء النفط والمواد المشتعلة عليه مستغلين فى ذلك هبوب الرياح التى ساعدت على اشتعال النيران بسرعة فيه، كما أنها اتصلت بالبرج الآخر، ومن بين العوامل الجغرافية الأخرى التى ساعدت على فشل الحصار وانسحاب الصليبيين قرب موسم جنى الغلات فأثر «بلدوين» الانسحاب خشية أن يهاجمه السلاجقة فانسحب فى ٢٥٠ شوال ٥٠٥ هـ / ١٠ أبريل ١١١٢ م (٢٥).

تحول «مودود» لمهاجمة الصليبيين فى المنطقة المجاورة لبحيرة طبرية. فتجمعت قواته ومعه قوات «طغتكين» لشن الغارات فى هذه المنطقة. ونصبا

للسليبيين فجا عند الأقحوانة أو شبه الجزيرة التي يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك. ولم يدرك الصليبيون هذا الكمين ويعترف «فوشيه أوف شارتر» بذلك «وبينما كنا فى جهل عما يقصدون أرسل السلاجقة من يستدرج الصليبيين من مكمنهم وانقضوا عليهم معملين فيهم القتل والأسر وغرقت أعداد كبيرة منهم فى البحيرة بعد أن قطع الأتراك الجسر مما زاد من الخسائر التى لحقت بالصليبيين وقد أطلقت المصادر على هذه المعركة اسم الصنبرة أو سن النبرة التى وقعت فى ٢٨ يونيو ١١١٣م / ١١ محرم ٥٠٧هـ (٢٦).

وصلت الإمدادات الصليبية بقيادة «روجر» أمير أنطاكية وعندما أدركت التفوق العددي للسلاجقة لجأت إلى الجبل الموجود غربى طبرية للاحتماء به غير أن الماء لم يكن متوفراً فيه فكادت تقع فى خطأ آخر لولا أن السلاجقة أدركوا صعوبة القتال عند هذا الموقع الجغرافى فى الوقت الذى ظل فيه الصليبيون متحصنين فى الجبل. وعندما أدرك أهالى المنطقة ما حل بالصليبيين من هزيمة، تقدم أهالى عسقلان لمهاجمة حقول الصليبيين فأشعلوا النيران فى الحبوب التى كان المزارعون قد جمعوها (٢٧).

حشد «إيلغازى» صاحب ماردين قواته من أجل إنقاذ حلب التى تعرضت للخطر من جانب «روجر» حاكم أنطاكية والذى طلب أيضاً مساعدة «بلدوين» الثانى ملك بيت المقدس وبقيّة الصليبيين. ونزلوا بالقرب من الأثارب بموضع يقال له «تل عفرين» بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات. وظن الفرنج أن أحداً لا يسلك اليهم لضيق الطريق (٢٨) وعلم إيلغازى بقلّة قوات روجر والذى لم يدرك طبيعة المنطقة جغرافياً كما أنه استهان بقوة المسلمين معتقداً أنهم لن يصلوا إليه عبر هذه الطرق الضيقة. ودارت المعركة قريباً من ارتاح أو سرمداً وذلك فى ٢٨ يونيو ١١١٩م / ١٧ ربيع أول ٥١٣هـ. وبالإضافة إلى نجاح «إيلغازى» فى مباغتة الصليبيين عبر الطرق السالفة مستغلاً معرفته بطبوغرافيتها أشار «وليم الصورى» إلى عامل

آخر ساهم فى هزيمة الصليبيين هو هبوب رياح عنيفة أثناء المعركة أدت إلى تكوين سحباً من الغبار مما أدى إلى هزيمة الصليبيين وقتل «روجر» فى المعركة. (٢٩) ويبدو أن هذه الرياح كانت فى مواجهة الصليبيين مما أدى إلى عدم رؤيتهم فى ميدان القتال. وترتب على هذه المعركة نتيجة هامة هى نجاح المسلمين فى حماية حلب من الوقوع فى قبضة الصليبيين وظلت بمثابة الجبهة الأمامية ضد إمارتى الرها وأنطاكية.

ومن الطريف أن طبيعة الأرض بالقرب من سروج ساهمت فى وقوع «جوسلين دى كورتناى» أسيراً فى قبضة بلك غازى بن بهرام صاحب خربتريت فى ١٣ سبتمبر ١١٢٢م / ٩ رجب ٥١٦هـ. فقد تقدم الصليبيون لمهاجمة بلك. «ومن لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلا غاصت خيولهم فيه فلم تتمكن من ثقل السلاح والفرسان من الإسراع والجري» وعندئذ تم أسر جوسلين ونقل إلى الرها. وفى خلال أقل من عام استطاع بلك أيضاً أن يأسر الملك الصليبي «بلدوين» الثانى فى ١٨ أبريل ١١٢٣م / ١٧ صفر ٥١٧هـ. فقد أدرك بلك أن الملك الصليبي سوف يعبر نهر سنجة عبر القنطرة المقامة فوقه وذلك لاستحالة عبور المخاضات الموجودة فى هذا النهر وذلك لأن قراره رمل سيال وكلما وطأه الإنسان برجله سال به فغرقه. فكمن له «بلك» عند هذه القنطرة وتمكن من أسره (٣٠).

وعندما حاصر الصليبيون صور للمرة الثانية استخدموا عنصراً هاماً لمحاصرة المدينة. فقد أدركوا أنها ترتبط بالبر عن طريق برزخ ضيق وتأتى إليها مياه الشرب عبر قنوات ممتدة من البر إلى المدينة، كما أنه لا يوجد بئر للمياه بها. واستطاعوا إغلاق هذه القنوات فى محاولة لإجبارها على الاستسلام، ولكن سقوط الأمطار جعل السكان لا يشعرون بوطأة استخدام هذا السلاح ضدهم إلا بعد فترة. وأمام عنف الهجمات الصليبية عليها ووفاة «بلك»

الأرتقى اضطرت إلى التسليم في أوائل يوليو ١٢٤٠م / منتصف جمادى
أول ٥١٨هـ. بعد حصار دام أربعة أشهر ونصف (٣١). بلوغ فوجيه قائلنا بالله
وفي معركة أخرى حدثت عند عزاز بين «بلدوين» الثاني وجوسلين
دي كورتناي. بعد أن تم إطلاق سراحهما - وذلك في أواخر مايو وأوائل
يوليو ١٢٥٠م / جمادى أول ٥١٩هـ. هلكت أعداد كبيرة من الجالبيين بسبب
العطش والإنهاك. كما يقول فوشيه «كان يوماً قاتلاً وقد رادته شدة الجهد
قيظاً» (٣٢).

استغل «بلدوين» الثاني وفاة طغتكين «أتابك دمشق فأرسل إلى أوروبا
يطلب الإمدادات. وعندما وصلت هذه القوات خرج إلى بانياس في أكتوبر -
نوفمبر ١٢١٩م / ذي القعدة - ذي الحجة ٥٢٣هـ ومنها إلى دمشق حيث
أصبح على مسافة ستة أميال فقط إلى الجنوب الغربي منها. وعندما سلّم
تاج الملوك بوري بذلك أخرج بقواته لرد هذا الهجوم وبتلها كان الصليبيون
ينتظرون وصول بقية القوات، أرسل «بلدوين» جانباً من قواته لجلب المؤن
من حوران. وعندما علم بوري بذلك سارع فأرسل جانباً من قواته لمهاجمة
هذه القوات الصليبية. واستطاع أن يقدر وقت العودة (٣٣). ويتفق ابن الأثير
«وليم الصوري» في أن المطر لعب دوراً هاماً في هزيمة المعركة وما حل
بالصليبيين من هزيمة. وكان خروجهم في ليلة ثلثية كثيرة المطر ولقوا الفرج
من الغد فواقعوهم (٣٤). أما وليم الصوري فيشير إلى أن المطر لم يقتصر على
هذه الليلة فحسب، بل أيضاً خلال المعركة نفسها. «ولكن فجأة هبطت
عليهم عاصفة ممطرة وافقها ضباب شديدة إلى درجة أن المطر المتساقط جعل
الدروب غير سالكة، كما كانت العاصفة شديدة جداً إلى درجة تعذر فيها
النجاة من الموت. وكانت الغيوم الكثيفة والضباب والرياح المندفعة من جميع
الاتجاهات والبرق والرعد المستمران أعطيا إنذاراً بأن عاصفة ستحدث، وذلك
قبل حدوثها (٣٥). ولا شك أن وليم اعترف بغباء قومه في هذه الرواية فعلى

الرغم من حدوث الغيوم والبرق إلا أن الجيش سار فى طريقه مما أوقعه فى هذه الكارثة نتيجة جهله بهذه العوامل الجغرافية من ناحية أخرى.

استخدم التركمان أيضاً سلاح المياه أثناء حصارهم لقلعة بارين وذلك فى أكتوبر ١١٣٣م/ ذى الحجة ٥٢٧هـ وكاد يهلك بونز أمير طرابلس عندما منعوا الماء عنه ^(٣٦) ويعترف «وليم الصورى» مرة أخرى بمعرفة هؤلاء بالمنطقة «كان رجالها مطلعين على المنطقة ويعرفونها بشكل جيد» ^(٣٧).

استمرت محاولات عماد الدين زنكى من أجل توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين. وبينما كان يحاول ضم حمص فى نهاية يونيو ١١٣٧م/ رمضان ٥٣١هـ وردت إليه أنباء بشأن تقدم الصليبيين لمهاجمته. فقرر التوجه إلى حصن بارين. وتجمعت القوات الصليبية وعلى رأسها الملك فولك أوف أنجو. وبعد أن تركت هذه القوات الطريق السهل اتجهت إلى منطقة وعرة، وألقى وليم الصورى باللائمة على الأدلاء الذين «قادوا المسيحيين خلال منطقة ضيقة ومهجورة ولم يكن فيها أى مكان موائم للقتال حيث يتعذر المقاومة أو أية فرصة مواتية للهجوم». وسرعان ما أدرك زنكى الأفضلية التى يتمتع بها، فانقض عليهم ولم يعد لديهم أمل فى المقاومة «لوجودهم فى الشعاب الضيقة». واضطر الملك فولك بعد صعوبة بالغة أن يتجه إلى حصن بارين، وفى الوقت نفسه سارع بطلب المساعدة من بقية القوى الصليبية. غير أن زنكى نظراً لمعرفته جيداً بطبوغرافية المكان استطاع أن يمنع وصول أية أنباء للمحاصرين بداخله، كما منع أى شخص من الخروج. «فكان من به لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبطه للطرق وهيبته على جنوده» كما يذكر ابن الأثير ^(٣٨). وبعد أن يأس الملك من وصول أية أخبار، فى الوقت الذى علم فيه زنكى بقرب وصول إمدادات لهم، سارع بعقد صلح مع فولك سلم الأخير بمقتضاه الحصن. وما أن خرجوا حتى قابلتهم الإمدادات فى الطريق ووجهوا إليهم اللوم بسبب

تسرعهم فى الاستسلام «فحلفوا لهم أنا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن فلم غميت الأخبار ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دمانا بتسلم الحصن» (٣٩).

أما الملك بلدوين الثالث فقد نسى تحالفه مع دمشق وخرج على رأس حملة صليبية للاستيلاء على صرخد وبصرى بعد أن قدم التوتاش عارضاً عليهم ذلك مقابل أن يساعده على الاستقلال بحوران. وأخطأ الصليبيون فى حساباتهم فقد كانت العلاقة بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر قوية فى هذه المرحلة. وسارع أنر فى طلب المساعدة من نور الدين الذى لم يتوان عن ذلك. وأسرع متجهاً إلى بصرى قبل أن يصل إليها الجيش الصليبي والذى وقع أيضاً فى خطأ آخر تمثل فى اختيار وقت الحملة. فقد خرج الصليبيون فى أواخر مايو ١١٤٧م / أواخر ذى الحجة ٥٤١هـ حيث كانت الحرارة قد بدأت تشتد، وزاد نور الدين من معاناتهم بإفساد الآبار الواقعة على الطريق. وزاد الأمر صعوبة أيضاً - كما ذكر وليم الصورى - أن المنطقة كانت قد تعرضت لهجوم الجراد وفسدت مياه الينابيع والبرك نتيجة لموت كثير من الحشرات بها. وعندما وصلت هذه القوات وجدت أن نور الدين تمكن من الاستيلاء على بصرى وصرخد فقرر الصليبيون الانسحاب عائدين إلى بلادهم. وازدادت متاعبهم عندما استخدم المسلمون سلاحاً جغرافياً آخر. فقد كانت الأعشاب جافة فى ذلك الوقت وهبت الرياح فأشعل السلاجقة النيران فى الأعشاب التى تحولت باتجاه الصليبيين وزادت الحرارة الصادرة من ألسنة النيران مضافة إلى حرارة فصل الصيف والعطش الشديد من معاناتهم إلى حد يفوق الاحتمال» (٤٠) وبذلك يلخص وليم الصورى هذه العوامل الجغرافية التى تسببت فى هزيمة الصليبيين. أما ابن القلانسي فيوردها بشكل آخر فيقول «ملكوا عليهم المشرب... وأكثروا فيهم القتل والجراح وإضرار النيران فى هشيم النبات فى طرقهم ومسالكهم» (٤١).

وهكذا فإن هذه الحملة لم تحقق أى نجاح، إضافة إلى أنها أفستت العلاقة مع الحليف الوحيد للصليبيين - معين الدين أتر - ودلت على حماقتهم فى أمورهم السياسية وخططهم العسكرية. فى الوقت نفسه أوضحت نجاح نور الدين فى استغلال العوامل الجغرافية فى خطته العسكرية.

عقب سقوط الرها فى قبضة المسلمين اختل ميزان القوى فى شمال بلاد الشام وأسرع الصليبيون للإعداد لحملة جديدة هدفت إلى محاولة الاستيلاء على الرها مرة ثانية. ويبدو أن الصليبيين نسوا ما حدث لصليبية عام ١١٠١م/٤٩٤هـ فى آسيا الصغرى. فتقدم كونراد ومعه حملة ألمانية عبر آسيا الصغرى. ولم يأخذ بنصيحة الإمبراطور البيزنطى مانويل بأن يسلك الطريق الساحلى - على الرغم من طوله - إلا أنه أمن من الطريق الآخر الذى يمر فى وسط آسيا وغير صالح من الناحية العسكرية لاعتبارات كثيرة، بالإضافة إلى سيطرة السلاجقة عليه. وتقدم كونراد وسرعان ما اكتشف خطأه. فقد عانت قواته من نقص المؤن ثم العطش الشديد. وما أن وصلت إلى نهر باتيس قرب ضوريلىوم أسرعت هذه القوات لكى تروى ظمأها ولكنها وجدت المفاجأة عندما انقض عليهم السلاجقة وأعملوا فيهم القتل وراح تسعة أعشار الجيش الألمانى فى هذه المعركة فى ٢٥ أكتوبر ١١٤٧م/ ٢٨ جماد أول ٥٤٣هـ. وكانت هذه الهزيمة بسبب تسرع الألمان فى سلك ذلك الطريق وجهلهم بجغرافية المكان، وإن كان كثيراً من المؤرخين يلقون باللائمة فى ذلك على البيزنطيين^(٤٢).

أما القسم الثانى من هذه الحملة بقيادة لويس السابع ملك فرنسا، فعلى الرغم من أن تدارك خطأ الألمان السابق بالنسبة للطريق، إلا أنه وقع فى خطأ جغرافى آخر تمثل فى تقدم هذه القوات خلال شهر ديسمبر ١١٤٧م حيث كان فصل الشتاء وتساقطت الثلوج فوق المرتفعات مما أدى إلى بطء

تقدم هذه القوات - كما أنها عانت من قلة المؤن لأن الوقت لم يكن زمن حصار (٤٣).

وعندما وصل قادة هذه الحملة إلى عكا تم اتخاذ أغرب قرار ألا وهو مهاجمة دمشق خليفهم الوحيد. وكانت المصالح الشخصية وراء اتخاذ ذلك القرار. ويلقى المؤرخون المحدثون بتبعية هذه الحملة على «كونراد» الثالث و«بلدوين» الثالث. وأثبتا عدم درايتهما بالنواحي الجغرافية. فبعد أن تقدمت الحملة لحصار دمشق من الجهة الغربية والتي كان بإمكانهم الاستمرار في هذه المنطقة نظراً لتوفر المياه والمؤن بها، إلا أنه تم اتخاذ قرار أثبت الجهل التام عندما تحولت هذه القوات إلى الجهة الشرقية. وسواء أكان «كونراد» أو «بلدوين» المسئول عن ذلك فقد أدرك الصليبيون الخطأ الذي وقعوا فيه فلم يكن هناك مياه متوافرة في هذا الموقع الجديد، وأخذت المؤن في النفاد. ويضاف إلى ذلك عامل جغرافي آخر هام هو عدم ملائمة المناخ في هذا الوقت بالنسبة للصليبيين بصفة عامة، ولأولئك القادمين الجدد بصفة خاصة فقد كان ذلك في ٢٦ يوليو ١١٤٨م / ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ. وفي نفس الوقت فإن الدمشقيين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم واستخدم معهم «أنر» سلاح التهريب والترغيب. فقد لوح لهم بأنه سوف يسلم المدينة إلى نور الدين - وهذا كان أشد ما يخشاه الصليبيون - إذا لم تنسحب الحملة كما وعدهم بإعطائهم بانياس. وأخيراً قررت الحملة الانسحاب وكان ذلك من أكبر الأسباب التي أدت إلى زوال هيبتهم وانتعاش آمال العالم الإسلامي بعد أن تمكن من التغلب على هذه الحملة الفاشلة.

وبالإضافة إلى العوامل الجغرافية السابقة والتي أدت إلى فشل الحملة فقد أشار سبط ابن الجوزي إلى عامل آخر فقد «كان زمان الفواكه، فنزل الفرغج بالوادي، فأكلوا منها شيئاً كثيراً فأخلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون» (٤٤) ولا نستبعد حدوث ذلك خاصة مع أولئك

القادمين الجدد الذين لم يعتادوا مناخ هذه المنطقة. كذلك فقد استخدم «أنر» هذه العوامل لصالحه فى مقاومة الحملة - فقد قطع مجارى المياه إلى منازلهم وطمى الآبار^(٤٥).

استطاع نور الدين أن يستغل طبيعة بلاد الشام الجغرافية مرة أخرى. ففي معركة أنب التي وقعت فى ٢٩ يونيو ١١٤٩م / ٢١ صفر ٥٤٤هـ واجه نور الدين «ريموند بواتييه» أمير أنطاكية. وقبل أن يدخل معه فى قتال، حرص نور الدين على أن يتبين قوة خصمه فوصلت إليه تقارير متوالية عن هذه القوات وعما إذا كان هناك قوات احتياطية أخرى معه. ولاشك أن ذلك لم يكن ليتم إلا إذا علم بدروب وطرق المنطقة. واندفع «ريموند» معتقداً أنه بإمكانه تحقيق نصراً سهلاً. غير أنه فوجئ فى صباح المعركة بأن قوات نور الدين قد أحاطت به. وعبثاً حاول اقتحام الحصار. غير أن طبيعة أرض المعركة لم تكن فى صالحه. وبينما كان الفرسان يحثون جيادهم على ارتقاء المنحدر، إذ بالرياح تهب فى وجوههم فأثارت التراب وأعمتهم. وسرعان ما تساقط هؤلاء الفرسان صرعى وعلى رأسهم «ريموند»^(٤٦). وأدرك ابن القلانسي استخدام نور الدين لهذه العوامل الجغرافية فأشار إلى معرفته بالموقع الجغرافى للمعركة «وتفرق المسلمون عليهم من عدة جهات ثم أطبقوا عليهم»^(٤٧).

وتشير المصادر العربية إلى غارة قام بها الصليبيون بالقرب من بعلبك فى منتصف ديسمبر ١١٥١م / أوائل رمضان ٥٤٦هـ، واستولوا على كثير من الغنائم وأسروا البعض. وعندما علم أيوب بن شادى - والد صلاح الدين - والى بعلبك بذلك أرسل خلفهم من يتعقبهم وفشلت هذه الغارة بسبب سقوط الثلوج على الصليبيين أثناء عودتهم. «وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتدركة ما أبطأهم عن الوصول إلى بلادهم». وهذا دليل آخر على جهلهم بالمناخ فى هذه المنطقة مما أوقعهم فى قبضة المسلمين^(٤٨).

أثبت الإمبراطور البيزنطى جهله أيضاً بجغرافية بلاد الشام وذلك عندما اشترى بقايا إمارة الرها فى عام ١١٥٠م / ٥٤٥هـ. فقد كانت تقع وسط أملاك المسلمين وبعيدة عن مركز الإمبراطورية ومن ثم لم يتوفر لها الحماية. وبالفعل لم يمض أقل من عام حتى تقاسمها نور الدين محمود والسلطان مسعود السلجوقى^(٤٩). كما أن العامل البشرى ساهم فى فشل هذه الصفقة. فقد فضل سكانها من النصارى الحكم الإسلامى خاصة وأنهم جربا الحكم البيزنطى واللاتينى، مما يدل على سماحة الإسلام^(٥٠).

كان ضم نور الدين لدمشق خطوة كبرى فى سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، وعندما هاجم بلدوين جماعة من الرعاة المسلمين فى فبراير ١١٥٧م / محرم ٥٥١هـ خرج نور الدين لمحاصرة بانياس فى مايو ١١٥٧م / ربيع أول ٥٥١هـ. ثم عاد نور الدين وانسحب منها فاستولى عليها بلدوين الثالث مرة ثانية. وفى أثناء عودته أدرك نور الدين أنه سوف يتجه إلى مخاضة يعقوب - الواقعة على نهر الأردن^(٥١). وسارع نور الدين باستغلال طبيعة هذا المكان الجغرافى فكمّن بقواته دون أن يشعر الصليبيون بذلك. وترك وليم الصورى يصف ما حدث:

«استأنف الجيش المسيحى سيره... وكل من فيه غير عالم بالكمين الذى نصب أثناء الليل، وجاهل أيضاً بخطط أعدائه. وتوجه إلى الموقع الذى كان الأتراك قد سيطروا عليه خلصة... عندما انطلق فجأة الذين كانوا قد كمنوا هناك من أجل مباغة المسيحيين الغافلين من مكانهم^(٥٢)».

وهكذا نجح نور الدين لمعرفة الجغرافية بهذا الموقع أن يدبر هذا الكمين الناجح للصليبيين منزلاً هزيمة ساحقة بهم.

باستيلاء الصليبيين على عسقلان فى عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، وتولى عمورى حكم بيت المقدس اختلفت استراتيجية الصليبيين فى هذه المرحلة.

فمن ناحية حدودهم مع مصر لم تعد الصحراء هي الحد الطبيعي بالنسبة لهم، أما في هذه المرحلة فقد أصبحت مصر هي هدفهم خاصة بعد توقف حملاتهم تجاه الشمال بسبب ازدياد قوة نور الدين محمود، وكذلك ضعف الخلافة الفاطمية في مصر. وفي عام ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ توجه عمورى إلى مصر محاولا مهاجمتها. ووصل عمورى إلى الفرما حيث حاصرها ولكن ضرغام استغل فيضان النيل فقام بفتح الجسور مما أحال المنطقة إلى أحوال أعاق الصليبيين من التقدم وأجبرتهم على العودة إلى بيت المقدس^(٥٣).

وفي أثناء الصراع على السلطة بين شاور وضرغام، لجأ الأول إلى نور الدين محمود طالباً منه المساعدة. وبعد أن استخار الله عز وجل، أرسل أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين ومن هنا بدأ السباق بين نور الدين والصليبيين من أجل امتلاك مصر. وكانت النتيجة المباشرة له هو إيجاد شكل جغرافى - سياسى جديد^(٥٤). كذلك فإن هذه المعارك لم تخل من استخدام العناصر الجغرافية. ففي معركة البابين أو المنيا التى وقعت فى ١٨ مارس ١١٦٧م/ ٢٥ جمادى أول ٥٦٢هـ نجح أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى استغلال طبيعة هذه المنطق من الناحية الجغرافية فى رسم خطة المعركة. فتمكن من السيطرة على الهضاب الواقعة على اليمين واليسار، كما أن الأرض الصاعدة والطبيعة اللينة للرمال جعل من الصعب على الصليبيين وشاور الذى تحالف معهم هذه المرة أن يقتربوا من جيش أسد الدين الذى استطاع أن ينزل بهم الهزيمة ويأسر عدداً من قادتهم^(٥٥).

أثار وصول قوات نور الدين إلى مصر مخاوف الصليبيين وكذلك البيزنطيين. فتم تجديد الاتفاق السابق بينهما بشأن اقتسام مصر فى حالة الاستيلاء عليها. فخرجت حملة مشتركة. وعلى الرغم من أن الأسطول البيزنطى خرج من مياه الدردنيل فى ١٥ يوليو ١١٦٩م/ ١٢ رمضان ٥٦٤هـ إلا أنه لم يصل قبالة دمياط إلا فى أول صفر ٥٦٥هـ/ ٢٥ أكتوبر

١٢٦٩م. وهكذا فإن هذا التأخير جعل الحملة تضع نهايتها الفاشلة بنفسها.

واتخذت القوات البرية طريقها متجهة إلى دمياط حيث عسكرت فى منطقة لا يتعد طولها ميل بحيث حشرت نفسها فى هذا الموقع الذى جعلها صيداً سهلاً لقتائف المسلمين أما من ناحية العوامل الجغرافية فقد جاء توقيتها فى فصل الشتاء. وبالفعل هطلت الأمطار فأحالت المعسكر الصليبي إلى أوحال مما أثر على الكفاءة القتالية لهم حيث اضطرت إلى حفر الخنادق حول خيامهم وعزلها عن بعضها البعض.

أما العامل البشرى فى هذه الحملة فقد كان له دور هام، فقد بذل أهل دمياط كل ما فى وسعهم من أجل مقاومة الحملة. فيقول وليم الصورى أن المدافعين ردوا كل المحاولات الهجومية حتى أنهم «اخترعوا خططاً لم يفكر بها أحد حتى الآن»^(٥٦). فقد كان الأسطول البيزنطى راسياً عند مدخل فرع دمياط ولم يستطع أن يصل إلى المدينة بسبب وجود السلسلة^(٥٧). وانتهاز الأهالى فرصة عدم وجود البحارة البيزنطيين فى سفنهم فأحضروا قارباً من الحجم العادى وملأوه بالخشب الجاف والقطران وجميع المواد القابلة للاشتعال وأضرموا فيه النيران ودفعوه نحو السفن البيزنطية الراسية حيث اصطدم بها وأحرق ستاً من سفن الأسطول البيزنطى. وقد استغل الأهالى ظاهرة جغرافية هامة وهى جريان النيل من الجنوب إلى الشمال، وربما وجدت رياح جنوبية ساعدت القارب على سرعة وصوله إلى السفن البيزنطية شمال دمياط. ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ بعد فشل الحملة حلت الكارثة ببقية هذا الأسطول عندما أبحر فى وقت غير مناسب إذ هبت عاصفة عنيفة أتت على عدد كبير من سفنه وغرق الكثيرون من بحارته ولم ينج منهم إلا عدد صغير عادوا إلى البسفور فى أوائل العام التالى^(٥٨).

وثمة عامل جغرافى آخر ترك أثره المباشر على الصراع بين الجانبين ألا

وهو الزلازل فقد شهدت بلاد الشام سلسلة منها تركت أثرها المدمر على العديد من المدن والقلاع، سواء الواقعة في حوزة المسلمين أو الصليبيين^(٥٩). وكان أسوأها ما حدث في عامي ١١٥٦م/٥٥٢هـ، ١١٧٠م/٥٦٥هـ. ففي الزلزلة الأولى توقفت الحرب مؤقتاً بين الجانبين لانشغالهما بإصلاح ما أحدثته من دمار وخراب في أسوار هذه المدن والقلاع، غير أن نور الدين حرص أيضاً على حماية هذه القلاع حتى لا يستغل الصليبيون ذلك الدمار فأشار ابن الأثير إلى أنه «جمع عساكره وأقام بأطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد»^(٦٠). ويؤكد أبو شامة ذلك بقوله «وتهدمت الأسوار والدور والقلاع ولولا أن الله من على المسلمين بنور الدين الذي جمع وحفظ البلاد وإلا لكان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال»^(٦١).

وفي عام ١١٧٠م/٥٦٥هـ حدثت سلسلة أخرى من الزلازل شملت العديد من مدن الشام وقلاعه. ويذكر وليم الصوري أنه على الرغم من تهدم بعض القلاع وأن البعض الآخر أصبح مفتوحاً من جميع الجهات فإن كلا منهما انشغل بمشاغله الخاصة ولهذا لم يفكر في إيذاء جاره^(٦٢). أما المصادر العربية فتشير أيضاً إلى أن نور الدين محمود كان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج. وتهدمت قلعة بارين بصفة خاصة ولم يبق من سورها شيء البتة فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير ووكل العمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً. كما أن حلب كانت مركزاً لهذه الزلزلة حتى أن المؤرخين أطلقوا عليها زلزلة حلب^(٦٣). وبالفعل توقفت الأعمال العسكرية بينهما فترة.

عقب نجاح صلاح الدين في تثبيت أقدامه في مصر بدأ يعد استراتيجية على أساس جغرافي. فقد جرت محاولات للاستيلاء على مصر، بالإضافة إلى سيطرة الصليبيين على قلعة أيلة الواقعة على خليج العقبة،

وكذلك قلعة الداروم جنوبى غزة مما أدى إلى سيطرتهم على الطريق المؤدى إلى سيناء . هذا بخلاف سلسلة القلاع التى هدفت للسيطرة على الطريق ما بين مصر والشام والذى يتفرع جزء منه إلى الحجاز (٦٤) . وأدرك صلاح الدين كل هذه الحقائق الجغرافية عندما بدأ بمهاجمة قلعة الداروم فى ١١٧٠م / ٥٦٥هـ، ثم حاول أن يهاجم غزة نفسها ثم انسحب بعد ذلك عائداً إلى مصر . وفى ديسمبر ١١٧٠م / ربيع آخر ٥٦٦هـ هاجم أيلة وتمكن من استردادها (٦٥) . وهنا أدرك الصليبيون أن استراتيجيتهم القائمة على أن تكون الصحراء حداً طبيعياً لحدودهم باءت بالفشل ، ومن ثم بدأت محاولات للاستيلاء على مصر مرة ثانية وذلك عن طريق التحالف الصليبي البيزنطى (٦٦) . كما اعتمدت هجمات صلاح الدين على شن حرب اقتصادية ضد الصليبيين خاصة فى زمن الحصار (٦٧) .

فى حوالى سبتمبر ١١٧٧م / ربيع أول ٥٧٣هـ وصلت سفارة بيزنطية إلى بيت المقدس تعرض على ملكها بلدوين الرابع القيام بحملة مشتركة لغزو مصر فى الوقت نفسه كان فيليب الإلزاسى كونت فلاندرز قد وصل أيضاً إلى بيت المقدس (٦٨) وعرض عليه بلدوين الرابع قيادة هذه الحملة المشتركة ضد مصر بعد أن يتم تعيينه وصياً على المملكة . وعرضت عليه المعاهدة التى تم الاتفاق عليها بين الجانبين البيزنطى والصليبي إلا أنه بعد دراسته لها دراسة دقيقة رفض القيام بالحملة وذلك لبعدها، كما أنه غير مطلع على أحوال المنطقة بأكملها، كما أن الأنهار فيها تفيض فى مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل كما أنه سمع من الذين زاروا مصر أن الموسم الحالى لم يكن مواتياً للغزو . فقد بات الشتاء على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل . كما أنه سمع بأن الأتراك اندفعوا إلى مصر بأعداد ضخمة، كما خشى حدوث مجاعة عندما يتقدم الجيش إلى مصر (٦٩) .

ويلقى البعض باللائمة على فيليب في أنه اختلق الأعذار لعدم الخروج بالحملة إلى مصر. وفي الحقيقة فإن رواية وليم الصوري واضحة في أن المعلومات نقلت إلى فيليب، فهو قادم من الغرب الأوروبي ومن ثم لم تتوفر له هذه المعلومات. ويتضح في موضع آخر من الرواية أن أميرى أنطاكية وطرابلس هما اللذان نقلتا إليه هذه المعلومات وذلك بغية الاستفادة من الحملة لصالحهما (٧٠). ومن ناحية أخرى، فإننا إذا أمعنا النظر في هذه الأسباب لعدم القيام بالحملة - والتي تشكل العوامل الجغرافية جانباً كبيراً منها أسباب صحيحة ومقنعة. فمن ناحية فصل الشتاء وعدم ملائمته للقتال فوق أراضي الدلتا، وكذلك موسم الفيضان، فإنهما صائبان في ذلك والدليل على ذلك هو ما حدث في الحملة الصليبية البيزنطية في عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ.

وثمة عامل آخر هو أن الأتراك قد اتجهوا بأعداد كبيرة إلى مصر. وهي أيضاً رواية صحيحة وذلك من واقع المصادر العربية. فقد أشار العماد الأصفهاني إلى أن صلاح الدين أرسل العساكر التي طال مكوثها للجهاد في بلاد الشام - أرسلها إلى مصر. فقد كانت بلاد الشام تعاني آنذاك من جفاف فرغب في التخفيف عنها بذلك. «ورأينا المصلحة في مسيره لمنافع كثيرة وفوائد أثيرة منها التخفيف عن الشام في مثل هذا العام» (٧١).

اتجه فيليب بحملته لمهاجمة حارم - بعد فشله في الهجوم على حمص وحماة - وبالإضافة إلى استغلال الصليبيين لوجود صلاح الدين في مصر آنذاك، فإنهم حاولوا استغلال عامل جغرافي هام في ذلك الوقت. فقد كانت بلاد الشام تعاني من الجذب الشديد مما اضطر صلاح الدين إلى إرسال جانباً من قواته إلى مصر لأن الشام لم يكن يحتمل حشد العساكر الكثيفة. ويشير أبو شامة إلى ذلك بقوله «خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكماً غادرين غدرًا صريحاً مقدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجذب جريحا» (٧٢).

أما وقعة الرملة التي وصفها المؤرخون بأنها «كانت يومًا عظيمًا على الإسلام لم يجبره إلا وقعة حطين» فقد حدثت في ٢٩ جمادى الأولى ٥٧٣هـ/ ٢٤ نوفمبر ١١٧٧م^(٧٣) وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين القدامى في تفسير سبب الهزيمة إلا أنها تدور جميعها حول العوامل الجغرافية. فقد أشار العماد الأصفهاني إلى حرص صلاح الدين على استصحاب الأدلاء معه عند خروجه من مصر. وفي يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة/ ٢٥ نوفمبر اعترضه نهر عليه تل الصافية^(٧٤). فازدحمت العساكر للعبور ولم يشعروا إلا بالعدو يهاجمهم وهكذا حلت الهزيمة بالمسلمين بسبب هذا العائق الطبيعي ألا وهو النهر^(٧٥). أما أبو شامة فيورد نفس الرواية ويضيف عليها أخرى نقلًا عن ابن شداد حيث أشار إلى أن المسلمين رغبوا في تعديل تشكيل القوات ليكون حال لقاء العدو تل معروف بأرض الرملة، وبينما هم كذلك إذ فاجأهم العدو «فانكسروا كسرة عظيمة»^(٧٦) أما وليم الصوري فقد أشار إلى أن سبب الهزيمة هو سقوط الأمطار الغزيرة فجأة ولمدة عشرة أيام متتالية، مما أدى إلى فقد قوات صلاح الدين لخيولهم. ثم وقعوا أسرى لجهلهم بالمنطقة وعدم وجود الأدلاء معهم^(٧٧). وتجدد الإشارة إلى أن وليم هو الذي انفرد بذكر سقوط الأمطار وهو احتمال قائم لأن المعركة حدثت في شهر نوفمبر - ويتفق في باقي روايته مع المصادر العربية من فقدان الأدلاء وأن عددًا كبيرًا من المسلمين قد ضل الطريق ودخل إلى المناطق الصليبية معتقداً أنه في الأراضي الإسلامية^(٧٨).

وفي مايو ١١٨٠م/ ذى الحجة ٥٧٥هـ عرض بلدوين الرابع عقد هدنة مع صلاح الدين وقبل صلاح الدين هذا العرض حيث كان بحاجة إلى فترة من الراحة ولكي يستكمل جهوده في شمال الشام والعراق^(٧٩). غير أن هناك عاملاً جغرافياً هاماً أدى إلى قبوله هذه الهدنة. فقد عانت بلاد

الشام - خاصة الجزء الداخلى منها أى الواقع تحت سيطرته - من الجفاف ويصف لنا العماد الأصفهاني ذلك بقوله «حتى دخل الشتاء وترادفت الأنواء وتضاعفت الأنداء ونحن مقيمون صابرون مصابرون، ما نؤثر قتالا بل ننتظر لتلك العقد انحلالاً»^(٨٠).

وعقب استكمال صلاح الدين جهوده فى توحيد الجبهة الإسلامية، بدأ مرحلة جديدة اعتمدت على شن حرب اقتصادية ضد الصليبيين. وعندما هاجم قلعة كوكب المشرفة على الطريق المودى إلى الناصرة حدثت معركة فى ربيع أول ٥٧٨هـ / يوليو ١١٨٢م وتأثر الجانبان نتيجة الحرارة الشديدة - وكما يذكر وليم الصورى «فقد كانت الحرارة خلال تلك الأيام أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة إصابتهم بضربة شمس وكانوا يقدر من هلك قتلا بالسيوف»^(٨١). ويعترف أبو شامة أيضاً بأثر الحرارة فى هذه المعركة بقوله «وكان قائم الظهيرة فى الغور قد منع من استتمام عودة المغار»^(٨٢) ويتضح من الروايتين أن الحرارة تركت تأثيرها فى هذه المعركة، وربما كان تأثيرها أكثر على الصليبيين نظراً لأن تكتيكاتهم القتالية كانت تعتمد على تغطية أنفسهم وخيولهم بدروع واقية مما كان يزيد من شعورهم بالحرارة بالإضافة إلى العطش الذى يؤدى إلى انهك قواهم بسرعة.

كذلك حاول بلدوين الرابع القيام بالهجوم على بصرى فى سبتمبر ١١٨٢م / جمادى أول ٥٧٨هـ / وواجهته صعوبات كثيرة بسبب قلة المياه فى هذه المنطقة. كما أن الأهالى حطموا صهاريج المياه وأفسدوها بإلقاء القاذورات فيها حتى يجبروا الصليبيين على الرحيل^(٨٣).

بعد هذه المعركة بعدة سنوات وبالتحديد فى يوليو ١١٨٧م / ربيع آخر ٥٨٣هـ استطاع صلاح الدين أن يضع إصبعه فوق حلق الشرق اللاتينى^(٨٤). واستدرج الصليبيين لمعركة فاصلة عند حطين. ولن ندخل فى

تفاصيل هذه المعركة والتي تناولتها كثير من الأبحاث بالدراسة والتحليل، وإنما سوف نتناولها من زاوية أخرى. ونستطيع القول أن صلاح الدين بعد اعتماده على الله عز وجل تمكن من أن يستغل جميع العوامل الجغرافية التي توفرت له في هذا اللقاء المصيري. فقد تمكن من استدراج الصليبيين للمعركة في شهر يوليو حيث تشتد الحرارة وفي هذه المنطقة الداخلية من بلاد الشام بل إنه في صباح يوم المعركة لم يبدأ القتال إلا بعد أن اشتدت الشمس وذلك في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت وكانت الشمس في مواجهة الصليبيين مما زاد من صعوبة الموقف^(٨٥).

وطبقاً لتكتيكاتهم العسكرية فقد كانوا يغطون أنفسهم بدروع واقية فزاد هذا الأمر من شعورهم بحرارة الجو، بالإضافة إلى تلك المسافة الطويلة التي كانوا قد قطعوها للوصول إلى ميدان القتال. ثم جاء إشعال المسلمين للنيران في الحشائش الجافة مستغلين هبوب الرياح التي كانت باتجاه المعسكر الصليبي ليزداد الأمر صعوبة^(٨٦). «فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار وحر القتال»^(٨٧).

أما السلاح الثاني فقد كان المياه. وعندما علم صلاح الدين بتقدمهم إلى الموقع الذي حدده سارع بوضع قواته ليحجز بينهم وبين الماء، في الوقت نفسه عمل صلاح الدين على أن يؤمن المياه للمسلمين. كذلك قام بإفساد المياه الموجودة في الصحاريج التي كانت في طريق الصليبيين. وتقدمت القوات الصليبية حيث عسكرت بالقرب من موقع اعتقد ريموند الثالث خطأ بأن البئر الموجود في المنطقة به ماء وسرعان ما اتضح لهم خطأ ذلك. فبات هم الصليبيون هو الوصول إلى نقطة ماء واندفعوا في محاولة يائسة لاختراق صفوف الحصار التي ضربها صلاح الدين حولهم. ولكن ذلك كان ضرباً من الخيال فلم يعد حتى بإمكان أحد ولو كان قطرة أن يخرج من هذا الحصار. فانهارت القوات الصليبية وهي ترى مياه بحيرة طبرية على مسافة منها وتساقطت صرعى القتال والحرارة والعطش^(٨٨).

وبالإضافة إلى ما سبق فقد تمكن صلاح الدين أن يستغل طبيعة الموقع الجغرافي استغلالاً تاماً في هذه المعركة. فتمكن من استدراجهم إلى قرون حطين وعلم بتحركاتهم فسارع إلى الموقع ووزع قواته بحيث حاصرت الصليبيين من جميع الجهات. وأدرك ريموند الفخ الذي نصبه له صلاح الدين وعندما أدرك ذلك بخبرته العسكرية صاح قائلاً «يا الله لقد انتهت الحرب، لقد هلكنا، لقد زالت المملكة»^(٨٩). وكان الموقع أيضاً دافعاً للمسلمين على القتال - وكما يشير ابن شداد «وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى»^(٩٠).

وفي النهاية لا بد أن نشير إلى عامل حسم هذه المعركة لصالح المسلمين هو العامل الديني. فقد كان القائد يدافع عن الإسلام، بينما بقية المعسكر الإسلامي يرتل الآيات القرآنية ويسمع التهليل والتكبير طيلة ليلة اللقاء، فزلزل ذلك الأرض من تحت أقدام الصليبيين فزاغت أبصارهم وبلغت القلوب الحناجر وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين. وتم نصره لعباده المؤمنين «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» الروم: ٤٧ جزء من الآية.

اعتقد الصليبيون أن هدف صلاح الدين في المرحلة التالية هو بيت المقدس. غير أنه كان مدركاً لأهمية المدن الساحلية والتي كانت تغذى هذه المملكة الصليبية بالدماء الجديدة فتوجه لاسترداد هذه المدن باستثناء صور التي عصت عليه فتركها لكي يعاود مهاجمتها مرة أخرى، ثم استرد بيت المقدس فأدى ذلك إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة والتي انتهت بالفشل في الاستيلاء على بيت المقدس، وإن كان تمخض عنها تكوين مملكة جديدة اقتصررت على الساحل وأصبحت عكا حاضرة لها. ومن هنا أصبح على الصليبيين إعادة حساباتهم في ضوء هذا المفهوم الجغرافي الجديد وهو ما يحتاج لدراسة مستقلة بمشيئة الله تعالى.

الهوامش

(١) للمزيد عن جغرافية بلاد الشام انظر: محمد سطيحة، الجغرافيا الإقليمية: دراسة لمناطق العالم الكبرى، بيروت ١٩٧٤، ص ٤١٦ وما بعدها؛ يسرى الجوهري ومحمد خميس الزوكة، دراسات في جغرافية العالم الإسلامي، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٠٨، ١١٧، ١٣٠؛ فتحي أبو عيانة، دراسات في جغرافية دولة الإسلام من العصر النبوي حتى منتصف القرن الثالث الهجري، (تحت الطبع) الإسكندرية، ص ١٠٠-١٠٢. وتجدر الإشارة إلى أن جبال بلاد الشام تركت آثاراً على المياه بها، مثل تسربها إلى باطنها لمسافات طويلة وتظهر على شكل ينابيع أو تسحب إلى السطح من الآبار. وقد اجتذبت المياه في بلاد الشام نظر الرحالة والجغرافيين. انظر: محمد حسين العطار الدمشقي، علم المياه الجارية في مدينة دمشق، ضبط وتحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق ١٩٨٤؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوريتا كرافرسكي، بيروت ١٩٨٦.

(٢) يورد المؤلف المجهول وتديوده وصفاً رائعاً لما حلّ بالحملة الشعبية في آسيا الصغرى ومدى المعاناة بسبب العطش، انظر:

Gesta Francorum Hierosolimitanum, ed. by Rosalind Hill, London 1933, p. 24-5; P. Tudbode, Historia, Philadelphia, 1974, pp. 19-20.

(٣) William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, Trans. and annotated by E.A. Babcock and A.C. Kary, 2vols., New York, 1943, i, xvi, 173-4; Gesta Francorum, p. 28.

وكذلك سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي، ٢ جـ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٦٦؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحملة الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ٢٣٥. وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين حملوا معهم كميات من المياه أثناء عبورهم بعض المناطق الجافة، وعلى الرغم من ذلك فقد أصابهم العطش والإجهاد نتيجة للحرارة الشديدة.

(٤) يشير وليم الصوري أيضًا إلى أن الوباء انتشر في المعسكر الصليبي بسبب الأمطار التي سقطت. انظر:

William of Tyre, op.cit., i. xxii, p. 182.

(٥) Fulcher of Chartres, A History of the Expeditions to Jerusalem (1095-1127) trans. by Frances Rita Ryan, ed. with an introduction by H.S. Fink, Knouville, 1969, xv, p. 92.

(٦) ريموند داجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٤٥؛ وأيضًا، محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٣٩.

(٧) وقع الصليبيون في خطأ آخر عندما أجلوا المسير بعد شهر نوفمبر. كما أن الجيش لم يتحرك قسم منه إلا في ١٢ يناير ١٠٩٩م، أما بقيته فقد تحركت في فبراير ١٠٩٩م. وقد أدى ذلك إلى وصولهم أمام بيت المقدس في فصل الصيف. وفي خلال الفترة التي أمضوها بعد الاستيلاء على أنطاكية شنوا حملات على البارة ومعرة النعمان ومنعوا الناس من الماء وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش». انظر: ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق سامي الدهان، دمشق، ٣ ج، ١٩٥١-١٩٦٧، ص ٥٠٥-٥٠٦، وكذلك:

J. France, The Crisis of the First Crusade ; From the Defeat of Kerbogah to the Departure from Arqa, Byzantion, t. xi, 1970, pp. 298-299.

Fulcher of Chartres, op.cit., xxvii, p. 119; William of Tyre, op.cit., I, vii, pp. (٨) 352-53.

(٩) ريموند أجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

William of Tyre , op.cit., I, viii, p. 354-55. (١٠)

(١١) ريموند داجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٤، وكذلك:

J. Prawer, the Jerusalem the Crusaders Captured; a cantribution to the Medieval Toporgraphy o the city, in : Crusade and Settlement, ed. by P.W. Edbu-ry, Cardiff 1985, pp. 7-17.

William of Tyre, op.cit., I, p. 423.

(١٢)

(١٣) أشار ألبرت إلى هذه المحاولة دون أن يحدد العام الذى حدثت فيه . وربما كانت فى عام ١١٠٠م/٤٩٣هـ وذلك لأن هذه المدن سارعت بعقد اتفاق معه بعد أن علمت بسياسته العدوانية. انظر:

Albert d'Aix, Historia Hierosclymitana, ed., RHC.H. Oc. t. , Paris 1879, pp. 511, 541; cf. also; Röhricht, Regesta Regni Hierosolymitani, 2 vols. Insbruck, 1893-1904, doc. 48.

(١٤) عن هذه الحملات فى آسيا الصغرى انظر:

The Alexiad of Anna Comnena , Trans. from the Greek by : E.R. Sewter, Penguin books, 1982, pp. 355-57; Fulcher of Chartres, op.cit., pp. 164-66; William of Tyre, op.cit., I. xii, xiii, p. 430-33.

Albert d' Aix, op.cit., pp. 602-3.

(١٥)

(١٦) كذلك استخدمت أشجار الجميز للاختباء بها فى هذه المناطق من جنوب فلسطين وأشار إليها أيضاً الرحالة الروسى دانيال. انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ٩ ج، بيروت ١٣٩٨هـ، ج٨، ص ٩٠، وكذلك :

Pilgrimage of the Russian Abbot: Danil, in P.P. T.S. IV, London, 1888, p. 26.

(١٧) اختلفت المصادر الصليبية فى تفسير سبب الهزيمة. فبينما يذكر فوشيه أن السبب يرجع إلى خطايا الصليبيين ، يشير وليم أن الاختلاف بين القادة حول من يتسلم المدينة هو السبب مما أدى إلى وصول الإمدادات إليها. ويذكر ألبرت أن الصليبيين عسكروا عند نهر الخابور، ثم نقلوا معسكرهم بعد ذلك إلى موقع آخر أما مصادرنا العربية فلم تمدنا بتفاصيل كافية عن هذه المعركة. ويشير العظمى إلى أنها وقعت فى برية القطار ومات الباقون عطشاً. انظر:

Fulcher of Chartres, op.cit., W, 1-6; William of Tyre, op.cit., I.x. 29; Albert d' Aix, op.cit., pp. 614-615.

ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٣٢.

(١٨) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٦٠. فحدث في الوقت من الثلوج والأمطار ما عاق المسير إليها. أما ابن الأثير فيحدد مدة الشهرين، فنزل الغيث والثلج مدة شهرين ليلاً ونهاراً فمتعه ذلك. الكامل، ج٨، ٢٥٦. وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣٦٥-٣٦٦.

William of Tyre, op.cit., I. x, 7, p. 472-73. (١٩)

(٢٠) تجدر الإشارة إلى أن بعض المراجع أخذ برأى المصادر الصليبية في أن مودود قام بقتل الأطفال والنساء وهو مالم تُشر إليه المصادر العربية، بل أن بعض المصادر الصليبية أشارت نفسها إلى أن قاربين قد غرقا لأنهما كانا يحملان أكثر من حمولتهما.

William of Tyre, op.cit., x, 7, p. 472; Fulcher of Chartres, op.cit., xlix, p. 205-6; Albert d, Aix, op.cit., xxiv, 673f;

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٧١؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص ٥١٢؛ وكذلك محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١٧ وما بعدها، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٤٥٧-٤٥٩.

Albert d'Aix, op.cit., p. 675-81. (٢١)

(٢٢) وقد أشار ابن شداد إلى ذلك. وشرب بلدها جميعه من الساجور. انظر: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، نشر وتحقيق آن ماري ادة، منشور في: B.E.O. الجزء ٣٢-٣٣ دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١، ص ٢٣-٢٤.

(٢٣) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٦.

(٢٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، حيدر آبار، ١٩٥١، ق ١، ص ٣٨.

(٢٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٦٣؛ المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج٢، ٣، نشر محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٩٧١، ج٣، ص ٤٨؛

The Alexiad, p. 443.

Fulcher of Chartres, op.cit. II, p. 206, Alebrt d., Aix, op.cit., p. 694. (٢٦)

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٩٤-٢٩٥ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ق ١، ص ٤٢-٤٣.

William of Tyre, op.cit., I.x., p. 493-94. (٢٧)

وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٢٢؛ محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢٨) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٨٨.

Galterii cancellerii, Bella Antiocena, RCH-H. Occ. Vol v., pp. 107; Mathieu d' Edesse, Chronique (692-1136) in Bibiotheque Historique Armenienne Par Dulaurier, Paris 1858, p. 299; Fulcher of Chartres, op.cit., Iv, p. 227-28.

(٢٩) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ق ١، ص ٧٩؛ ابن منقذ، الاعتبار، تحقيق فليب حتى، برنستون، ١٩٣٠، ص ٤٠. وتعرف هذه المعركة أيضاً باسم ساحة الدم لكثرة ما أريق فيها من دماء الصليبيين.

(٣٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٠٤، وكذلك:

Fulcher of Chartres, op.cit., xii, p. 237.

William of Tyre, op.cit., i, xii, p. 539. (٣١)

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

William of Tyre, op.cit., ii, xiii, 1, pp. 1ff. (٣٢)

وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥٢٠-٥٢١.

Fulcher of Chartres, pp. 256-58. (٣٣)

(٣٤) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٣٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٢٩.

William of Tyre, op.cit., ii, xii, 26, pp. 40-41. (٣٦)

(٣٧) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٨٠؛ وتجدر الإشارة إلى أن هذه القلعة كان لها أهمية خاصة لأنها تقع عند أهالي وادي نهر الأورنت، كما أنها تسيطر على حماة وحمص.

William of Tyre, op.cit., ii, xiv, 7, pp. 57-58. (٣٨)

Ibid. (٣٩)

(٤٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٥٧-٣٥٨؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت (بدون تاريخ)، ج١، ص ٣٤؛ وكذلك محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

William of Tyre, op.cit., ii, xvi, 9-10, pp. 149-153. (٤١)

(٤٢) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٥٢؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ٥١.

William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 20-22, pp. 167-172. (٤٣)

(٤٤) محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنين، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ١٥٩-١٦٠.

(٤٥) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٦٢؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣، ص ٨٨-٨٩؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ق١، ص ١٩٨؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ٥٢.

J. Prawer, Histoire du royaume latin de Jerusalem, 2 vols. Paris 1970, vol.

I, 380-87; Aryah Grab ois, The Crusade of Louis VII; A reconsideration , in: Crusadde and Settelment , pp. 94-105.

(٤٦) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ق١، ص ١٦٧-١٨٩.

(٤٧) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٦٣.

(٤٨) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص

٥٧-٥٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، ج٢، ٢٩٨-٢٩٩؛ وكذلك : سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٣٧-٦٣٨.

William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 9, pp. 196-198.

(٤٩) تاريخ دمشق، ص ٤٧٣.

(٥٠) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٢١١؛ أبو شامة، المصدر السابق،

ج١، ص ٨٣-٨٤.

William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 10, p.199. (٥١)

(٥٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٦٤٣؛ محمود عمران، السياسة الشرقية، ص ١٨٧-١٨٨. وشملت بقايا الإمارة «تل باشر وسمياط وقلعة الروم ودلوك وعيتتاب والراوندان». راجع أيضاً: ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ٢٤ وما بعدها.

William of Tyre, op.cit., ii, xviii, 13, pp. 258-59 (٥٣)

وأشار ابن القلانسي إلى الكمين الذي وقع فيه الصليبيون. تاريخ دمشق، ص ٥١٩، ٥٢٠؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٧. وتجدر الإشارة إلى أنه كانت توجد عدة نقاط أو جسور لعبور نهر الأردن منها جسر بنات يعقوب وسن النبرة أو الصنبرة وجسر الحسين وجسر دامية ومخاضة القديس يوحنا. انظر:

Prawer, Crusader Institutions, Oxford 1980, p. 477

William of Tyre, op.cit., ii, xix, 5, p. 302. (٥٥)

وكذلك قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، ١٤٩، الكويت ١٩٩٠، ص ١٤٠.

Prawer, Crusader Inst., p. 479. (٥٦)

(٥٧) يضيف وليم الصوري الموقع بقوله «كان الميدان الذي قدر أن تجرى فيه المعركة على الحدود بين المنطقة الخصبة والصحراء. وكانت الأرض وعرة وتخللها هضاب من الرمال ومنخفضات لذلك استحالت رؤية القادمين أو الزاهبين من مسافة بعيدة». انظر:

William of Tyre, op.cit., ii, xix, 25, p. 331; cf. also: Omran, King Amalric and the Siege of Alexandria 1167. Crusade and Settlement, pp. 191-197.

وكذلك: البنداري، سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج ١-٣، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ج ١، ص ١٤٩؛ ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ٢٨. ويمتدح الأخير أسد الدين شيركوه لاهتمامه بالعامل الجغرافى، ويورد قصيدة للشاعر عمارة اليمنى يقول فيها:

أخذتم على الإفريج كل ثنية وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى

William of Tyre, op.cit., ii, xx., 17, pp. 368-69. (٥٨)

(٥٩) امتدت السلسلة بين برجين أحدهما فى وسط النيل والآخر أحد أبراج مدينة دمياط مقابل له. وكان رجال برج المدينة يرخونها فى حالة السماح للسفن بالدخول أو الإبحار ثم تشد عند إغلاق الميناء. أما البرج الواقع فى النيل فكان أقرب إلى الجهة الغربية، وكان يتم استخدامه أيضاً كمرشد للسفن. وأطلقت عليه المصادر قفل دمياط أو قفل الديار المصرية. وأضاف البعض وجود سلسلة أخرى تتصل بالجانب الآخر. ولكن من وصف المصادر يتضح وجود السلسلة الأولى فقط انظر: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ١٨٧-١٨٨.

William of Tyre, op.cit., ii, xx, 17, p. 368-69. (٦٠)

وكذلك محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٢٨٥، ٣١٠-٣١٧.

(٦١) حدثت العديد من الزلازل فى بلاد الشام جمعها لنا ماير من كتاب رورشت وهى على الترتيب:

١١٠٥، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٧، ١١٣٨، ١١٥٧، ١١٦٤، ١١٧٠،
١١٧٨، ١٢٠٢، ١٢٠٤-١٢٠٥، ١٢٦٩، ١٢٨٧ وكان أسوأها ما حدث فى أعوام
١١١٤، ١١٥٧، ١١٧٠، ١٢٠٢. انظر:

H.E. Mayer, Two unpublished letters on the Syrian Earthquake of 1202,
Festschrift A.S. Atiya, Leiden 1972, pp. 295-310.

(٦٢) الكامل، ج٩، ص ٥٣.

(٦٣) الروضتين، ج١، ص ١٠٣-١٠٥، وكذلك ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٥١٤-٥١٥. وتجدر الإشارة إلى أن الأهالي، قاموا ببناء منازل من خشب لحين انتهاء الزلازل. ويقول الشاعر:

كواخ فهي قبور سقفها خشب	تعوضوا من مشيدات المنازل بالأ
فيها فلا ملجأ منها ولا هرب	كأنها سفن قد أقبلت وهم

(٦٤) أبو شامة، نفس المصدر وكذلك:

William of Tyre, op.cit., ii, xx, 18.

(٦٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق ١، ص ٢٧٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ١٠٦؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ١٨٤؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري - أو تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، بصورة خطية، موسكو ١٩٦٠، لوحة ١٧٨؛ وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧١٥-٧١٦.

(٦٦) للمزيد عن استراتيجية الصليبيين وصلاحيات الدين في هذه المرحلة. راجع: حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية، بحث منشور في مؤتمر العلاقات المصرية - اليمنية، القاهرة، فبراير ١٩٩٠ م.

(٦٧) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٧-٧١٨.

(٦٨) انظر ما يلي عن مشروع هذه الحملة المشتركة.

(٦٩) شن صلاح الدين حرباً اقتصادية في هذه المرحلة وذلك بهدف الضغط على الصليبيين قبل أن يبدأ حملته ضدهم. كما أن الصليبيين أيضاً حاولوا استخدام نفس السلاح معه. وتمتلى مصادر هذه الفترة من عربية وأجنبية بالإشارة إلى ذلك سواء لدى ابن الأثير وابن واصل وأبو شامة وسبط ابن الجوزي والعماد الأصفهاني وغيرهم وكذلك لدى وليم الصوري وأرنول من المؤرخين الأجانب.

(٧٠) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧٥٣.

(٧١) William of Tyre, op.cit., ii, xxi, 16, pp. 420-21.

(٧٢) Loc. cit وكذلك حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٨٣-١٨٤.

(٧٣) القاضي عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامى، ج٣، تحقيق الدكتور مصطفى الحيارى، الأردن، ١٩٨٧، ص ٧٤.

(٧٤) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ٢٧٥؛ العماد الأصفهاني، البرق، ج٣، ص ٧٣-٧٤. وقد أشارت المصادر العربية إلى كونت فلاندرز بمسميات مختلفة مثل أكلندس وأقلند. وأقلند. راجع أيضاً: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٦٤، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٥٥.

- (٧٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان، ج٨، ق ١، ص ٣٤٢-٣٤٣.
- (٧٦) يطلق عليها أيضاً اسم Blance Garde وأسسها الصليبيون في عام ١١٤٢م ضمن خططهم الاستراتيجية للسيطرة على الطريق المؤدى إلى مصر - وتقع بالقرب من بيت جبرين بنواحي الرملة. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥ ج، بيروت ١٩٧٧، ج٢، ٤٢.
- (٧٧) العماد الأصفهاني، البرق، ج٣، ص ٣٦-٣٧٨.
- (٧٨) أبو شامة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٣.
- (٧٩) William of Tyre, op.cit., II, xxi, 23, pp. 430-431.
- وتؤكد المصادر العربية رواية وليم فيما يتعلق بأن أعداداً كبيرة ضلت الطريق، بل إن العماد يشير إلى أن الأدلاء خرجوا للبحث عن صلاح الدين حتى وجدوه، انظر: البرق، ج٣، ص ٤١.
- Ibid. (٨٠)
- (٨١) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧٦٣.
- (٨٢) البرق، ج٣، ص ١٤٤، ١٥٠، وكذلك:
- William of Tyre, op.cit., II, xxii, 1, pp. 446-47.
- Ibid, II, xxii, 16, pp. 472-73. (٨٣)
- (٨٤) الروضتين، ج٢، ص ٢٨-٢٩.
- William of Tyre, op.cit., ii, xxii, 20, pp. 481-82. (٨٥)
- Prawer, Crusader Inst., p. 493ff. (٨٦)
- Ibid, pp. 496-97. (٨٧)
- (٨٨) اختلف المؤرخون حول أشعال النيران في الحشائش الجافة وتوقيت حدوثها. وبعد مقارنة هذه الروايات ببعضها البعض يتضح لنا أن ذلك تم وفق تكتيكات المعركة. فقد استغل المسلمون هبوب الرياح الغربية التي ساعدت على زيادة اشتعال النيران والدخان الكثيف الناتج عنها في زيادة الضغط على الصليبيين. وأشار ابن القادسي إلى أن توقيت هبوبها كان في منتصف نهار المعركة، ولكن من باقى الروايات يتضح أنها أشعلت قبل ذلك

ربما مع بداية يوم القتال نفسه، ولم تشعل مصادفة ، بل أن سبط ابن الجوزى أشار إلى أن مظفر الدين بن زين الدين هو الذى أشعلها. ولا شك أن الجيش الإسلامى نجح فى استغلال هذا العامل الجغرافى استغلالا كاملا مع حرارة الجو والعطش الذى أدى إلى هلاك الصليبيين . انظر:

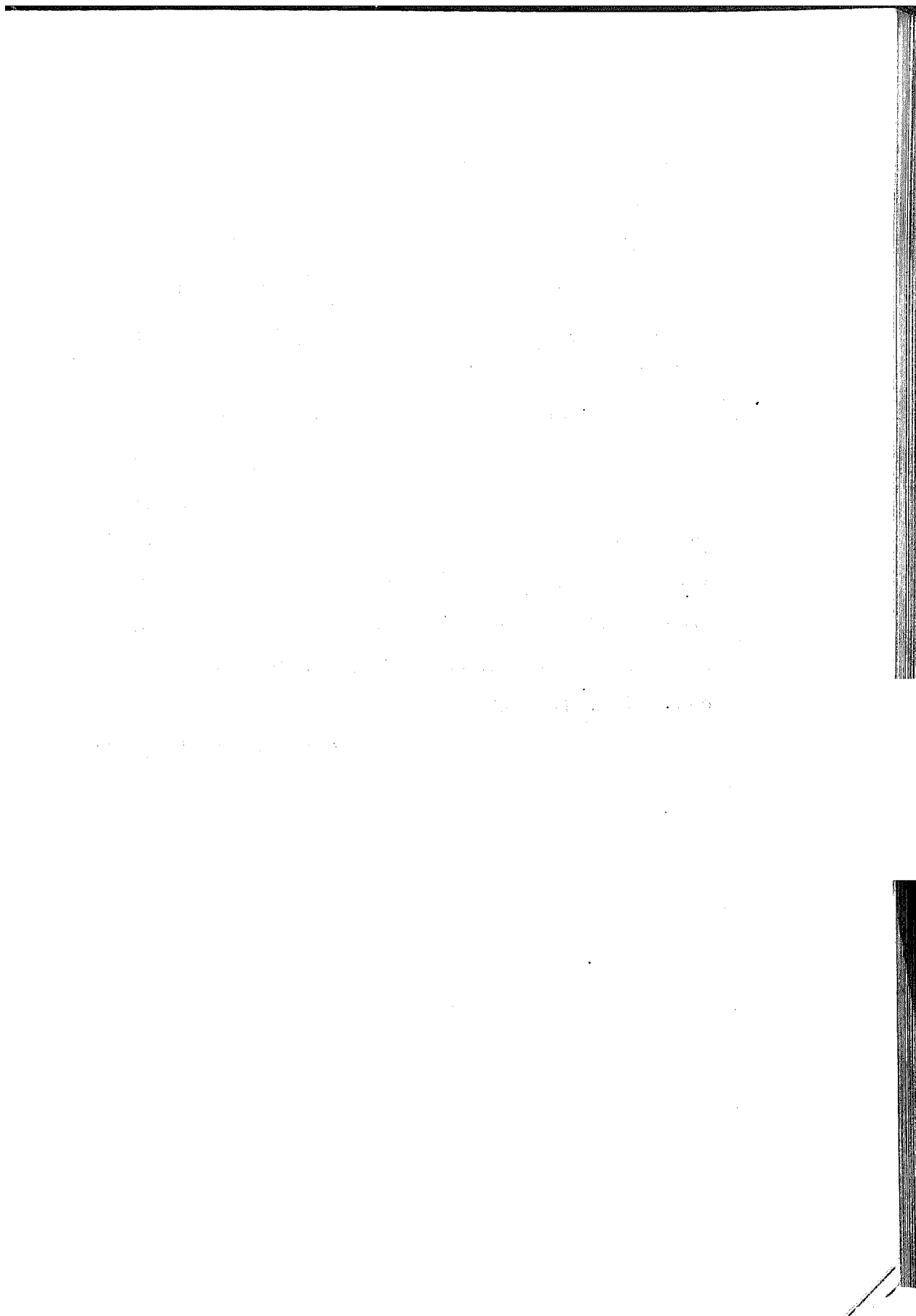
ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين ، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٤-٧٩؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٩٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ٧٥-٧٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ١٧٨.

(٨٩) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ١٧٨.

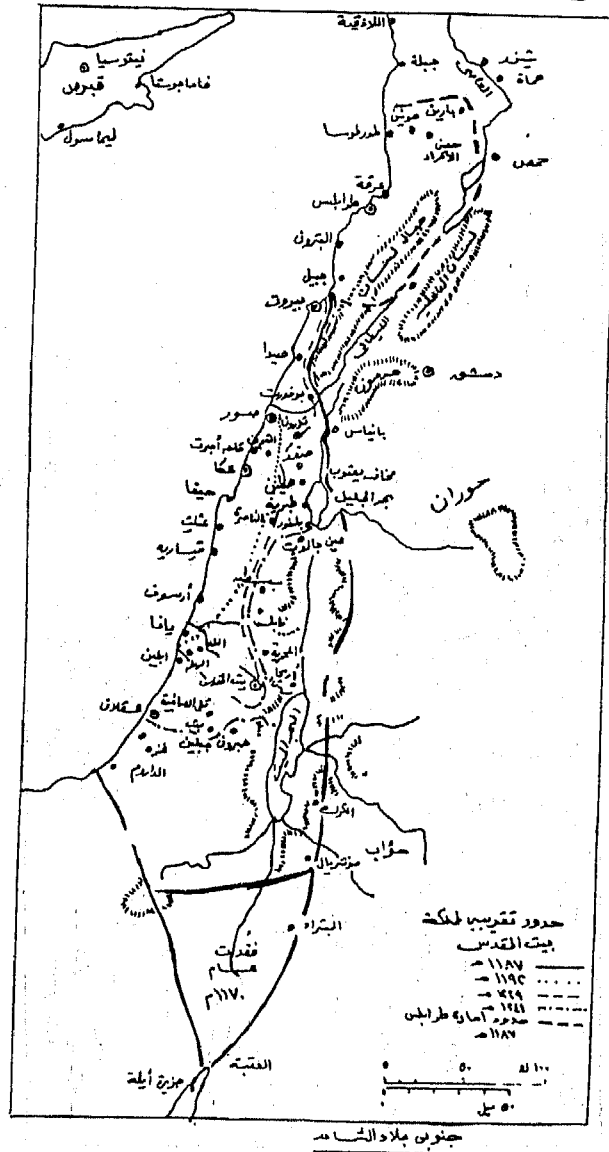
(٩٠) أشار ابن الأثير إلى إفناء ماء الصهاريج، أما أرنول وتاريخ هرقل فيلومان - ريموند على اختيار أرض المعسكر التى اعتقد أن الماء متوافر عندها على حين أن النبع كان جافاً. ويشير العماد الأصفهاني إلى قطع الطريق بين الصليبيين وبين المياه. عن ذلك انظر: الكامل، ج٩، ص ١٧٧؛ البرقى الشامى والفتح القسى فى أبى شامة، ج٢، ص ٧٥.

Peawer, Crusader Inst., p. 496.

(٩١) النوادر السلطانية ، ص ٧٤-٧٩.



خريطة (١)



« Mayer, The Crusades »

تقارن:

فهرس المحتويات

٥	المقدمة
	استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (١٠٩٩م) فى ضوء رواية
٧	بطرس تيدوده : «رأسة تاريخية مقارنة»
١٢	هوامش المقدمة
١٩	قائمة المختصرات
٢٠	الترجمة العربية
٢٨	التعليق والهوامش
	لوحة رقم ١ : بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها فى
٥١	١٠٩٩م
٥٢	لوحة رقم ٢
٥٣	يوشع براور : استيطان اللاتين فى بيت المقدس
٧٠	الهوامش
٧٧	اللاجئون السوريون - الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية
	الرشوة فى المجتمع الصليبي فى بلاد الشام منذ الحملة الصليبية
٩١	وحتى سقوط بيت المقدس (١٠٩٥-١١٨٧م/٤٨٨-٥٨٣هـ)
١٣١	الخاتمة
١٣٤	الهوامش
١٥٥	وضع المرأة فى الشرق اللاتينى
	الزنا (الدعارة) : واختلاط الأجناس والتطهير الجنسى فى الحرب
١٦٩	الصليبية الأولى
١٨٣	الهوامش
١٨٩	مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية
٢٢٣	الهوامش

- ٢٤٠ الملاحق والخرائط
- ٢٤٠ الملحق الأول : النص الفرنسى القديم
- ٢٤١ الترجمة
- ٢٤٢ الملحق الثانى
- دراسة لوصايا المنصور قلاوون من خلال مخطوط الفضل المأثور
- ٢٤٥ لشافع بن على الكاتب
- ٢٦٦ الهوامش
- أثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية منذ الحملة الأولى
- ٢٨٥ حتى معركة حطين (١٠٩٧-١١٨٧م/٤٩٠-٥٨٣هـ)
- ٢٨٧ مقدمة
- ٣١٥ الهوامش
- ٣٢٦ خريطة (١) : جنوبى بلاد الشام
- ٣٢٧ خريطة (٢) : شمالى بلاد الشام
- ٣٢٩ الفهرس

1000



Editor of The Alexandria Independent
Alexandria, Egypt

1000

